

الترجمة

أخبار وأمصار

رجلة الملبش إيفالده

من تونس إلى طرابلس

في سنة 1835

(مروا بسليمان ونابل والحمامات وسوسة
والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة)

نقلها من الألمانية
إلى العربية وقدم لها وعلق عليها

منير الفندري

بيت الحكمة - بيروت

التمن : 5.000 د.ت

ر.د.م.ك : 6 - 63 - 911 - 9973

المؤسسة الوطنية
« بيت الحكمة »

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

حظي هذا الكتاب بتوصية بالنشر من
الأستاذ المنجي بوسنيّة
وزير الثقافة

١١١٧٧٠

١١١٧٧٠

رَجُلُهُ الْمُبَشِّرُ إِيْفَالِدُ

910
إيفاليد

الدارة الأعطالة العمومية
المصلحة الفنية للكتاب

من تونس إلى طرابلس

في سنة 1035

(مرورًا بسلامة ونابل والحمامات وسوسة
والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة)

نقلها من الألمانية
إلى العربية وقدم لها وعلق عليها

منير القندري

3 أكتوبر 1995

المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات

بيت الحكمة

1991

سلسلة الترجمة

" LES TRAVAILLEURS TUNISIENS ET L' EMERGENCE DU MOUVEMENT SYNDICAL " (1)

نقله من العربية إلى الفرنسية عبد الرزاق الحايوي - 1985 .

(2) التفكير الجديد في الفيزياء الحديثة - لا رتور مارش

نقله إلى العربية علي بلحاج - 1986 .

(3) " SONGS OF LIFE " لأبي القاسم الشابي

نقله من العربية إلى الانكليزية ليناجيوسي وناومي شهاب نياي - 1987 .

(4) " HEINRICH BARTH'S BRIEFES AUS TUNESIEN "

نقله من الألمانية إلى العربية منير القندري - 1987 .

(5) " LE PETIT LIVRE DU SALUT "

نقله من العربية إلى الفرنسية روجي أرناالان - 1987 .

(6) " KASHF AL-ASRAR AN ILM HURUF AL- GHUBAR " للقاصدي

نقله من العربية إلى الفرنسية محمد سويسسي - 1988 .

(7) " JOURNAL " - لأبي القاسم الشابي

نقله من العربية إلى الفرنسية المنجي الشمللي ومحمد بن اسماعيل - 1988 .

(8) لغة الرياضيات في العربية

ألفه بالفرنسية ونقله إلى العربية محمد سويسسي - 1989 .

(9) مصادر الفلسفة العربية - لبيار دوهيم

نقله من الفرنسية إلى العربية أبو يعرب المرزوقي - 1989 .

(10) " سميلاسو في أفريقيا " نقله من الألمانية إلى العربية منير القندري

والصحبي الثابتي - 1989

(11) " في النحو التحولي " لموريس قراس

نقله من الفرنسية إلى العربية صالح كشو - 1989 .

(12) قصائد اليابان المائة

نقلتها من اليابانية إلى الفرنسية كلودين فراي وعربها الأديب الشاعر محسن

بن حميدة - 1990 .

(13) " تطور تونس الاقتصادي "

ألفه بالفرنسية محمد صالح مزالي ونقله إلى العربية الهادي التيمومي - 1990 .

(14) " المصريون " (دفاعا عن الاسلام والمسلمين)

ألفه بالفرنسية قاسم أمين ونقلته إلى العربية سعاد التريكي - 1990 .

(15) عائلة بسكوال نوارتي - لكميلو خوسي ثيلا

رواية نقلها من الاسبانية إلى العربية جمعة شيخة ومحمد نجيب بن جميع -

1991 .

(16) " سهرت منه الليالي " لعلي الدوعاجي

مجموعة قصصية نقلها من العربية إلى الانكليزية وليم قرانارا - 1991

المدير المسؤول : رئيس المؤسسة الوطنية « بيت الحكمة »

عز الدين باش شاوش

رحلة المبشر إيفالد / منير الفندري - تونس : المؤسسة الوطنية للترجمة
والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) 1991 (تونس : PRISME) ، 168 ص ، 24
صم (الترجمة : أخبار وأمصار) - مسفر .
ر.د.م.ك 6 - 63 - 911 - 9973



تنبيه

يعتبر كتاب «رحلة المبشر إيفالد»... وثيقة هامة تتضمن معلومات
اثنولوجية واجتماعية واثنوبولوجية. وهو على هذا الأساس معين ثري يفيد
المؤرخ ودارس المجتمع العربي في القرن التاسع عشر. ولهذه الأسباب سعت
مؤسسة «بيت الحكمة» إلى تعريبه ونشره.

لكن صاحب هذا الكتاب لم يلتزم حدود الوصف والعرض العلمي بل
ضمّن بحثه أحيانا نظرياته الخاصة في تفسير الظاهرة الدينية عامة والديانة
الاسلامية خاصة، مع ما في ذلك من انحياز عقيدي لديانته التي يقابل بها
ما يزعمه من تعصّب المسلمين.

ولئن كانت الأمانة العلمية تقتضي اثبات الوثيقة على علاقتها، فقد رأينا
أن لا ننشر ما لا فائدة توثيقية في نشره. كما رأينا أن لا نتصدى لمناقشة
المؤلف بخصوص نظريته إلى الدين الإسلامي لأن كتابه ليس بحثا في العقيدة
فُيردّ عليه من هذا الوجه. وما أتى الحديث عن العقيدة إلا استطرادا، وهو
استطراد لا يفيد دارس المجتمع العربي الاسلامي وانما يترجم عن تصوّرات
صاحب الكتاب الشخصية.

«بيت الحكمة»

سحب من هذا الكتاب 3000 نسخة في طبعته الأولى

© جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة الوطنية

للترجمة والتحقيق والدراسات - بيت الحكمة - 1991

مقدمة المترجم

إن من طالع رحلة الأمير بوكليير موسكاو الى تونس سنة 1835⁽¹⁾ يذكر
لا شك تعرض صاحبها الى شخصية مبشر ألماني الجنسية التقى به في حاضرة
تونس نشيطا في نشر الانجيل بين اليهود وحتى المسلمين وإقامة القداس وغير
ذلك من الطقوس العقائدية بالنسبة إلى المقيمين من طائفة البروتستانت. وقد
عرّفنا به ضمن تعاليقنا على الترجمة العربية لهذه الرحلة كونه المدعو
كريستيان فردناند إيفالد وقلنا انه صاحب رحلة مزمنة لرحلة الأمير بوكليير
ربط ضمنها بين الحاضرتين تونس وطرابلس طوال الشريط الساحلي ونشرت
باللسان الألماني سنة 1837 تحت العنوان التالي :

REISE DES EVANGELISCHEN MISSIONAR
CHRISTIAN FERDINAND EWALD
VON

TUNIS ÜBER SOLIMAN, NABAL, HAMMAMET, SUSA,
SFAX, GABIS, GERBA NACH TRIPOLIS
UND VON DORT ZURÜCK NACH TUNIS
IM JAHR 1835

Herausgegeben von Dr. Paulus Ewald
NÜRNBERG (EBNER) 1837

وقد رأينا فيها من التكامل مع رحلة الأمير من ناحية ومن فائدة توثيقية
ذاتية من ناحية أخرى ما جعلنا نقدم، بإيعاز من مؤسسة «بيت الحكمة»،
على نقلها إلى العربية وتقديمها إلى من يهوى كتب الرحلات عامة وإلى من
يهتم بماضي أقطارنا المغربية خاصة ولا سيما من خلال منظار الشاهد الغربي.
ومما يزيد الرحلة هذه طرافة وأهمية شخصية صاحبها اللافتة للانتباه لا
سيما وقد جاء إلى بلاد الاسلام لا للسياحة أو للاطلاع بل مبشرا بدين
المسيح راميا الى «انقاذ» نفوس من لم يكن من الأهالي على مذهبه، كما
كان يرى هو ومن كلفه بمهمته.

ولم يتمكن من ضبط مصدر ضايف نستقي منه ما يشفي الغليل عن شخص هذا الرجل وحياته فاقتطعنا من هنا وهناك حوصلة من شأنها أن تفي بالحاجة إلى أن نستقي صورته الثقافية فيتيسر لنا الكشف عن حوافزه على هذه الرحلة بمختلف مراحلها واستجلاء مواقفه وفهم آرائه وأفكاره كما ينبغي.

وقد وجدنا أنه عاش فيما بين 1803 و1875⁽²⁾ فكان عمره لدى حلوله بتونس إذن تمام الثلاثين سنة. ذلك أننا عثرنا على مقالات له أو عنه في صحف بعض جمعيات التبشير⁽³⁾ استفدنا منها أن صاحبنا وطىء أرض تونس وبالتحديد مرسى حلق الوادي في غضون سنة 1833 أو 1834 قادما إليها من الجزائر⁽⁴⁾ حيث كان يقيم منذ 1832. فمن بين هذه المقالات واحدة تعتمد رسالة من إيفالد نفسه بعثها من المكان المذكور بتاريخ الثالث من نوفمبر 1832 يروي فيها بداية نشاطه كمبشر بالإنجيل في الجزائر غداة احتلالها. وهي تكشف لنا عن أساليب عمله المتنوعة هناك ثم في تونس وسوف نعود إلى هذه النقطة. وجاء إيفالد إلى بلاد المغرب مباشرة إثر تدشين عهد الاستعمار الفرنسي فيها بإيعاز من جمعية مسيحية تابعة للكنيسة الانكليكانية تعنى بتنصير اليهود بالخصوص هي :

The London Society for the Promotion of Christianity among the Jews⁽⁵⁾.

والجدير بالذكر أن إيفالد نفسه من أصل يهودي. ففي عدد ثان من نفس الصحيفة نقرأ تحت عنوان «مقتطفات من يوميات إيفالد المبشر بين اليهود» أنه «إسرائيلي» تنصر قبل أن ترسله جمعية لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود إلى «بلدان القرصنة بشمال إفريقيا لكي يدلي إلى اليهود بالشهادة على منقذ بني إسرائيل الصحيح»⁽⁶⁾. وقد تدعم لدينا هذا الخبر على لسان الأمير بوكليز الذي عرّف به بوصفه شابا كان في الأصل يهوديا اعتنق المذهب الكالفيني بمدينة بازل السويسرية ثم انضم إلى الكنيسة الانكليكانية التي لا شلّك أنها لقيت فيه من المؤهلات والتحمس لخدمة العقيدة البديلة ما جعلها تنوط به مهمة التبشير باسمها على سواحل إفريقيا الشمالية إبان دخول الاستعمار الفرنسي إليها. فكانت الجزائر محطته الأولى ومنها انتقل إلى تونس

حيث دشّن فرع الجمعية المذكورة بحاضرة إيالة تونس وأشرف عليه إلى غاية 1840 أو 1841 وهو ما يؤكده لنا خلفه دافيس⁽⁷⁾.

وقد مضى إيفالد طوال تلك الفترة — بقطع النظر عن الأشهر الخمس التي تطلبتها الرحلة — مثابرا في العاصمة تونس وفي كنف حماية قنصل أنكلترا العام، السير توماس ريد، على أداء مهامه التبشيرية بالنسبة إلى اليهود وحتى المسلمين كما أشرنا والطقوسية بالنسبة إلى الجالية البروتستنت المقيمة بالمكان آنذاك وعندها لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين نسمة جلهم من القناصل وعائلاتهم⁽⁸⁾. ويمدنا الأمير بوكليز ببعض الارشادات عن نشاط ابن قومه هذا ويؤكد ببعض التهكم فشله الذريع في تنصير أي كان رغم الكميات الهائلة من الكتب «المقدسة» التي كان يجود بها. ويسوق بوكليز في هذا الصدد نادرة طريفة تعكس هذا، مفادها أن «الشاب الطيب القلب» كما يسميه تسرع في تأويل الإقبال الكبير على كتبه وأناجيله ولم يدرك حقيقة الأمر إلا عندما تجول في الأسواق فما راعه إلا وأصحاب المتاجر قد اتخذوا منها ورقا للفضاعة⁽⁹⁾.

وخلال هذه الفترة قرر إيفالد — أو لربما جاءه بالأحرى أمر في ذلك — بالتحول إلى مدينة طرابلس ليشملها زمنا بعنايته «الانقاذية». إذ أنها كانت رحلة تبشيرية صرفا غايتها الكرز بالإنجيل والدعوة إلى دين المسيح على طول الطريق الرابطة بين تونس وطرابلس والاجتهاد في كسب الأنصار من بين أهالي المدن الواقعة على هذه الطريق، اليهود منهم أولا ثم من وجد إلى إقناعه سبيلا من بين المسلمين أيضا. وتهاى إيفالد لهذه الرحلة الجريئة حقا وتسليح — بغض النظر عن مسدسيه وإيمانه القوي أو تعصبه — بكميات هائلة من كتب الإنجيل وغيرها من كتب المسيحية بشتى الألسن ولا سيما العربي منها واكثرى عربية وأجّر خادما وتزود بخطابات التوصية ولبس الأبيض وانطلق على بركة ربه ومتوكلا أيضا على حماية قنصل أنكلترا ونوابه.

وفي الحادي عشر من شهر ماي 1835 بارح إيفالد حاضرة تونس صوب طرابلس التي وصلها في السابع عشر من شهر أوت إثر رحلة برية بحرية

توقف خلالها بكل من سليمان ونابل والحمامات وهرقل وسوسة والمنستير والمهدية والجم وصفاقس وقابس فجربة. وبعد أن قضى حوالي شهرين ونصفا بطرابلس قفل راجعا إلى تونس التي بلغها بعيد منتصف شهر أكتوبر من نفس السنة. وبالتالي يتمثل النص الذي بين أيدينا أولا وبالذات في وصف طريف للرحلة المذكورة بما تخللها من وقائع وأحداث ومن كشف وإطلاع ومن مواقف ومشاهد ومن يسر ومن عسر ولكن أيضا — بحكم كلف مؤلفها المميز — ما اكتنفه من نشاط تبشيري جعل صاحبه لا يقتصر كسائر السواح الأوروبيين عامة على عبور الأماكن المغربية عبور الكرام متحاشيا الاحتكاك بالأهالي بل نجده حريصا كل الحرص على الاتصال بالسكان، لا اليهود فحسب بل المسلمين أيضا، إما بانتهاز ما تهيأ من الصدف أو حسب خطط عملية مضبوطة. إذ نراه في إحدى المناسبات يصرح بأنه يتوخى ترصد المارة في الأنهج ويخاطب من لقيه بمفرده بسؤال ما ثم يدخله في حوار حول الدين وفضل المسيحية بطبيعة الحال. ونص الرحلة ثري بنماذج طريفة مما كان يدور من نقاش بين هذا المبشر وأسلافنا وهو ما يضيف على النص هذا حيوية قلما نجدها في غيره من كتب الرحلات الأوروبية إلى أقطارنا.

وقد أعانته على ذلك بلا ريب معرفته للعربية. ولئن نره يدعي ويعيد إماما جيدا بلغة الضاد فإنه يبين من خلال ما يعترضنا هنا وهناك من ألفاظ عربية بالأحرف اللاتينية أن معرفته بها في الواقع محدودة. لكنها كانت على ما يبدو كافية لربط الحديث مع من لم يمانع من عامة الناس وللخوض في النقاش والجدال مع العديد من الأعيان وأهل العلم. وكان بحكم أصله اليهودي حسب قوله يحسن العبرية ويستعملها لمخاطبة جماعات اليهود وأفرادهم. هذا بصرف النظر عن حذقه الواضح أو المزعوم لشتى اللغات الأوروبية ونذكر منها عدا الألمانية واللاتينية، لغة الكنيسة، الانكليزية والفرنسية والاطالية.

ولكن سرد إيفالد لا ينتهي بعودته إلى مقره بنونس بل يتواصل على مدى الثلث الأخير من الكتاب ليغطي فترة إقامته بحاضرة تونس إلى غاية الثاني عشر من جانفي 1836 فيصف أحداثا كان لها شاهد عيان تكتسي اليوم

أهمية تاريخية، ويروي مواقف عاشها نراه من خلالها في نقاش مع بعض المسلمين حول مادته العزيزة المبعلة : الأديان وفضل ديانته على غيرها. وأهم هذه الأحداث ما له علاقة بباردو، مركز حكم الحسينيين آنذاك. فقد واكب إيفالد بعد رجوعه الاحتفال بعودة الوزير شاكير صاحب الطابع من اسطنبول والحفل الرسمي الذي تلا ذلك وسلم فيه مولاه الباي الجديد مصطفى فرمان المبايع من لدن السلطان العثماني والقفطان... كما أنه واكب قبل هذا حفل زواج نفس الوزير.

ويتهيء الكتاب بفصول تتناول التعريف بالقطر التونسي على الصعيد الاجتماعي والتاريخي والعقائدي بالخصوص. ولا نستغرب ما يطغى على الوصفين الاجتماعي والتاريخي من ضعف وسقم فمن أول وهلة يتضح لنا أن ثقافة صاحبنا رهينة إيمانه المفرط وأنه غير قادر على تقدير الأشياء وتقييمها بصفة مجردة أي بدون منظاره العقائدي والتبشيري. ولكن ما يثير انتباهنا بالخصوص تلك الأخطاء الفادحة الشائعة ضمن أخباره حول فرائض المسلمين وطقوسهم وشعائهم. وبهذا الخلل يتجلى بوضوح قصور هذا المتحدي الذي يدعي ويتبجح طوال الرحلة بأنه يعرف جيد المعرفة كل ما يتعلق بديانة المسلمين فيحكم عليها بكونها على غير صواب.

وفي هذا الحكم مفتاح اصراره العنيد على تنصير المسلمين. ففي رأيه الراسخ والسادج على السواء — وهو رأي لا يختلف في الواقع عن موقف معاصريه من الأوروبيين عامة حيال أقطارنا المغربية أو «بلاد البربر» (Barbaresques/Barbaresken) كما أحبوا تسميتها — أن المسلمين متأخرون حضاريا وأنهم لفي وضع أقرب إلى الهمجية منه إلى «الحضارة» وأن علة ذلك تكمن أولا وبالذات في دينهم الاسلامي لا سيما وأن القطر — حسب نظرته التاريخية المنحازة — كان مزدهرا في عهده المسيحي فإن هم تركوا دينهم ودخلوا في دين المسيح كتب لهم الخلاص في الدنيا فضلا عن الآخرة. وكم كان يستغرب أن يزدرى «المشفق عليهم» يد النجدة التي كان لا يكل من مدها إياهم ويسمى ذلك تعصبا. ولا غرو أن يعترضنا أحيانا ونحن نقرأ رحلته، التي مقضى عليها الآن قرن ونصف ما لا يستحسنه المسلم.

وفي هذا الصدد نود أن نعيد ما ورد في مقدمة ترجمة عربية حديثة لبعض كتب المستشرقين : « فلا يحزنك ما في الكتاب من موقف سلبي من الاسلام وما يتوزع على كلماته أو يخشيء ورائها من حقد دفين [أو صريح] والتواء فهم. ان ذلك من طبيعة الأشياء»⁽¹⁰⁾.

لقد ظهرت هذه الرحلة في ألمانيا وصاحبها ما زال في تونس وتكفل بنشرها المدعو بولوس إيفالد والمعرف به ضمن صفحة العنوان بوصفه «قس ملكي بلاش». ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص أب مبشرنا الروحي الذي أعاره لقبه المسيحي بعد أن تخلى عن هويته اليهودية. ومن نفس المكان — «بلاش» Plech لعله بلدة Ples الواقعة في مقاطعة «شلازيان» البروسية سابقا والبولونية راهنا — يمضي الناشر كلمة الافتتاح التي نستشف منها أنه تصرف في النص الأصلي بعض الشيء بأن حذف مثلا معظم التقارير المتعلقة بنشاط المؤلف التبشيري ولم يبق منها إلا القليل. ومن شأن هذه الكلمة أن ترشدنا إلى أهمية هذه الرحلة وما شملته من بقاع بالنسبة إلى معاصريها. ولم يبالغ كاتبها حين أشار إلى افتقار الألمان آنذاك إلى معلومات ضافية حول تونس والأقطار المجاورة وقد قوي الاهتمام بها منذ دخول الفرنسيين إلى الجزائر. ولعل القراء المعاصرين الحريصين على المستوى الراقي وجودة الأسلوب لم يستحسنوا شيئا آخر من نص إيفالد سوى هذا الجانب الإخباري حول أماكن شعوبها ما زالت آنذاك بعيدة شيئا ما عن أفقهم المعرفي. فالنص لا يمتاز في الواقع بعمق أو بثاقب نظر على مستوى تحليل الآراء وتقديم المستوعب من عالم الرحلة الغريب ولا بجمال الأسلوب وقوة التعبير فهو على كل هذه المستويات لا يعدو أن يكون متوسط الحال لا يخلو في كثير من الأحيان من ضعف فادح مما استوجب أن نقرأ لذلك في ترجمتنا حسابا بقدر المستطاع.

والجدير بالإشارة أخيرا أنه كان لرحلة إيفالد صدى مزمّن في أنكلترا أيضا إذ وجدنا منها فصولا مترجمة في أعداد مختلفة من صحيفة⁽¹¹⁾ The Penny Magazin. وباللسان الأنكليزي رأسا ظهر كتاب إيفالد الموالي عن عمله التبشيري في محطته التالية بعد تونس، ألا وهي القدس⁽¹²⁾.

هوامش المقدمة :

- (1) زار هذا النبيل المظف إباله تونس قاءما إليها من القطر الجزائري المجاور سنة 1835 وبالتحديد فيما بين أبريل وبداية نوفمبر. انظر وصف هذه الرحلة في الأجزاء 3 — 4 — 5 من : Fürst Pücker - Muskau : Semilasso in Afrika... Stuttgart 1836. وقد قامت مؤسسة «بيت الحكمة» بإصدار ترجمة عربية لهذه الرحلة شاركنا في إنجازها.
- (2) ندين بهذه المعلومة إلى السيد زهير الشلي انظر عمله : Z. Chelli : La Tunisie au rythme des estampes. Tunis 1987, p. 70
- (3) الصحيفة المعنية هي : Barmer Missions - Blatt.
- (4) انظر العدد الصادر بتاريخ 18 أوت 1834 من نفس الصحيفة.
- (5) يعود تأسيس هذه الجمعية إلى سنة 1809. انظر : Weltkirchen - Lexikon, Stuttgart 1960, Sp. 857.
- (6) انظر الصحيفة المذكورة أعلاه في نشرتها بتاريخ 24 أوت 1835.
- (7) هو القس الانكليكاني والباحث في علم الآثار في نفس الوقت N. Davis. وقد اكتشف له الباحث التونسي بول صباغ كيبا يتعلق بتونس صدر بالانكليزية في مالطا سنة 1841 يحتوي بعض المعلومات حول فرع جمعية لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود بتونس ويذكر إيفالد كونه كان على رأس هذا الفرع. انظر :
- P. Sebag : Description de Tunis au XIX^e siècle. In : Cahiers de Tunisie N° 21/22, 1958, pp. 161.
- ومما يدل على بقاء إيفالد بتونس إلى غاية 1840 على الأقل مقال آخر لصحيفة Barmer Missions - Blatt بتاريخ 12 أوت 1841 يتحدث ضمنه المعني عن ألمان أسلموا والتحقوا بخدمة باي تونس اكتشفنا في شأن أحدهم أنه وصل تونس في السنة المذكورة.
- (8) حسبما جاء في أخبار إيفالد. ويرد عن دافيس (المصدر السالف الذكر) أن الحضور عند إقامة القداس في فرع الجمعية لا يتعدى خمسة عشر نسمة على الإجمال.
- (9) انظر Plückler - Muskau المصدر المذكور الطبعة الألمانية الأصلية، ج 3، ص 72.
- (10) القول لـ د. شاكر مصطفى في مقدمته لترجمة «تراث الإسلام» لشاخت وبوزورث (سلسلة «عالم المعرفة» الكويت الطبعة الثانية، 1988، ص 9).
- (11) انظر مثلا من هذه الصحيفة الأعداد : 13 جانفي 1838 و 31 أوت و 29 أكتوبر 1839.
- (12) عنوان هذا الكتاب هو التالي :

Journal of missionary labours in the city of Jerusalem during the years 1842 - 3 - 4, by P.C. Ewald. London : Wertheim 1845.

مقدمة الناشر الألماني

ليس هناك في الحقيقة موجب إلى كلمة افتتاح مطولة عند نشر رحلة تأتي بأخبار مفيدة حول رقعة هامة من ساحل إفريقيا الشمالي وتسلط أضواء مرجوة للغاية على مناطق جغرافية ما زال الظلام يغمرها. وليس ما قيدته هذه الرحلة من آثار عتيقة أقل أهمية في نظر عالم الآثار ولا ما عقبها من بيان في التاريخ القديم بالنسبة إلى المؤرخ، في حين يفاجأ هواة علم البلدان والشعوب بما انطوت عليه من ملاحظات غزيرة تهمة دين سكان هذه البلدان وعاداتهم وتقاليدهم وتتصل بدستور المدن التي شملتها الرحلة ونظامها وشرعها إلخ.. ولا بد أيضا أن كل قارئ فطن يستخلص بنفسه أنه لا يتوصل إلى استقاء أوثق المعلومات في «بلاد الهلال» إلا من تسنى له استيعاب لغة المسلم وعاداته على مستوى رفيع وتحدى الصعوبات والمشاق والأخطار لا هم له سوى تحقيق الهدف من مهمته. وكتب الرحلات من هذا القبيل نادرة الوجود وبالتالي تقابل في يومنا هذا بالترحاب وعظيم الاهتمام.

ويستخلص عالم اللاهوت المسيحي من فحوى هذا المؤلف حقائق عقائدية عجيبة حول الاسلام وخصوصا حول تعاليم طائفة «الوهابية» مما يمكنه من بلورة رأي صحيح في هذا الصدد.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن نشاط الرحالة كمبشر لا يتناول بالذكر إلا بصفة اعتراضية أي في صورة ما بدا ادراجه ضروريا لفهم سياق الحديث.

ومن شأن الرسوم المرافقة للنص أن تزيد الرواية وضوحا وأن تخلف في الذهن صورة حية عن حياة مسلمي ساحل إفريقيا الشمالي وممارساتهم فكل الصور تقريبا رسمت على عين المكان وبالتالي فإنها تعكس الواقع بأمانة.

بلاش في جوان 1837

د. إيفالد

سليمان في 12 ماي 1835

كنت أنوي بدء رحلتي من تونس إلى طرابلس طوال ساحل البحر اتر عيد الفصح مباشرة. إلا أن عراقيل مختلفة طرأت وحالت دون ذلك. منها أن خادمي، الذي كان مرضياً بصورة إجمالية، كان يميل ميلاً مفرطاً إلى الكذب فكان رغم انذاري وتحذيري لا ينفك يكذب عليّ إلى أن اضطررت إلى صرفه عني. وأشار عليّ مسلم أعرفه بخادم آخر فوافقت في الحين. وهو ينتمي إلى قبيلة «الورقلية» التي تقيم على بعد قرابة عشرين يوماً سفراً من مدينة تونس وتتمتع بالحرية والاستقلالية ولا تخضع إلا لسلطة شيخها. وهم قوم يمتازون بالثقة والوفاء ويحظون في تونس بسمعة طيبة للغاية. ومنهم ينتدب حراس الليل ولا يعهد إلى غيرهم بحراسة القصر من الخارج فكلما احتاج أحدهم هنا إلى رجل أمين لخدمته بعث إلى «الشاوش»، رئيس طائفتهم، الذي يكون ضامناً لكل فرد منهم، لكي يعين له رجلاً من «الورقلية».

لهذا سررت كثيراً بخادمي الجديد. لكن ما إن وقعت عيني عليه ورأيت أنه كذب حتى اكتشفت أن النكبة المصرية الثالثة تغمره وتغشيه⁽¹⁾. وأشعرته بكل رفق بذلك وأوعزت إليه بشراء ثياب جديدة بدلاً من التي كان يرتديها. فكان ردّه أنه يريد أولاً استشارة «شاوش» في الموضوع وقصده في الحين. وبعد هنيهة أتاني معاً وقال لي الرئيس ان «الورقلي» يصعب عليه مفارقة أصحابه القدامى الأوفياء من أجل مخدوم. وهكذا وجدت نفسي مرة أخرى بدون خادم. وعلى أثر هذا عرض عليّ رجل مالطي نفسه ولم أوافق إلا على مضض لأن هؤلاء القوم على العموم سراق ماكرون ولكن الحاجة دفعني

(1) المعنى من هذه الصورة المستوحاة من «العهد القديم» (سفر «خروج» الفصل الثامن، اصحاح 16) هو أن الرجل في رأي ايغالده مغشى بالقمل.

إلى القبول. ثم إن المطر أخذ ينهمر، زد على ذلك أن صحة الباي تدهورت واشتد مرضه وصار موته منتظراً يوماً بعد يوم. وكانت هناك بعض التخوفات من أن يؤدي مماته إلى اندلاع ثورة لأن البلاط منقسم إلى شقين قويين يقفان في عداوة وجهها لوجه. أما الشق الأول فهو يناصر شقيق الباي، سيدي مصطفى، في خلافة العرش، وأما الثاني فهو يفضل ابن الباي. وبتزعم هذا الشق الأخير «صاحب الطابع» الذي يتقلد حالياً مهام الوزير الأول والذي يمسك بزمام السلطة بلا منازع⁽²⁾.

ويقف على رأس الشق الأول سيدي مصطفى نفسه الذي يحظى بمحبة الناس عامة. وفي صورة اندلاع ثورة في أثر وفاة الباي فإن مسافراً وحيداً، ولا سيما مكرزاً بالإنجيل مثلي، قد يجد نفسه في خطر جسيم. ثم إن صديقاً من حاشية الباي قد نبهني إلى مثل هذا الاحتمال⁽³⁾. لكن بما أن مرض الباي طال أمده وتمادت الأنباء عن صحته متراوحة بين كونها حسنة اليوم وكونها سيئة في الغد، ولما كان الجوّ قد تحسّن في الأثناء، فاني أقررت العزم على شدّ رحالي ومباشرة الرحيل على بركة الله. وبادرت قبل ذلك بإرسال كتب الإنجيل إلى سوسة حيث أنوي تمديد الإقامة. وبعد أن أتممت كامل تحضيراتي لهذه الرحلة ركبنا أنا و«كرمالي» — هكذا يدعى خادمي — متن عربة ذات عمليتين كنت اكريتها وحملتها كافة لوازم سفري وانطلقنا في السادسة من صباح أمس عبر «باب الجزيرة». ولما كانت الفنادق لا توفر



(2) أي شاكير صاحب الطابع، وزير حسين باي القوي الذي ضعف شأنه بموت هذا العاهل إلى أن قتل على يدي مصطفى باي وابنه أحمد في أواخر 1837. انظر تفاصيل الأحداث التي يلحظ إليها ايغالده كما رواها معاصره الرحالة الأمير بوكليبر موسكاو في رحلته «سميلاسو في افريقيا» التي نشرتها مؤسسة «بيت الحكمة» معربة، قرطاج 1989 (ص 152 وما تلاها).

(3) قد يكون المعنيّ جوزايني رافو، الايطالي الأصل الذي ارتقى خططا عالية في البلاط الحسيني في عهد حسين باي وخلفه مصطفى وابنه أحمد باي بالخصوص.

للمسافر شيئا ما عدا الجدران الأربعة فإنه يتحتم التزود بكل لوازم التغذية وغير ذلك من الضروريات.

وما إن تركنا منازل الأحياء خلفنا حتى وصلنا قبور الأموات التي تترامي أطرافها حتى باب المدينة. وسرنا بالطريق ربع ساعة على طول المقبرة حيث الأضرحة التي يتجدد دوماً طليها والتي تغطي الهضاب القريبة وتلمع في أشعة شمس الصباح. وفي هذا المكان وعلى رؤية هذه الهضاب اتضح لي على أحسن وجه قول الرب كما ورد في انجيل متى، الاصحاح 23 : 27 — 29. إذ ما زالت قبور اليهود والمسلمين إلى حد الساعة تظلي من حين لآخر بالجير فتشكل، لا سيما عن بعد، منظرا جميلا.

كان الصباح جميلا والمنطقة المحيطة أجمل، ورغم أن نسبة الزراعة فيها لا تكاد تغطي نصف المساحة فإن الاخضرار والخصوبة يغمران المكان كله. كانت على يميني مروج لطيفة تخالها أكاليل الزهر تتناوب مع حقول الزرع، في حين لاحت للناظر يسارا في اتجاه بحيرة تونس تلال بسيطة الارتفاع تكسوها أشجار الزيتون. يا له من قطر بهيج! [...].

كانت أول قرية اعترضتنا قرية «سيدي فتح الله» الصغيرة، التي تبعد عن تونس مسافة ميل أنكليزي وتسمى هكذا نسبة إلى «درويش» [كذا] يدعى «فتح الله»، مدفون بهذا المكان. وتقد النساء بكثرة لاستجداء بركة هذا الولي بغية انجاب الأطفال. ويشاع أن يوم الجمعة هو أفضل الأيام لهذا الغرض. وحتى يتحقق الدعاء يتعين على الزائرة أن تتسلق صخرة مجاورة لمقام هذا الولي ثم تنحدر انزلاقا على ظهرها(*).

(*) هذا ما رواه لي بعضهم. غير أنني لقيت في هذا الخبر من قلة الذوق وعدم الحياء ما جعلني لا أصدق. لكنني مررت يوما بالمكان صحبة القنصل السويدي وغيره من السادة فشاهدت جمعا من النساء يصعدن ممارسة هذا الصنيع كما هو مذكور أعلاه.

وسرنا ميلا أنكليزيا آخر فاذا ببلدة «رادس» على يميني تنبؤا ربوة بين بحيرة تونس والبحر. وهو المكان الذي كان يعرف في القدم بـ «أداس» (Ades) والذي انتصر فيه «ريغولوس» على القرطاجيين. وتلوح على مقربة منه الهضاب التي حشد عليها «حمون» (Hamon) فيلته عن غير حكمة ممّا أدى إلى هزيمة جيشه، وتغمرها اليوم أجمل أشجار الزيتون. وفي موقع غير بعيد من «رادس» عبرت جسرا يجري من تحته وادي «مليان» أو «كاتيدا» (Cateda) كما سمّاه القدامى. وفي الساعة التاسعة بلغنا حمامات «حمام الأنف» السخنة والشهيرة في عهد الرومان وفي يومنا هذا كذلك. وهنا يملك باي تونس قصرا شتويّا من عادة صاحبه أن يرتاده في هذا الفصل بمعية كافة أفراد البلاط. ويبدو هذا البناء للناظر من الخارج كأنه دير راهبات، علما بأن كافة نوافذه شدت عليها الشبايك بسبب النساء. أما داخله فهو مزدان بزينة شرقية فاخرة.

وكان معي رجل روسي، هو السيد «ك...»، رغب في قطع بعض المسافة صحبتي، كان يحمل رسالة من «صاحب الطابع» إلى «الوكيل» ناظر القصر، ممّا أتاح لنا زيارة القصر من الداخل. وطاف بنا «الوكيل»، وهو زنجي من عبيد الوزير الأول، عبر كافة الغرف. ولما كان السيد «ك...» يجهل العربية فقد قمت بدور المترجم فحسبني «الوكيل» خادما له وقال لي على عادة المسلمين كثيرا من الكلام الحسن لأنقله إلى السيد «ك...». وبعد أن انتهينا من زيارة كافة أرجاء القصر رأينا أن لا بأس في أن نقدّم إلى الناظر مكافأة جزاء تعب. وهمّ السيد «ك...» بتنفيذ ذلك على أليق وجه، ناهيك أن أحدا ممّن كان حولنا لم يتفطن إلى صنيعة. ولكن يا لذهولنا ويا لخجلنا لما امتنع «الوكيل» عن أخذ النقود وكأنه يدفع عن نفسه إهانة وهو يقول : «كلّا يا سيدي، اني لا أقبل مالا، انكم أتيتموني برسالة من صاحب السعادة لذلك فنحن أصدقاء وكل ما في حوزتي تحت تصرفكم فإن أردتم عينيّ استأصلتهما ومنحتكم إياهما». وعلى اثر هذا دعا إليه عبده وهو زنجي تحت إمرته كان صاحبنا في طوافنا، وناولته النقود. وفي هذه اللحظة شعرت حقا بالهنزي بتملّكي. ولكنني لم أتمالك من الضحك عاليا لما خلا «الوكيل»

الهمام إلينا فالتفت إليّ قائلاً : «قل بالله عليك لهذا السيد اننا صرنا الآن أصدقاء وأن كل ما أملكه رهن تصرفه. أنا لا آخذ على عنائي نقوداً رغم أن صعود المدرج وهبوطها أتعبني شديد التعب وها هو العرق كما ترى ما زال يتصبّب من جبيني، ولكن لا بأس أن يشتري لي زوجاً من المسدّسات الجميلة أحملها في نطاقي كلّما لاقيت الباي صاحب السّمّو في البلاط».

إن القصر مدعوم بما يشابه الحصن، وقد انتصبت أعلاه ثمانية مدافع. وغالب الحمامات السخنة تظل على ذمة الباي، غير أن بعضها الآخر في متناول عامة الناس، لذلك يوجد بصفة مستمرة أناس يستحمون فيها.

وبعد أن أخذت خيولنا نصيبها من العلف بارحنا المكان على بركة الرّب. كانت المنطقة المحيطة بـ «حمام الأنف» والمجاورة لها مقفرة عديمة الزراعة وكنا نسير وعلى يسارنا خليج البحر وعلى يميننا سلسلة جبال «حمام الأنف» الجرداء. وكثيراً ما كان هذا الفضاء المقفر يحيا بمرور القوافل العديدة الآتية من تونس أو المتوجهة إليها. وفي هذا المكان اعترض سبيلنا جمع من تجار العبيد المدجّجين بالسلاح يسوقون أمامهم حوالي مائة من الاماء. وكاد قلبي يتفتت لفضاعة هذا المنظر التعس. مسكينة أنت أيتها المخلوقات، متى تدق ساعة خلاصكن! متى تصلكن بشرى المسيح ونداء نبيّنا الانساني : «معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعاً أخوة!»⁽⁴⁾ متى يكفّ الانسان عن معاملة الانسان ومعاملة اخوته وأخواته معاملة الحيوان الذي لا يعقل! لا يكون ذلك ولا شك إلّا ريثما يعمّ الأرض قاطبة الاعتراف بالله في يسوع المسيح.

كانت أولئك الشقيّات قادمات من داخل البلاد، من وطنهن الذي انتزعتن من كنفه قساوة وحشية. وكنّ لا يزلن يحملن لباسهن الأصيل ويتقلدن أطواقاً من الأحجار الزجاجية ولا يفهمن العربية. ولما تجرّأت على مخاطبة بعضهن ضحككن ضحكاً همجياً وهزلن قدماً، وبدا لي كأن كل واحدة منهن كانت تحمل معها شيئاً ما من وطنها. فقد رأيت احدهن ترفع على رأسها ببغاءين.

(4) ترجمنا هذه العبارة بالرجوع إلى «العهد الجديد» ، متى 23 : 8.

وكان الحدّاء من أصيلي «غدامس» وعلمت منهم أنهم على سفر من ستة أشهر خلت. وعن قريب سوف يزدان سوق العبيد بتونس بهؤلاء البائسات. ففي كل يوم ما عدا الجمعة يساق الى هذا السوق ابتداء من الساعة العاشرة صباحاً الزنج المساكين ذكورا وإناثاً، ويمسك التّخاس العبد أو الأمة من اليد ويطلق يجر بضاعته جيئة وذهاباً مجاهراً بالثمن ومشيداً في الحين نفسه بخصالها وقدرتها على العمل. ويأدر الشاري بفحص رجلي العبد الأسود المسكين ثم يديه فلسانه وأسنانه، إلخ وثمة بالقرب المشرفون على السوق ليقوموا بتسجيل الصفقة في دواوينهم فور إبرامها. ويتراوح ثمن الزنجية عادة بين ثلاثمائة وأربعمائة ريال، أي ما يوازي مائتي «غولدن»، في حين لا يفوت ثمن الزنجي غالباً نصف هذا المبلغ.

ليس في هذه المنطقة المقفرة الموحشة حقول مزروعة ولا كوخ يمتّع بصر المسافر، إلّا أننا لاقينا بضعة آبار تحوي ماء زلالاً منعشاً. ولم تستعد الطبيعة في هذه الناحية جمالها إلّا عندما لاحت بلدة «سليمان». عند ذلك ترامى أمامنا سهل رائع بديع يضمّ حقولاً ومروجاً وغابات زيتون صغيرة ويخترقه واد صاف يسقيه. وسلكننا هذا السهل حتى دخلنا البلدة المذكورة في الساعة الرابعة مساءً، بعد أن طوينا مسافة أربعة وعشرين ميلاً(*)).

تقع «سليمان» على بعد حوالي ساعة فقط من البحر. وهي مدينة متناسقة البناء لها شارع رئيسي عريض تقطعه عدة أنهج ثانوية، وساحة رحبة جميلة تقام فيها السوق، وسنازلها ذات طابق واحد، باستثناء بعضها. وفي طاقة هذه المدينة استيعاب سبعة أو ثمانية آلاف ساكن ولكن عدد سكانها الحالي لا يتجاوز السبعمئة. ونجد ثلثي المنازل في حالة خراب وقد مررنا بأحد أرباض المدينة يعد حوالي مائة منزل فكانت خربة على آخرها، تكاد تكون خالية من الأهالي. لقد قضى الطاعون الذي اجتاح المكان سنة 1816، وعاث فيه فساداً، على نصف السكان وملأ بهم المقابر، وهاجر الكثير ممن نجا الى قرى نائية ولم يعد ثانية. ومن أسباب تقلص عدد سكان هذه البلدة الجميلة أيضاً أسلوب حكم الباي الأرعن المتجبر. فحالما يعلم الباي أن أحد

(*) أعني دوّماً أميلاً أنكليزية والخمسة منها تعادل ميلاً ألمانيا.

أهالي «سليمان» يعيش في رخاء لا يهنأ له بال حتى يستحوذ على ماله ويضمه إلى خزينته ويصير صاحبه في عداد المتسولين. لذا فإن كل من استطاع ذلك ينزح إلى حاضرة تونس حيث يكون المرء في مأمن، شيئاً ما، من مثل هذا الجور. ذلك أن مدينة تونس، بحكم وجودها مباشرة في كنف راية محمد المقدسة، تعتبر مدينة حرة، وهو ما يفسر أيضاً أن سكانها معفون من دفع الضرائب المباشرة.

ويقال إن مسلمي هذه البلدة قدموا من الأندلس وأن اللغة الإسبانية كانت حتى إلى ما قبل مائة سنة متداولة هنا. أما اليوم فلم أجد أي أثر لهذا، وأقصى ما هنالك ما سمعته من أحد المسلمين من أن شيخاً مات هنا قبل بضعة أشهر كان يتقن شيئاً من هذه اللغة. ويملك قناصل حكومات فرنسا والدنمارك ونابولي في هذا المكان منزلاً جماعياً خاصاً بهم. ونظراً إلى ولوع هؤلاء السادة بالصيد فإنهم عادة ما يأتون لممارسة هذه الهواية في الجهة. وبفضل مروءتهم تستي لي السكن في هذا البيت طيلة إقامتي بهذا المكان. وهو لعمري معروف لا يقدره حق التقدير إلا من كانت له خبرة بهذا الاقليم الموحش. وما إن استرحت بعض الشيء حتى خرجت للاطلاع على البلدة. وبما أنني أتيت برسالة موجهة إلى رئيس طائفة يهود المكان فقد بادرت بزيارته. واعترض سبيلي يهودي في السوق فسألته أن يدلني على الطريق. ولما خاطبته بالعبرية وسألته عن الحاخام الأكبر ظنني يهودياً في طريق الحج إلى القدس وأنني جئت ألتمس اعانة من يهود المكان. وفي الحين قادني إلى بيت الحاخام فلم أجد سوى زوجته وثلة من الأطفال. ورَّحَّب بي وأرسل حالاً في طلب الحبر لقراءة الرسالة التي جئت بها. وقدم الرجل وأخبرني بأنه لا يوجد هنا أكثر من عشر أسر يهودية تعيش كلها في فقر مدقع ما عدا أسرة الحاخام الأكبر، وجميعها عرضة لكراهية المسلمين البالغة وظلمهم واضطهادهم. وتجاوزت مع الحبر حول المسيح، وأثناء حديثنا تجمع حولنا بقية بني إسرائيل بـ «سليمان» وأصغوا إلينا بانتباه. وفي مجرى الحديث قال الحبر الذي كان يضع التلمود في أعلى مقام، إن هذا الكتاب هو أساس عقيدة

اليهود ومعرفتهم وإن دراسته هي أرقى الفضائل وأحب شيء عند الله وأنه لو كان بمقدوره لفرض أن لا يقرأ الصبية في مدرسته شيئاً غير التلمود. ولفت انتباهه إلى أسفار الناموس والأنبياء وبرهنت له على أنه، طبقاً لما ورد في الكتاب المقدس، لا بد أن يكون المسيح المنتظر قد ظهر وهذا لا يمكن أن يكون سوى يسوع الناصري. وطال بنا المجلس وحن وقت الانصراف فافترقنا على أن نواصل حديثنا يوم غد. ولما عدت إلى منزلي علمت أن «شيخ البلاد»، أي ولي أمر البلدة، يروم مقابلي، فتوجهت تَوّاً إلى محله. ولما وصلته اقتدت إلى أسطبل. وهنا جلس الشيخ في ركن وحوله أعيان المكان وعلى مقربة منهم وقفت بضع بقرات على المعلف. واستقبلت بأدب واحترام. وسألنا أنا والسيد «ك...» الذي التحق بي في الأثناء عما إذا كنا في حاجة إلى أية مساعدة أو دعم وإذا كان معنا ما يكفيننا من المؤونة. فشكرنا السائل جزيل الشكر على هذه الالتفاتة وأكدنا له أن لدينا كل ما نحتاج. وبما أننا قدمنا من تونس فقد استفسرنا «الشيخ» بلهفة عن صحة الباي وسألني إن كنت طبيياً. ولما نفيت ذلك أعرب عن شديد أسفه، لأنه يهوى الحديث في علم الأدوية، رغم كونه لا يكاد يفقه من هذا العلم شيئاً. وسألته عن كل ما كان يهمني معرفته فأجابني بصدر رحب. وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث سمعت فجأة قرع طبول مزعجاً وصياحاً فظيعاً. وسألت عما إذا كان عساكر الباي في الجوار، فكان الجواب : لا بل إن في الدار زنجية في أشد المرض وها هنّ بنات قومها في المدينة مجتمعات حولها ليطردن المرض على عادة أهل هذه الديار. ولم أقدر على إخفاء دهشتي حيال هذه الاعتقادات الشاذة فكان جواب «الشيخ» أن هزّ كتفيه [...] ثم غادرنا «الشيخ» وديوانه، وقد وعدنا بأن يوافينا في الصباح الباكر بنصيب من اللبن لتناول القهوة [...].

في المساء حصلت لنا مفاجأة سارة للغاية : لقد وصل نائب القنصل الانكليزي من نابل وهو في طريقه إلى تونس. في هذا الصباح فارقتي السيد «ك...» ليتابع رحلته إلى نابل. وما كنت أرغب في مغادرة المكان بهذه

السرعة فبقيت وحدي. وبعد حين أسرعتم لمقابلة الحبر. وفي طريقي إليه اعترضني «الشيخ» فقال لي :

— إنك ستذهب الآن إلى نابل حيث يقيم القنصل الأمريكي الذي هو طبيب ماهر. قل له أن يبعث لي دواء.

— ولكنك لست بمريض، وإلاّ فقل لي ما بك حتى أعلم الحكيم.

— يكفي أن يوافيني بدواء ما، قل له، دواء ناجع. إني في الحقيقة بصحة وعافية لكنني أودّ دواء يصيرني قويا على أحسن ما يرام. وبما أننا أصبحنا

الآن أصدقاء، فقد وصلك اللبن هذا الصباح، أليس كذلك ؟

— أجل، هو كذلك.

— إذن أرسل لي الدواء من نابل بواسطة ساع.

وجدت الحبر جالسا على الأرض على عادة أهل البلاد في غرفة صغيرة

تقوم في نفس الحين مقام بيعة، وقد تحلق به عشرة من الصبية هم تلاميذه.

واستأنفنا حديث الأمس وبينما كنا نتحاور انضممت إلينا الأسرة المسيحية

الوحيدة المقيمة في هذه البلدة. ولما بلغني أن الحبر يشكو فقرا شديدا فقد

أهديته نسخة عبرية من الانجيل وتفارقنا في سلام. وفي طريق العودة لاحظت

تجمعا كبيرا من عامة الناس فتوجهت صوبه لاستجلاء الخبر وسألت عما

يجري. فأجابني بعضهم ان الأهالي يقيمون منذ عشرة أيام مهرجانات قومية

احتفاء بشفاء الباي. — لقد أصيب الباي فعلا قبل عدة أشهر بمرض عضال

ثمّ استعاد قواه وظهر للعموم بمناسبة عيد الفطر الأخير، وما سقمه حاليا إلاّ

انتكاس — وقد حرص أعيان البلاط، لما بان الفرج، على مكافأة طبيب الباي

الايطالي اعترافا له بالجميل لأنه تمكّن بفضل حكمته من اطالة عمر مولاهم.

ونصب في سقيفة السراي طبق وعليه مملوك يهتف قائلا : «من كانت صحّة

الباي عزيزة عليه فليكافئ من أعادها إليه، ألا وهو الطبيب الحاذق، الدكتور

كذا...» ومن البديهي على هذا الأساس أن يحرص كل من كان في البلاط

على الجهر بتعلّقه بسيّده علنا ويلقي في الوعاء مالا. وكلّما دفع مقدار نوادي

بصوت عال : «إن السيّد كذا... برهن على تعلّقه الكبير بسيّدنا ومولانا

وتبرّع بمقدار كذا وكذا». وبهذه الصفة تجمّع للسيد الدكتور خمسون ألفا من الفرنكات.

والعادة هذه متداولة أيضا بمناسبة زواج أمير أو أميرة، إذ يضع كبار البلاد

هداياهم في الأوعية المنصوبة لهذا الغرض، وبما أن هذا يحدث بحضور كافة

أهل البلاط فإنه من الطبيعي أن يحرص كل فرد ألاّ تكون هديته أدنى الهدايا

قيمة فتتوفر على هذا النحو للعروسين أموال طائلة وجواهر ثمينة.

وبينما كان أهالي سليمان يستعدون لمباشرة ألباهم برز فجأة «درويش»

المكان الذي من عادته ألاّ يخرج إلى الشارع إلاّ مرة كل شهر وأخذ يقلب

الموائد رأسا على عقب ويطلق النار على الرايات المرفوعة ويأمر الناس بأن

يتفرّقوا. وكان يقول إن الله لا يريد أن تتواصل هذه الأفراح. ثمّ امتطى حصانا

وجعل يكرّ على الناس ويقول : «انصرفوا إلى بيوتكم !» فقصد الناس ديارهم

وهم فزعون ممّا بدر وكلهم يعتقد أنّه نذير شؤم. ووددت رؤية هذا الرجل،

صاحب الأعاجيب، عن كثب فلبثت في مكاني حني اقترّب مني فإذا به

رويحل قصير القامة دميم الخلفة متوحش المظهر متسخ الوجه واليدين،

يرتدي أسملا متغايرة الألوان، إلاّ أنه كان يتقلّد سيفا ويحمل في نطاقه

مسدّسين وعلى كتفه بندقية. وخلال تطوافي بالبلدة أراني بعضهم جدارا عتيقا

هو كل ما تبقى من العهد المسيحي القديم.

نابل في 14 ماي 1835

بارحت سليمان يوم أمس في السادسة صباحا. وقد هطل خلال الليل مطر غزير ففاض نهر كان من المزمع أن نمر عبره. وهكذا تعين علينا اتخاذ منحرج طويل للاتحاق ثانية بالطريق الرئيسية الرابطة بين تونس وسوسة. ومرر بنا السبيل عبر سهل جميل لكنه هزيل الزراعة، يمتد من البحر إلى الجبال على امتداد ميلين أو ثلاثة. وانتشرت هنا وهناك غابات زيتون صغيرة وآثار عتيقة متعدّدة تعود إلى العهد المسيحي. وحوالي الساعة الحادية عشرة بلغنا «فرمبالية» وهي قرية صغيرة لا يقطنها غير المسلمين.

وكان السهل الذي اجتزنه تعمّره في سالف العهد آلاف البشر أما اليوم فهو خال وفي منتهى القفر. وفي «فرمبالية» قدّم العلف إلى خيولنا وانتعشنا بدورنا بوجبة متواضعة. وسبق ونحن على بعد ساعة من هذا المكان، أن انضممّ إلينا ثمانية من البدو، سألوا الحوذي عن وجهتنا وتأمّلوا العربية ولم ينفكوا يراقبوننا طوال السير. ولم ترق لي رفقة هؤلاء الرجال على الاطلاق، لا سيّما عندما سمعتهم يقولون فيما بينهم : «ليس في العربية سوى شخصين». لهذا هيأت مسدّسي وسألتهم من أين أتوا وإلى أين هم ذاهبون، فكان جوابهم : «نحن رعاة الطابع، إننا ذاهبون لرعي خرفانه⁽⁵⁾ في تلك الجبال وطريقنا هو نفس طريقك». فاطمأنت إذ لا داعي للخوف من رعاة صاحب الطابع. ولكن عندما بقوا في «فرمبالية» يترقبونني وأعربوا عن رغبتهم في مرافقتي، أشار إليّ شيخ تركي قائلا : «خذ حذرك من هؤلاء الكلاب، إنهم بدو من جهة طرابلس وهم أناس أشرار». والتفت إلى البدو قائلا : «امضوا في سبيلكم إن هذا الرجل ذاهب إلى نابل بينما وجهتكم تختلف تماما». وأوعز للحوذي بأن لا يتبع نفس الطريق التي يسلكها هؤلاء. ولكن

(5) نشير هنا إلى أن الأمير بوكليز موسكاو زار في نفس تلك الفترة إحدى منازل شاكير صاحب الطابع بضواحي تونس فوجد فيها خرفانا كثيرة (انظر : «سميلاسو في افريقيا»، المرجع المذكور، ص 165).

الحوذي أعلمني أنّه لا يمكنه اتباع طريق آخر. حينئذ انتابني بعض القلق فطلبت برجل مسلّح ليواكبنا حتى «نابل» فكان لي ذلك وواصلنا السير. وما أن قطعنا مسافة نصف ساعة تقريبا حتّى اعترضنا البدو راغبين على قارعة الطريق. ولم يكونوا، حسبما تبينّت، يحملون سلاحا، في حين كنا مسلحين، وتركونا نمرّ بسلام. وخاطبوا مرافقي بقولهم : «أترافق هذا النصراني؟» فأجاب بنعم.

وبعد ميلين مررنا على قرية صغيرة تدعى «تركي» ولاحت لنا في البعد آثار عديدة. واستمرت المنطقة على نفس الوتيرة من الجمال والخصوبة إلى أن تركنا في الساعة الثانية الطريق الرئيسية وعرجنا صوب البحر معترقين المروج والحقول للاتحاق بدربنا الذي كان يمرّ عبر الجبال. وابتداء من هنا أضحي كل ما حولنا جذبا موحشا. واجتزننا طيلة ساعتين شعبا تنتهي إلى ساحة مستديرة تحيط بها الهضاب من جميع الجهات، يقال إنّها كانت سابقا مأوى لعصابة من اللصوص، وهنا أخذ الطريق في الاعتلاء حتى بلغنا ارتفاعا لا بأس به فأشرفنا على البحر وعلى ضفافه التي تكسحها غابات الزيتون الكثيرة. ثمّ تواصل طريقنا عبر هذه الغابات. وفي الساعة السادسة مساء حللنا بنابل بعد أن قطعنا مسافة ستة وثلاثين ميلا، لم تعترضنا طوال الثلاثة والعشرين ميلا الأخيرة منها أدنى قرية أو منزل ولا حتّى خيمة. وكان القنصل الأمريكي يقيم هنا منذ بضعة أيام صحبة عائلته فتكرم عليّ بأن هيأ لي مسبقا مكانا للسكن لدى أسرة يهودية، والتحقّت بهذا المسكن فور وصولي.

ونابل بلدة هامّة تقع على مقدار ربع ساعة من البحر وعلى بعد ساعة من موقع «نيابوليس» العتيقة. ويقدر عدد سكانها بثمانية آلاف نسمة لكن بجوز، بالنظر إلى اتساعها، أن تسع لضعف هذا العدد. إلّا أن آثار الخراب تعترضنا في كلّ خطوة وكثيرة هي الديار المنهارة. ويفسر هذا الدمار بأسباب متعدّدة منها ما يعزى إلى جور الحكومة ومنها ما يعود إلى العقائد الخرافية الباطلة، السائدة بين أفراد الشعب. فبكفي أن يصل إلى مسمع الباي أن أحد

مواطني نابل يكسب مالا حتى يعمل على توريثه في قضية عدلية لسبب ما ولا شيء حينذاك ينقذ الرجل من الافلاس فيطرد من منزله ويبقى هذا خاليا حتى تبليه صروف الدهر وبصير خرابا. وليس من النادر أيضا أن يسري في اعتقاد أهل بيت ما أن الأرواح تسكنه. وفي هذه الحالة يترك البيت حالا فيضحي إلى أبد الدهر وكرا للأرواح الخفية. ويحتوي المكان على تسعة مساجد، ثمانية منها لمذهب «المالكية» والآخر لمذهب «الحنفية». ولم يعترضني في كامل بلاد البربر مسلمون ألطف من أهل نابل. ففي مدينة تونس، على سبيل المثال، يكاد يكون من ضرور المستحيل أن يسمح لغريب، ولا سيما مسيحي، بدخول منزل، أما هنا فكم مرة استدعيت إلى البيوت ولم يتورّع أصحابها، بمن فيهم الرجال والنساء والأطفال، من الحديث إليّ، بل حصل أيضا أن أقدمت نساء على زيارتي في غرفتي ومعهن بعض من أقربائهن. ويرتزق أهل البلدة بالخصوص من محاصيل الحقول ومن الزيت، كما توجد بضعة مصانع نسيج وتحظى مصنوعات المكان الخزفية بالشهرة وتصدّر إلى الخارج. وتمتاز أحواز المدينة بجمالها فهناك تتداول المروج وحقول الزرع ورياض الورود وغابات الزيتون وأشجار التين بعضها مع بعض وتزين الطبيعة بحلة قشبية من أزهى الألوان وأفخرها، كما أن تربية الماشية هنا من الأهمية بمكان، لذلك يكثر اللبن والزبدة. ولا شيء ينقص سوى سكان مسيحيين واجتهاد ألماني لكي يعود القطر إلى الوضع الذي كان عليه فيما مضى، أي جنة من جئات الله. ويعتد المناخ المحلي من أفضل المناخات وأرفقها بالصحة على كامل ساحل افريقيا الشمالي. لذلك نرى العديد من أهل تونس يفضلون قضاء أشهر الصيف في نابل.

ومن الأمراض الشائعة بين السكان البرص وأمراض العيون. فقل أن ترى اثنين على عشرة من سكان نابل سليمي الأعين وأربعة معفين من داء اللاووين⁽⁶⁾ ويوجد في نابل من اليهود زهاء المائة أسرة نزلت إلى المكان

(6) لا شك أن ايفالد يلمح إلى داء البرص الذي يطول الحديث عنه في سفر

« اللاووين » من « العهد القديم » .

شيئا فشيئا. وهم ينقسمون من حيث المصدر إلى ثلاثة أصناف : تونسيين، أتوا قديما من مدينة تونس، وجراة أتوا من جزيرة جربة، وأصليي المكان. وليس من بينهم أثرياء سوى النزر القليل لكنهم قوم يمتازون بالبساطة والجّد والقناعة ويعيشون في كنف الأمان مع المسلمين ويؤدون إلى الدولة جزية سنوية قدرها مائة ريال. ونظرا لخص مواد المعيشة عامة فإنه بالامكان أن يعيشوا هنا في كنف الطمأنينة في انتظار ساعة خلاصهم، لولا أن جيش الباي الذي أعيد تنظيمه حديثا يبت الرعب والفرع بين اليهود في كامل الجهة. ويشكل هؤلاء العساكر المتدبون عنوة من حفالة الشعب، ودون أن تضمن لهم الدولة لباسا يفي بالحاجة ولا أجرا كافيا، شذمة غوغائية ترتكب كل منكر فهم ينهبون ويزهقون الأرواح دون ردع تقريبا. وقبل أسابيع تجمّع عدد كبير منهم في مدينة تونس فصار من الصعب أن يسير المرء في الشوارع في رابعة النهار دون أن يتعرض للسلب والنهب. إلّا أنهم يتسلطون بالخصوص على اليهود. واضطر الباي بعد تدخل القناصل الأوروبيين إلى وضع حد لهذا العبث في الحاضرة أمّا في عرض البلاد فما انفكوا يعيشون فسادا ويفرضون على الناس بطشهم. فقبل مضي عشرين يوما سطت عصابة من هذا الحشد المتهمّج على قافلة قادمة من سوسة. وكانت ضمنها عائلة مسيحية تعرضت لأشد التعنيف وأسوأ المعاملة. لذا نجد الآن أهل نابل في حالة قصوى من الفرع والهلع، خصوصا وإنه قبل وصولي بليلة اقتحم ستة جنود دار يهودي وألقوا بالشيخ البالغ من العمر سبعين سنة على الأرض وهمّوا بقتله لولا أنّه فدّى نفسه بألف ريال وهو حقّا مبلغ جدّ باهظ بالنسبة إلى الفقر السائد في هذه الديار.

نابل في 20 ماي 1835

خرجت صبيحة أمس راكبا لزيارة آثار مدينة «نيابوليس» العتيقة [التي أوحى لي بالعبارة اللاتينية القائلة :]

Sic transit gloria mundi ⁽⁷⁾!

ولم يبق إلا القليل مما كان في سالف العهد مستعمرة رومانية مزدهرة. وحيث كانت تتبوأ الأبهة الدنيوية والعظمة أصبح المكان حقلا منبسطا تسير فيه سكة المحراث سيرها المتأني. ولقد وجد السيد الدكتور شاو من مائة سنة خلعت آثارا متعددة وأحجارا تحمل كتابة وذكر أن المكان يقع على بعد ميل من البحر أما اليوم فإن البحر يصل حتى أطلال الموقع القليلة المتبقية. وأطلعت في بعض المنازل المجاورة على أحجار عديدة انطوت على كتابة رومانية لكنّها مطموسة لحدّ أني عجزت عن نسخ أي شيء منها ما عدا حجارة واحدة تيسر لي أن أنقل منها ما يلي :

COELIVSIAFII DI
.....IAEVSEI
MCALIVSSVLLAEI
PACAIVSAED
SVPEROVANIIIAIEM
.. XMVLIISRHD — CIMALE
RAMNIADESVOEROGAIA
PECVNIA POSVERVNI
L D D D

وإذا جاز تصديق زعم متساكني المكان فإنه لا يزال يوجد داخل البحر، على مسافة ميل من الضفة الحالية، باب من أبواب المدينة العتيقة مصفح بالنحاس.

سوف أغادر نابل غدا وقد احتلت في قلبي مكانا حقا. ولن أنسى أبدا الحفاوة التي أحاطني بها جميع أهل هذه الديار ولا السداجة الفطرية التي

(7) أي : هكذا يزول مجد الدنيا !

تميّز اسرائيلي المكان والتي تذكر بسداجة آباء العهد القديم، ولا الانتباه الذي واطبوا عليه وأنا أقرأ عليهم بشارة الإنجيل.

الحمامات في 21 ماي 1835

لقد طرأ ما كان متوقعا منذ أمد طويل. ففي الساعة الثامنة من صبيحة هذا اليوم بلغ القنصل الأمريكي وهو في نابل نبأ وفاة باي تونس يوم 20 من الشهر الجاري وبيعة سيدي مصطفى شقيق العاهل الراحل. وعلى نقيض ما كان منتظرا، تمّ كل شيء في كامل الهدوء. ولئن صحّ أن صاحب الطابع السابق قد عمد إلى حشد قواه البالغ عددها 3.000 رجل بالقرب من قصر باردو فإنّه تلقى قبل ممات الباي الأمر بصرف هذه القوات. وما ان راج في تونس نبأ التّعي حتّى أغلقت جميع الدكاكين أبوابها. إلّا أن سيدي مصطفى أرسل في الحين «حاني» أي موظف شرطة، ليعلن بين الناس أنّه لا داعي للخوف وإنّه على كلّ الدكاكين أن تفتح أبوابها وهو ما حصل. (8)

بارحت اليوم في الثانية بعد الزوال مدينة نابل. واتبعت طريقا محاذيا لساحل البحر، سار بي تارة عبر مساحات غير مزروعة وتارة عبر غابات الزيتون، إلى أن بلغت هذا المكان (الحمامات) على بعد تسعة أميال من نابل. وصلت في السادسة مساء ووضعت رحالي بالفندق. ولا يجد المسافر في هذه الفنادق شيئا سوى غرفة خاوية، ولكي لا يموت جوعا بأتم معنى الكلمة عليه أن يجلب معه كلّ ما يحتاج إليه من المؤونة ولا يبقى على المرء إلّا أن يقتني فحما ببضعة دراهم ويهتّى فنجان قهوة ويفرش الحشّة مباشرة على الأرض فيكون له بذلك المائدة والكراسي في آن واحد.

وفور وصولي زارني «خليفة» المكان وسألني إن كنت أرغب في الاطلاع على المدينة فرحبت بذلك طبعا بكل سرور.

الحمامات مدينة صغيرة حسنة البناء، تجمع حوالي ألف منزل ونحو ستة آلاف ساكن، كلّهم من المسلمين. وهي تقع مباشرة على ضفة البحر الذي تلاطم أمواجه جدران القلعة الشامخة. وتعد الحامية المرابطة في هذا الحصن

(8) قارن بما جاء في رحلة بوكليبر موسكا وحول وفاة حسين باي في 20 ماي 1835 (المرجع المذكور، ص 156).

خمسین رجلا من الأتراك. وبالرغم من أن الخمر محرمة على المسلمين فإنهم مولعون بشربها ولما مفرطا. فقد جاءني صاحب الفندق إلى غرفتي فدعوته لشرب فنجان قهوة معي فقال: «إن كان معك خمر فأعطني قارورة» فأجبته بأنّي أجد في الماء قناعة. وأقبل عليّ كذلك الـ «بتشي باشا»، آمر الحامية، ودعاني لمصاحبه وشرب قارورة على صحة الباي الجديد فامتنعت بكامل الأدب وقد بدا عليه أنّه قد أفرغ أكثر من قارورة إذ كان يلاقي عناء في الوقوف على رجله.

يبدو أن الهواء هنا أنقى وأسلم من هواء نابل ذلك أنني لم أشاهد أي مصاب بالبرص أو بداء العيون. وتكثر هنا حقول الكرم وبساتين الزيتون وأشجار اللبمون. بيد أن المنطقة تقلّ عن منطقة نابل جمالا وخصوبة. وقد عثر الدكتور شاو، (9) عندما حلّ بالمكان، على كتابتين حجريّتين رومانيّتين، أمّا اليوم فلا يوجد لهما أثر. وقد ذهب هذا الرحالة إلى القول ان اسم المدينة يرجع إلى كثرة الحمام البري الذي يعيش في الجبال المجاورة، فـ «حمام» هي الكلمة العربية التي تطلق على هذا الجنس من الطير.

(9) Dr. Shaw رحلة انكليزي زار تونس مرارا في حوالي 1730 ودون ملاحظاته وانطباعاته ضمن رحلة مشهورة ظلت حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر أهم مرجع بالنسبة إلى كل من زار تونس من السواح الأوروبيين وعنوانها التالي (الطبعة الفرنسية): Voyages de M. Shaw M. D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et au Levant : La Haye 1743.

سوسة في 23 ماي 1835

إذا كان يكفي أن يفكر المرء إنه يقف على حقل يكمن في باطنه رماد آلاف البشر وتلاشى فيه عظام أبرز رجالات العصور الغابرة، حتى يشعر برهبة عظيمة تمتلكه وتذكر الموت وزوال الدنيا، فإن ما انتابني بالأمس من شعور وما خالجنني من احساس كان أعظم، حين اعترضت سبيلي المواقع الأثرية القديمة الواحد تلو الآخر واستمرت تسترعي بصري دون انقطاع. في هذه البقاع عرف القرطاجيون والرومان والوندال والهنس والمسيحيون والمسلمون على التوالي النصر والهزيمة.

ها هنا، اذن، كانت تنتصب مدينة «كلوبيا» (Clupea) وكذلك «سيفتاس سيجيتانا» (Civitas Siagitana) والمدن الكثيرة والحصون العديدة التي لاحت لقيصر وهو على سفينته في طريقه إلى «حضر موت» ! هذه هي الأرض التي كانت تقوم عليها «فراديس» (Faradeese) و«فيريا» (Veneria)، المدينتان الرومانيتان اللتان بلغتا في سالف الزمن أوج الازدهار ! هذا هو اذن أحد أجزاء إقليم «زوغثانا» الذي ازدهر قديما الازدهار كله ! إنها التربة التي مدّ فيها إنجيل المسيح عروقا باكرة حيث كان يعيش أمجد آباء الكنيسة وحيث كانت الكنائس والأديرة، إلى غاية القرن السابع، تزين القطر وترسل نور الاعتراف. يسوع المسيح ربّا ! والآن — يكاد ينعدم أدنى أثر لكل هذا. ولا يسعني إلا [أن أشاطر] الشاعر العربي قوله : «واعلم أن الدنيا دار فانية والآخرة هي دار الخلود». وهنا تصدع حقيقة الانجيل التي لا ريب فيها : تزول الدنيا بعظمتها لكن الذي يعمل بمشيئة الله يكون من الخالدين.

غادرت الحمامات في الخامسة صباحا. وما ان تركنا البلدة خلفنا حتى برزت أمامنا آثار «فراديس» التي تبتدىء على ساحل البحر وتتوغل بعيدا داخل السهل. وبعد مسير ساعة بلغنا منهل «بير سالم». هنا يلتقي الرعاة لايراد قطعانهم وتناخ إبل القوافل لتجديد زادها من الماء وهنا يطفئ المسافر التعب ظمأه. كم هي عظيمة تلك السذاجة التي يتسم بها الكتاب المقدس عامة

وتلك الأمانة في وصف الأمور ! فعلى بئر ربض «ألبعازر» غلام ابراهيم، بإبله، مترصدا النساء والصبايا الوافدات من المدينة لجلب الماء، وعلى بئر التقى «يعقوب» «ابراهيم»، وعلى بئر أعان موسى، وهو هارب إلى أرض «مدين»، بنات «يثرون» على ملء الماء. وكان على حافة بئر أن خاطب الربّ السامريين. وما فتئت هذه العادة إلى يوم الناس هذا مألوفا لدى العرب. ولفهم هذه الظاهرة حق الفهم يجب أن نعلم أن ساحل شمال افريقيا تسكنه ثلاث فئات مختلفة من العرب. أما في المدن فإنه يقال لهم (Mauren)، ومن عاداتهم حجب نسائهم وبناتهم ومنعهن من مغادرة البيت وان فعلن فعليهن الالتحاف بصفة تجعل الناظر يخالهن كتلا حية تنقل. ويعيش الصنف الثاني منهم تارة في القرى وتارة تحت الخيام. وهم الذين ما زالوا يحافظون على العادات التي يصورها لنا الانجيل وهم الذين يسمون عادة عرب. والبدو هم العرب الرّحل الذي لا يستقرّون في مكان بل ينتقلون من موضع إلى آخر. ومن حين إلى حين تعترض المسافرين بئر. وعند حلول المساء تخرج الصبايا والنساء من خيامهن أو منازلهن وعلى أكتافهن الجرار لجلب الماء. ولهذه الجرار شكل مرمدة ذات أذنين. وتقع الآبار دوما خارج القرية وعلى مسافة ذات بال من المنازل وذلك من أجل راحة الرّعاة. وبالقرب من «بير سالم» المذكورة تقع آثار مدينة «سياجتانا» (Civitas Siagitana) القديمة وقد اشتهرت في عهد «انطونينوس» (Antonin).

وابتداء من هنا وطلنا سهلا رحيبا لا تحصره العين يبلغ عرضه، انطلاقا من البحر حتى الجبال ما لا يقل عن ميلين، وطوله حتى «هرقلة» أربعين ميلا. ويسود كامل هذه المنطقة اقفار تامّ، فلا شجرة تبين ولا منزل، ومن حين لآخر فقط يلوح بعض الجمالين يسوقون القوافل أو بعض الرّعاة مع قطعانهم. وبان من سفح الجبل نصب جنازي، يسطع من بعيد، يدعى «المنارة» وقد سبق أن وقف عليه السيد الدكتور شاو. ويبلغ قطره عشرين «روتا» (10) وقد

(10) مقياس ألماني قديم (Rute) يختلف طوله شيئا ما من مقاطعة إلى أخرى فبساوي مثلا في بافاريا 2,9 مترا .

شيد في شكل اسطواني وله ثلاثة مذابح تكتنف الكتابة التالية :

L. Aemelio Africano Avvunculo.

C. Sueilio Pontiano Patrueli. Vitelio Quarto Patr....

ويبدو أن النصب برمته كان على ملك أسرة واحدة.

وقطعنا في تودة هذا السهل المديد حيث اعترضنا كوكبتين من البدو الرحل. ولسوف يضربون خيامهم اليوم في هذا الفضاء ويفرشون بسطهم المصنوعة من ضريع البحر على الأرض ويخيمون حول قطعانهم وعندما يقل الكلاء أو عند حصول أي اشكال فانهم يقلعون أوتادهم ويطوون خيامهم ويحملون متاعهم القليل، بالإضافة الى الأطفال والكلاب والقطط، فوق ظهور الحمير والابل ويواصلون ترحالهم الى أن يعثروا من جديد على مكان ملائم. ولم يؤثر الاسلام في هؤلاء البشر كثيرا أو انه لم يؤثر فيهم قطعا ولم يغير شيئا من عاداتهم الراسخة وفضايلهم الفطرية وقساوتهم ولا انسانياتهم فقد ظلوا على حالهم كما كانوا قبل آلاف السنين وفي الحقيقة ليست لهم ديانة فكل معرفتهم على الصعيد الديني تنحصر في الشهادتين : « لا اله الا الله، محمد رسول الله »، وهم يجدون في هذا كل القناعة. ونمط عيشهم بسيط، قوامه اللبن والزبدة ولباسهم كذلك بسيط ويقنصر على ضرب من الدثار الصوفي يلف حول الجسد ويكون لهم في نفس الحين لباسا يوميا، صيفا وشتاء، وفراشا عند النوم.

وعند المساء بلغنا « هرقل » بعد أن قطعنا مسافة اثنين وأربعين ميلا ومررنا بستة مواقع أثرية مختلفة. وما « هرقل » إلا « حضر موت » الرومانية. ولكن صح أن آراء الجغرافيين تتباين في هذا الصدد تباينا كبيرا فإن كتب القدماء في التاريخ والجغرافيا لا تبقي مجالا للشك في خصوص هذا الموقع، وبعد المعاينة الدقيقة لا يسعني إلا أن أشاطر الدكتور شاو رأيه السائر في هذا الاتجاه دون أدنى تحفظ. وكان يوجد في هذا المكان خلال العهد المسيحي السعيد دير شارك رهبانه سنة 426 في الجدل القائم آنذاك بين أوغسطينوس

وبيلا جيوس. وقد استخلص هؤلاء الرهبان استنتاجات سلبية من تعاليم أوغسطينوس حول مسألة « النعمى الاختيارية » فأدى ذلك الى أن وجه اليهم

أوغسطينوس كتابيه الموسومين بـ « De gratia et libero arbitrio ». (حول النعمى وحرية الاختيار) و « De corruptione et gratia » (حول الفساد والنعمى). ولم اكتشف في هذا المكان أية كتابة حجرية وكل ما تبقى من العصور القديمة ينحصر في بضعة أعمدة مرمرية متكسرة وأحجار مربعة كبيرة، وقد اتخذ بعض البدو لهم من هذه الآثار مقرا.

وكان فندق المكان في حالة رديئة جعلتني أفضل المبيت في العربة. وبينما عكف خادمي على اضرام النار لطهي القهوة قصدت القرية الصغيرة لاقتناء نصيب من اللبن. وكانت تلك هي فترة جلب الماء من المورد فالتقيت بنساء وصبايا تحلن بأقراط كبيرة وخلاخيل وأساور صنعت من أصداق البحر الصغيرة، وقد حملن على أكتافهن القليل. ولكم وددت معاينة هذه النفائس عن كثب، إلا أنهن جرئن هاربات لما أردت الاقتراب منهن. وسعدت كثيرا لما حصلت على نصيب من اللبن وعدت بحصيلتي الى الفندق وكأني عائد بنصر مبين. وفي الأثناء أقبلت عدة قوافل أصحابها شتات من العرب. وطفق هؤلاء البشر يحدقون في بكل فضول ويدققون النظر في كل ما علي. وحضرت القهوة فشربتها في الحال. ولارواء ما بقي لي من عطش هيات لنفسي وعاء معدنيا ملؤه ماء سكري أضيفت اليه قطرات من ماء الزهر وتجرت جرعة وما أن رأى العرب هذا حتى ظنوا أنني أحضرت دواء فأحاطوا بي جميعا والتمسوا شيئا من رحيق الحياة هذا. وتركت الوعاء يدور عليهم الى أن عاد لي فارغا على آخر قطرة. واثار هذا قرأت عليهم شيئا بالعربية فأنصتوا بكل شوق وانتباه. وحل الليل وكنت متعبا فنمت في العربة بينما اضطجع خادمي تحتها.

وفي الساعة الثالثة صباحا بارحنا « هرقل » وبلغنا سوسة على الساعة التاسعة. واستقبلني نائب القنصل الأنكليزي الذي كنت أحمل اليه معي خطابات توصية ورحب بقدمي وخصني بغرفة قصدتها في الحين.

سوسة في 6 جوان 1835

تقع سوسة على البحر ويحيط بها سور عال جميل يمنعها على أحسن وجه. وتعتبر هذه المدينة، بفضل تجارتها وموقعها، ثاني مدن المملكة. ويقال — وعلم اليقين في هذا الصدد صعب المنال — انها تشتمل على 1100 منزل تؤوي 8000 نسمة، بالإضافة الى حامية تعدّ 2500 رجل. وتتميز أنهجها نسبيا بالاتساع والنظافة. وتتألف منازلها على العموم من طابق واحد. وأما البناءات التي تمتاز على غيرها فهي « القصبة » و « القلعة » (الرباط) وبقايا ثكنة اسبانية قديمة صارت مسجدا من مساجد « المالكية ». ولئن لم ينمّ السوق عن ثراء فهو نظيف. وباعتبار أن المدينة عاصمة لولاية من ولايات البلاد وتبعتها أربع وعشرون قرية فإنه من المفروض أن يكون لها وال يقيم فيها بصفة قارة. غير أن واليها بفضل الإقامة بتونس تاركا بالنيابة عنه « خليفة » ينظر في كافة النزاعات المدنية. أما القضايا ذات الصبغة الدينية فهي من مشمولات « القاضي » أي كبير رجال الدين [كذا]. وحسبما أفادني به أحد المسلمين المثقفين ممن تعرفت عليهم فان سوسة قد أسست في القرن السابع على مقربة من آثار المدينة العتيقة. وتوجد في البحر حذو المرفأ بضع بقايا أثرية تعبت بها الأمواج. وما زال بإمكان الزائر أن يطلع أيضا على ضريح مؤسس المدينة القديمة، وعليه شاهد انظمست كتابته، يقال انه كتب بالخط الكوفي.

ولا نجد لأهل المكان مورد رزق غير غراسة الزيتون فلا غرو أن نرى كامل المنطقة المحيطة بالمدينة تعج بما لا يحصى ولا يعد من غابات الزيتون. وليس هناك اعتناء بزراعة الحبوب ولا وجود لزراعة الأشجار المثمرة. وعندما تكون صابة الزيتون حسنة فإنه يصدر من مواقع الخزن

الرئيسية الثلاثة، وهي سوسة والمهدية وصفاقس، مليون « مطر »⁽¹¹⁾ من الزيت في السنة. ويعادل « المطر » خمس عشرة من وحدات كيل مقاطعة « بافاريا » وياع بما يتراوح بين ثمانية واثنى عشر ريالاً، في حين نراه يرتفع هذه السنة الى عشرين ريالاً. وبمقدور أهل سوسة أن يكونوا من أكبر الأثرياء لو عرفوا كيف يتفغون. لكن الاسلام يحرم على المؤمنين اقتراض المال مقابل فائض لذلك لا نجد من بينهم أصحاب رؤوس أموال. فإذا توفر لديهم مال فإنهم يشترون القلائد الذهبية والجواهر والآلئ لزيئة نسائهم أو هم يكتزون في الأرض أو يبدرونه تبذيرا وهو ما يحصل في أغلب الأحيان. وهذا ما يفسر ان مسلمي هذه المدينة يكادون أن يكونوا دوما مفتقرين الى النقود. وإذا طالت فترة من فترات القحط فإنهم يلجؤون الى الدين فيرهنون نفائسهم ويدفعون الى اليهود والنصارى فائضا بأربعة وعشرين على المائة وهو المقدار المعمول به والمشروع أيضا. وبعد فترة قصيرة فقط أصبح المسيحيون الذين استقروا بالمكان — وهم يشكلون أربع أو خمس عائلات — من كبار الأغنياء ومن الدارج أيضا أن يبيع المسلم ما يحصل عليه من زيت قبل موسم الجني بسنة. فلنفترض مثلا أن أحد المسلمين يملك بستانا يوفر محصوله أربعمائة « مطر » من الزيت فإنه يبيع هذا المحصول مسبقا لنصارى أروبيين أو ليهود بنصف سعره فقط. ولقد وقع اشتراء « المطر » في السنة الماضية مسبقا بسبعة ريالات ثم بيع بعشرين ريالاً.

تعيش في سوسة حوالي مائة أسرة يهودية قد يبلغ مجموعها نحو ألف نسمة. وهم يرتزقون من الصناعات الحرفية فتجد من بينهم صاغة الذهب والخياطين والأساكفة والتساجين إلخ، وكذلك التجار. ولهؤلاء سوق خاصة بهم لا يحتل فيها دكانا غير اليهود. ويضاف الى هذه المجموعة ثلثة من اليهود الأروبيين يقيمون هنا لأسباب تجارية فقط، اذ هم يتولون تصدير الزيت

(11) كان « المطر » يساوي في تونس العاصمة 20،2 لترا وفي سوسة 25،55 لترا وفي صفاقس 29،81 لترا إلخ ... انظر : M. Legendre. Survivance : des mesures traditionnelles en Tunisie. Paris 1958, p. 57.

والصوف والشمع. كما أنه يعيش هنا، فضلا عن ذلك، نحو أربعمائة مالطي، يتعاطون كذلك الصناعات الحرفية.

ومنذ حلولي بالمكان واضبت على الكرز بالانجيل المنقذ على مسمع نصارى ويهود ومسلمين. وقد ابتهج النصارى المنتمون الى الكنيسة الكاثوليكية، والمحرومون من كنيسة وقساوسة، كثير الابتهاج لتمكنهم من الانصات الى كلمة الرب. وبالرغم من أن مسلمي المكان يتصفون بسوء الظن وبالتعصب الديني فقد وقفت حتى الآن في توزيع صندوقين من الكتب المقدسة. وقد اعترضني أخيرا في الشارع مسلم خاطبني قائلا :

— أنت هو اذن الـ « بياض » — يعني القسيس — الذي يقرأ العربية ؟ —
— أجل، أعرف شيئا من ذلك.

— قل لي اذن بصراحة أي الديانات هي الأفضل، الاسلام ؟ أم المسيحية ؟ أم اليهودية، ما دمت على دراية بها جميعا ؟

— الديانة المسيحية هي الفضلى والوحيدة التي هي على حق.

— ماذا تقول ؟ كيف ؟ هذا غير معقول !

— تعال معي الى غرفتي وسنواصل الحديث هناك.

وتبعني ومعه شرذمة من اليهود. ولما وصلنا قلت له : « برهن لي على أن القرآن صادر عن الله وأن محمداً كان نبيا. »

واستشهد بشئى المواطنين من القرآن للاستدلال على ذلك. فلمحت له بأني لا أستطيع أن أقبل هذه الحجج طالما لم يأتي بالدليل على أن القرآن كلام الله. فردّ عليّ قائلا : « ليس لي من العلم ما يؤهلني للتدليل على ذلك، ولكن تعال معي ان شئت الى أحد علمائنا وسوف يجيبك على اسئلتك بما فيه الكفاية. » فوافقت على ذلك.

ورغم أن الليل قد انسدل فقد اقتفى أثرنا جمع لا بأس به من اليهود والمسلمين الى منزل الشيخ. وأطلعه صاحبنا المسلم على سبب مجيئنا وبعد تبادل المجاملات قال الشيخ : « يرد ذكر محمد في الانجيل وفيه كتب أنه سوف يظهر. » فأجبت : « لقد قرأت الانجيل على آخره ولم أجد فيه موطننا يذكر فيه محمد. لكن اذا كان لديك كتاب انجيل يتضمن هذا الذكر فأرجو

من فضلك أن تريني آياه. » فنهض وأتى بكتاب وقرأ منه عدة فقرات من العهد القديم والعهد الجديد، منها مثلا الاصحاح 18 : 18 من سفر موسى الخامس وكامل المزمور الثاني والسبعين والاصحاح 15 : 26 من انجيل يوحنا، وهنا أشار إلى أن « المعزّي » (12) لا يمكن أن يكون سوى محمد. وبيّنت له أنه ليست هناك صلة بين هذه الفقرات وبين محمد. عندئذ استشهد بالآية المعروفة من سورة الصف :

﴿واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.
فأجبت : « صحيح ان هذه الآية واردة في القرآن ولكنها غير واردة في الانجيل قطعا. » فقال الشيخ : « انما القرآن كلام الله والله لا يكذب. » ووافقته فيما يتعلق بالجزء الأخير من قوله وطالبت بالحجة فيما يتعلق بالجزء الأول منه. وفي الأثناء تقدم بنا الليل شوطا وضاق الوقت لمواصلة الحوار.

واعتقاد مسلمي المكان في الخرافات الباطلة والخوارق يتحدّى كل التصورات ولا يعرف تعصبهم الديني حدودا. فلقد تعرفت قبل أيام في السوق على تاجر صابون يحذق شيئا من الايطالية وترجاني أن أرسم له الأبجدية الايطالية قبالة الأحرف العربية التي كتبها بنفسه. ولما هممت بتلبية طلبه هرع نحونا عدد من المسلمين وقالوا في صياح : « كيف تضع كلام الله في يد هذا الكافر ! أتريد أن يلقي بك في الجحيم ؟ »

وحاول تاجر الصابون عبثا أن يشرح للجمع الصاخب أن الأمر لا يعدو أن يكون متعلقا بالأبجدية واني ما التمسث منه شيئا بل هو الذي ابتغى أن يتعلم مني شيئا ولكنهم ادّعوا أن جميع الكلمات الواردة في القرآن من وحي الله وان الكلمات تتركب من أحرف وأن الأحرف تشكل الأبجدية ولهذا يجب تكريم الأبجدية مثلما يكرم القرآن نفسه. وانصرف قائلان اني لا أحب حمل أحد على ارتكاب خطيئة.

(12) يرد في الاصحاح المشار إليه (يوحنا 15 : 26) ما يلي : « ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من عند الأب روح الحق الذي من الأب يثبت فهو يشهد لي ».

وكره النصارى في هذه الديار مما يرضع مع حليب الأم ويظل كامنا في القلوب لا يزول. صحيح أنهم صاروا منذ سقوط الجزائر يجتنبون الإفصاح به جهرا ولكن الويل للمسيحي المسكين الذي لا يأخذ حذره كما ينبغي ويظمن اليهم دون تحفظ ودون سلاح. وقد جدّ خلال اقامتي بالمكان حادث فظيع فيه عبرة ودليل على هذا. ومفاده ان مالطيا يتعاطى تجارة التهريب عقد صلة ببعض تجار المكان وأعطاهم مسبقا مالا مقابل بضاعة لم يتسلمها بعد. وها هو الآن مفقود منذ سبعة أيام. وقد نزل بفندق فقام الوكيل الأنكليزي بتفتيش غرفته وفحص سجلاته ولكن لم يجد كل ذلك نفعا لأن تخوفه من أن يفتضح أمره جعله يعمد الى تسجيل أسماء مزيفة. ولكن الشيء المتأكد منه هو أنه دفع قبل بضعة أيام الى أحد المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ريال تسبقة على خمسة وعشرين قنطارا من الشمع تم الاتفاق على أن يتسلمها منه، مع الملاحظ أن الشمع من البضائع التي يقع تهريبها والآ فمن المفروض أن لا يباع الآ لمصرف يتمتع دون غيره بحق ابتياعه. وبناء على كل هذه القرائن يصح الاعتقاد أن هذا الشقي وقع في فخ المسلم الذي جلبه الى بيته حيث قتله وقبره. ومن دلائل تعصبهم أيضا أن أصغر الصبية يصيح، اذا وقع نظره على بعض النصارى، بقوله : « رومي بن كلب » [كذا] أي « مسيحي ابن كلب ». وقد أكرمني بهذا اللقب الشرفي طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره، حين أبصرني وهو يسير في الشارع صحبة أمه. وصحيح أن تطاولهم هذا يعرضهم للعقاب اذا رفعت ضدهم الشكوى ولكن من يتجرأ على التشكي ؟

Hic diximus, non eadem omnibus esse honesta
atque turpia, sed omnia maiorum moris iudicari⁽¹³⁾.

انها حقيقة راسخة ومعروفة. لكن لم يحصل أبدا أن بانث لي جليا ولمستها كما حصل لي في هذا المكان. أن يرفع أحدهم العمامة ليتفقد هل

(13) أي : كما قلنا ، بعضهم يعتبره غير مستقيم وبعضهم غير قبيح . لكن كل شيء بشكر أو بدم حسب الأخلاق السائدة .

من نزلاء حطوا الرحال، أو أن ينزع الجوارب القصيرة ويخلصها من سكانها ويعمد دون أدنى حرج الى قتل السجناء، أو أن ييصق في الغرفة محدثا صوتا عاليا، كلها تصرفات تؤدي على مرأى ومسمع من الغير ولا يستأثر بها عامة الناس فحسب بل تشمل حتى أعيان القوم، دون أن يرى في ذلك عيب أو إخلال بالآداب.

فبينما كنت ذات مرة أتناول الطعام رفقة مضيقي وعائلته إذ دخل علينا أحد المسلمين وجلس على كرسي جانبا وفتح « قفطانه » وأخذ يفحص سرواله فلم أقدر على مواصلة الأكل. الآ أن النصارى المستقرين هنا تعودوا على مثل هذه الممارسات وصاروا لا يعونها. وقلت [لمضيقي] : « انه حقا يتصرف وكأنه في بيته ! » فكان الجواب : « انه وسيطي ».

ويقول المسيحيون مواليد هذه البقاع : « ان مسلمي سوسة ينعدم لديهم كل شعور بالنخوة وكل اعتراف بالجميل وسيان ان عاملتهم بلباقة أو بخشونة. ومن السهل اليوم ادخالهم السجن من أجل دين عليهم وحجز كل ما يملكون لكن حالما ينهون مدة العقاب يعيدون الكرة وكأن شيئا لم يكن. ولقد حدثني إيطالي ممن يقيم هنا انه تكفل بتربية صبي من الأهالي المسلمين على غاية من الفقر وجعله خادما في بيته وعاملته كافة الأسرة معاملة الأبناء ولم يعد يشك أحد في ولائه للبيت وأهله. لكن لما أعلنت الحرب بين باي تونس وملك سردينيا قبل ثلاثة أعوام، وظهر أسطول هذا الملك عرض «خلق الوادي »، ما راع أهل البيت الآ والخادم الوفي يقول : « الآ سنتقم منكهم على آخركم يا معشر الكلاب المسيحيين بسوسة. » فرد عليه سيده : « كيف ! أنت أيضا ضدنا؟ أنت كذلك تنكر معرفتنا؟ » فأردف الصبي المسلم : « ليس الآ وقت معرفة بل حان موعد الانتقام. » وبالفعل أحرق آنذاك بالمقيمين النصارى خطر ولكن الرب أبعد الخطر بفضل رحمته.

لقد أحدث التغيير الجديد الذي طرأ على عرش تونس دهشة في نفوس أهالي المكان ودوخ عقولهم لأنه لم يسفر هذه المرة — خلافا لما هو مألوف في تاريخ هذا القطر — عن إراقة دماء. فيا لها من دماء سالت لدى بيعة

المنستير في 13 جوان 1835

في صبيحة الثامن من الشهر الجاري بارحنا سوسة، أنا وخادمي ومسلم يحمل سلاحا. وكنا نمتطي بغالا ونقود أخرى عليها أمتعتي. واتبعنا طريقا ساحليا كثير المنحرجات حتى بلغنا هذا المكان. ولم تتميز المسافة التي قطعناها بشيء سوى غابات زيتون جميلة. واستقبلني السيد فليشي سارا (Felice Serra)، الذي كنت موصى إليه، في بيته حيث أفرغ لي غرفة وخصني الى حد هذه الساعة بضيافة جيدة وأحاطني بفائق التقدير. وتقع المنستير على بعد اثني عشر ميلا فقط من سوسة وتحتل موقعا رائعا على حافة البحر ولها مرسى حسن وسور منيع يحيط بها ويحميها. ويرابط في القلعة «الطبرجي الباشا»، وهو الأمر العسكري، بمعية حفنة من العساكر. وتشتمل المدينة على 1400 منزل وتعدّ، حسب التقدير، نحو 12.000 ساكن، منهم خمسون يهوديا واثنا عشر مسيحيا وعدد من المالطين. والمنستير أيضا مركز نفوذ «قايد» يتولّى، فضلا عن نطاق المدينة ذاتها، أمر اثني عشرة قرية. وبها الفلاحة وتربية الماشية في وضع حسن. ويكثر في المنطقة بصفة خاصة الزيتون والأشجار المثمرة. ولموقع المدينة منافع صحية متميزة فهناك البحر من جهة والبساتين الغناء من جهة أخرى. وقد مرّت الآن ثلاثمائة وعشرون سنة على طرد الاسبان من هذا المكان حيث كانت لهم لأمد طويل مستعمرة. وزال كل أثر من احتلالهم البائد ولم يبق ظاهرا سوى صليب من صلبان فرسان مالطة منحوت على عمود رخامي عند أحد أبواب المدينة. وأنهج المدينة متسعة نظيفة لا تعلو فيها المنازل أكثر من طابق واحد. ووجدنا مسلمي المكان أكثر طيبة وأقل تعصبا من مسلمي سوسة وكانت لي معهم يوميا طوال إقامتي محاورات صريحة. وسرعان ما نفذت المجموعة الصغيرة من الكتب المكتوبة بالعربية التي أتيت بها الى هنا وصرت كل ساعة أسأل

الباي الأخير، دماء ابني أخيه وطيبه الخاص و«صاحب الطابع» والكتاب المكلف بالشؤون الخارجية، الذي كان من النصارى⁽¹⁴⁾. لقد كان مشهد انشروحت له صدور هؤلاء «البرابرة» الهمج، مشهد قطع رقبتَي الشابين وليّ العهد الشرعيين و«صاحب الطابع» الذي ساهم كثيرا في تجميل تونس وأسس مسجدا جميلا وحفر آبارا كثيرة، ثم مشهد جرّ الجثث عبر شوارع المدينة. أيعقل أن يمرّ الآن كل شيء في تمام الهدوء والسكينة دون أن يتمّ على الأقل ازهاق روح صاحب الطابع المكروه خنقا! ولا شيء لتتويج الحدث سوى نفي مملوكين الى «جربة»! هذا غير معقول! هكذا تحدث القوم وقالوا. لكن اكتشف في الكتب التي هي في حوزة رجال الدين ما ينبيء بأن الباي الحالي لن يحكم أكثر من سنتين ونصف⁽¹⁵⁾ وعندها سوف يسقط من الضحايا ما فيه الكفاية. وها هم الناس على أحر من الجمر في انتظار هذا الحين، هذا بالرغم من أن كل تغيير يطرأ على مستوى العرش يكبد البلاط أموالا طائلة. ذلك أن «القبطان» يشتري من السلطان الأعظم دوما بأبھظ الأثمان. ويساهم إقليم سوسة وحده في كل مرة بـ 40.000 ريال، ومع ذلك فإن هذه الأحداث تلاقى دوما بكامل الترحاب. وبعد شهر سيسافر «صاحب الطابع» المذكور أعلاه من تونس الى القسطنطينية للاتيان بـ «القبطان» الى سيده. وقد تم منذ مدة انشاء بضع سفن حربية في مرسيليا لهذا الغرض وصلت الى تونس قبل بضعة أيام وسرعان ما وقع تسخير ملاحين خصيصا لقيادتها منهم 24 من سوسة وحدها... [...]

(14) يشير ايفالد هنا إلى أحداث لم تطرأ، كما يدعي خطأ، عند بيعه الباي الأخير، أي حسين باي (1824) بل قبل ذلك. ففي ذكر «ابني الأخ» تلميح إلى الانقلاب الذي قام به محمود باي ضد عثمان باي سنة 1815، وفي ذكر «صاحب الطابع» إشارة إلى مقتل يوسف صاحب الطابع على يدي محمود باي. وأما «الكتاب» النصراني فهو بدون شك مريانو ستكا الذي أعدم بأمر من عثمان باي بدعوى أنه تسبب في موت سيده حمودة باشا، بمعية «الطبيب» السابق الذكر أيضا.

(15) امتد زمن حكم مصطفى باي من ماي 1835 إلى وفاته في أكتوبر 1837 وهكذا يكون استغرق فعلا حوالي سنتين ونصف. إلا أن الخلافة بعده لم تصاحبها أحداث دامية.

هل من مزيد، ولكن لم يبق لي منها مع الأسف شيء. ويسود هنا يسر ملحوظ ومع هذا يتصف الأهالي بالكذب في العمل وبالمسالمة في معاملة الغير. وقد رأيتهم يقبلون على محادثتي بسرور وسمحوا لي حتى بشراء مصحف قرآن كان معروضا للبيع. ومصحف القرآن لا تباع بتاتا مقابل نقود ويعتبر أخذ المال عليها اثما. بل انها تقتنى مقابل خبز يوزع على الفقراء. وقد كلّفني مصحفى 332 رغيفا من الخبز إلا أن البائع أبى أن يتسلم الخبز بل احتسب ثمنه وتناوله مني نقدا وأنا متأكد من أنه احتفظ به لنفسه.

الآن أننى وجدت سكان المكان كغيرهم من أهالي بلاد البربر في كل مكان متشبهين بالاعتقادات الباطلة. وقد طلب منى أخيرا أحد المسلمين أن أعلمه « خط الرمل » وهو ضرب من ضروب السحر يمكّن صاحبه من معرفة كم سيعيش انسان ما ويعطيه القدرة على جعل الديار تنهار وعلى التحكم في حياة انسان أو مماته. وقلت للرجل : « افتح قرآنك واقرأ لي ما جاء في آخر سورة «لقمان» وسوف تلقى ما تتوق إلى معرفته فأجاب : « ما أنا بطاهر الآن ولا يحق لي أن أمس القرآن. ها هو ذا افتحه بنفسك واقرأ علي. » ففعلت وقرأت عليه المقطع المعنى حيث يأتي أن لا انسان يدري كم يعيش مخلوق آخر بل لن ذلك سر من الأسرار الخمسة التي لا يعلمها سوى الله وهي قيام الساعة وموعد نزول الغيث وما في الأرحام، ان ذكرا أو أنثى، ومصير الانسان مستقبلا ومتى وكيف وأين يموت انسان ما.

وفي الحادي عشر من الشهر الجاري أصاب القمر الكسوف وسألني بعض أهل العلم عن سبب هذه الظاهرة فشرحت لهم الأمر بكل بساطة ولما ذكرت لهم أن الأرض تدور حل الشمس احتجوا وقالوا أن ذلك مستحيل وزعموا أن الأرض ترتاح على قرن الثور الأكبر الذي يقف فوق الحيتان الكبيرة التي توجد بدورها في البحر. ولم تجد البراهين نفعا وتشبهوا بخرافتهم السخيفة. ويوجد بالمكان ضريح « مرابط »، أو ولي صالح، غريب الأطوار. وضريحه كسائر أضرحة أمثاله ملاذ للمجرمين فمن أسعفه الحظ وبلغه ضمن لنفسه الحرية وتفادى القصاص. وكفى غرابة أن نعلم أن هذا الولي الصالح

إيطالي الأصل ارتد عن دينه واعتنق الاسلام وأبهر الناس طويلا بشتى الخدع وأدوار الشعوذة إلى أن حسبه صاحب كرامات. وحصل أن كاتب ذات يوم والده طالبا منه أن يرسل إليه في أعقاب الخريف بضعة صناديق من العنب الايطالي. وكان قائد السفينة وملاحوها متواطئين مع صاحب الخطة فما أن بلغوا الشاطئ حتى ردموها الصناديق في موقع متفق عليه. عند ذلك قال صاحبنا للأهالي المسلمين : « اذهبوا الى الشاطئ وهناك حيث الصخر الكبير تجدون تحت التراب صناديق ملؤها عنب شهى ». وقصدوا المكان الموصوف وأخرجت الخبيثة العجيبة. ومنذ ذلك الحين اعتبر من الصالحين وعند مماته أقيم على قبره مقام فأضحى ملاذا حصينا.

ان يهود المكان لفقراء ولهم بيعة وحاخام. وقد تسنى لي الحديث معهم ببساطة وصراحة وتناولوا منى كتب الانجيل بكامل السرور ولم يكن بحوزتهم من قبل أي منها. لكن عند وصولي وجدت لدى المجموعة بأسرها نسختين فقط اشتريتا من عندي في تونس. وكانت تعاليم المسيحية مجهولة لديهم تماما. وزودت كذلك ثلة من النصارى بكلمة الحياة. وهم يعيشون معا في طمأنينة ووافق، ولكن لا أحد منهم متزوج.

وعلى مسافة يوم سفر فقط تقع مدينة القيروان الذائعة الصيت، حيث يوجد قبر صحابي من أصدقاء شباب محمد، وحيث يوجد أكبر وأجمل مسجد في بلاد البربر، تزينه 500 من الأعمدة الصوانية. وإلى القيروان يحج من تعذر عليه الرحيل الى مكة. وثمة أسطورة تقول أن مكة ستسقط يوما في أيدي النصارى فتصبح القيروان آنذاك قبلة حج المسلمين الأولى. وكم أود أن أزور هذه المدينة غير أن المكان على درجة من القداسة تجعل زيارة النصارى له دون ترخيص من السلط العليا أمرا مستحيلا. والحاصل أنه يحجر على أي مسيحي دخول هذه المدينة دون اذن خاص من لدن الباي وإذا تهيأ هذا فلا بد للزائر من كوكبة من المماليك لمواكبته.

ولهذا وجب عليّ الاقتصار على أخبار من أتاحت له زيارة المكان. ويقال ان القيروان تشتمل على ستة آلاف منزل وعلى عدد لا بأس به من السكان.

المهدية في 16 جوان 1835

كان المؤذن يسمع أهالي المنستير آذان الفجر من أعلى الصومعة، بقوله « الله أكبر! »، لما اجتزنا باب المدينة على ظهور البغال، ومعنا مسلمان يحملان سلاحا. وما هي إلا فترة وجيزة حتى تركنا بساكن المدينة الجميلة وحقوقها الخصبة خلف ظهورنا واكتفتنا منطقة ققراء موحشة لكنها ثرية بآثار العصور القديمة. وبلغنا أول ما بلغنا قرية « خنيس » الصغيرة ثم « الكرب »، وما ان تجاوزناها حتى بدت لنا « لمطة » المعروفة لدى القدامى بـ « لبتيس بارفا » (Leptis Parva) وقد كان يبلغ محيطها في سالف العهد ميلا كاملا، وما هي الآن مجرد قرية يائسة. وما زالت تشهد على عظمة هذا الموقع الغابرة بقايا القلعة البارزة فوق سطح الأرض بوضوح. ثم بلغنا آثار « بوحجر »، وبعد بضعة أميال أدركنا حافة بحيرة مالحة قد يكون لها ثلاثة أميال من الطول ونصف ميل من العرض، يسميها الأهالي « سبخة ».

وسار بنا الطريق طوال حافة هذه البحيرة. والغريب أن الدولة الحريصة عادة على احتكار المحاصيل تسمح لأي كان برفع ما شاء من ملح هذه البحيرة. ثم وصلنا بعد ذلك إلى « طبلية » حيث توجد كذلك آثار العصور القديمة، إثر ذلك جئنا بـ « البقالطة ». وبما أن القيظ بدأ يشتد فقد وقفنا برهة من الزمن في ظل الزياتين لترك دوابنا تستريح. ولم تعد تفصلنا عن « المهدية » سوى تسعة أميال وكنت آمل أن أطوي ما بقي لي من المسير لهذا اليوم في ظرف ساعة ونصف، لكننا طفقنا نمشي الساعة تلو الأخرى وسط غابة زيتون كثيفة دون أن يظهر لنا هدفنا المنشود باشتياق كبير. واشتد بي القلق وكبرت حيرتي لما اختفى عنا كل أثر لرسم طريق فوقنا، ونحن خمسة فرسان، لا ندرى إلى أين المسير. وهنا اتضح أن مرشدي لا يعرفان الطريق وبات من الجلي أننا ضللنا سبلنا. ولا ينفع مع المسلمين في مثل هذه الحالات غضب أو انفعال. فأنت لا تسمع منهم أبدا سوى : « هكذا قدر ! هكذا أراد الله ! » يقولونها في منتهى الهدوء والبرودة.

وفي مقام الولي المذكور يواظب ليلا ونهارا على تلاوة القرآن. وكان أهل القيروان سابقا يتمتعون بامتيازات عديدة ويعفون من عدة أديات. ولما تولى « صاحب الطابع » الحالي مقاليد الحكم أقام، لسد فراغ الخزينة، ضرائب جديدة وأبى أن تبقى القيروان معفاة منها. فتقرر أن ترفع هنا أيضا كما في سائر المملكة خمس وعشرون بالمائة على كل المواد الغذائية القابلة للاستهلاك. فثار أهل القيروان غيرة على حقوقهم الراسخة ورابط ثلاثة آلاف من رجالهم بالسلاح حول المدينة للقاء القوات القادمة من تونس كما يلزم. وكان « صاحب الطابع » مقيما بسوسة حين وافاه خبر انتفاضة المدينة المقدسة. وفي الحين ركب إلى القيروان على رأس خمسين رجلا فقط وفاجأ أهل القيروان على حين بغتة ودون سابق اعلام. فكان لظهوره المفاجيء وقع أدخل في قلوب القيروانيين الصناديد الرعب والفرع وجعلهم يلوذون بالفرار لا يلوون على شيء. ونزل « صاحب الطابع » من على مطيته أمام منزل « القايد » ودخل وقال ببرودة دم : « اتنتي بفلان وفلان ». ولما تم له ذلك قال : « أنت تذهب إلى السجن وأنت تسخر للجندف على السفن الحربية ». وعلى هذا النحو أبعد رؤوس الثورة وأنزل على القيروان غرامة قدرها أربعة ملايين ريال تدفع في الحال.

أود ختاماً أن أضيف ما يلي وهو من باب النوادر الطريفة، ذلك أن من بين الرسائل التي وصلتني خلال إقامتي هاهنا رسالة من انكلترا جاءت عبر فرنسا وإيطاليا الخ. وفي إحدى مقاطعات إيطاليا فتحت وقرئت ثم ثقت وختمت من جديد وكتب عليها ما يلي : *netta fuori, spurca dentro* أي « نقية من الخارج ونجسة من الداخل ». ولم يعد محتوى الرسالة أن يكون مجرد ردّ على طلب سبق أن وجهته إلى كاتب جمعية التبشير.

وبعد مداولات طويلة جاء الخلاص من هذه الورطة على يدي خادمي الذي قال : « سيدي، لنذهب قدما في هذا الاتجاه. فهناك البحر وعندما نصل الشاطئ نجد طريقنا بتأكيد ». ومشينا بالنصيحة فخرجنا من الغابة بسلام ثم لمحنا « المهدية » تسطع في البعد. وأدركت هذا المكان وأنا في حالة قصوى من الاعياء وبصداع شديد في الرأس، سببه حرارة الشمس اللافتة. وتقطن بالمكان ثلاث أسر مسيحية، إحداها إيطالية والأخريان فرنسيتان، وذلك من أجل تجارة الزيت. وكنت أحمل توصية إلى السيد « جوسيبو كاستالينو » (Giuseppe Castellino)، من أصيلي كورسيكا، فاستقبلني بفائق الحفاوة. ونظرا إلى حاجتي الملحة إلى الراحة ، لما سببه لي سفر اليوم، تحت أشعة الشمس المتقدة من ارهاق، رأيتني أبادر فور وصولي بالارتقاء على الفراش. وخرجت إثر ذلك للفرجة على المدينة. ان « المهدية » أو « افريقية » — وهو حسبما يقال أول موقع أسسه الرومان على ساحل افريقيا الشمالي — تقع في شبه جزيرة وتحتوي على أجمل وأعظم ما رأيت إلى حد الساعة من آثار العصور القديمة. وما زالت تقوم عند مدخل المدينة ثلاثة أبراج حسنة الصيانة، وفي الممر المقبب الذي يتجاوز طوله مائة خطوة وجدت كتابة حجرية صارت للأسف مطموسة تماما. وتشهد على عظمة القدم مجموعة من خزانات المياه، العديد منها في حالة حسنة، وكل مرمية منها قطع على غاية من الضخامة، وأبراج وقبور منقورة في الصخر ودار متداع. أما اليوم فلا تعد المدينة أكثر من خمسة آلاف ساكن، منهم « آغا » هو آمر الحامية المرابطة في القلعة وهو قاضي المدينة في الآن نفسه، وهناك بعض اليهود ومن ذكرنا من المسيحيين. ويقال ان هواء المكان صحي للغاية وان الأهالي يعمرون طويلا وقد توفيت من أيام قليلة امرأة في سنّ المائة وعشرين عاما. وينتشر هنا الزيتون بكثرة وتحف بالمدينة غابات كثيرة منه. لذا نجد السكان على غاية من الثراء ولكنهم كسالى. فلا يزرع شيء ولا يجنى إلا ما جادت به الطبيعة تلقائيا. وأما تربية الماشية فسيئة ولا يجد الأوروبي ما يلد للسانه إلا ما قل. لكن الرغبة في الثراء، أملا في قضاء بضع سنين من الترف والرخاء في أوروبا، تجعل الأوروبيين

المتعطشين إلى جمع المال يتحملون جميع الصعاب. ونظرا إلى أن إقامتي في هذا المكان لم تتجاوز يوما واحدا فانه لا يتسنى لي أن أحكم على طبع سكانه المسلمين. بيد أنني سمعت من النصارى المقيمين هنا في أمان تام انه ليس لهم من التعصب الديني إلا قدر قليل.

صفاقس في 21 جوان 1835

في السابع عشر من الشهر الجاري وفي الساعة الرابعة صباحا كنا في طريقنا نسير، بعد أن تركنا « المهدية » وراءنا. وكان دربنا يلتوي التواء الثعبان عبر البساتين الجميلة طوال سبعة أميال. وبعد ذلك انقطعت كل مظاهر الزراعة ووصلنا الى وطن الأعراب المتوحشين الذين يكتون العداوة لسكنى الديار ولا يعيشون إلا في الخيام، منصرفين الى رعي غنمهم ومرحبين بما تدرّ عليهم الأرض طوعا. وقد سبق لي أن سمعت الكثير عن بقايا فاخرة من مسرح روماني مدرج في هذه الفيافي المقفرة أو وسطها. ويسميه العرب « الجم » بينما كان يعرف لدى القدماء بـ « تسدروس » (Tisdras) أو « تسدروس » (Tysdrus). وقد كنت لرؤيته على أحرّ من الجمر وها أن الموعد يحين اليوم لكي أشاهد هذه الأعجوبة الباقية من العصر القديم، بل أقيم مبيتى بجانبها.

وأخذ طريقنا في الصعود شيئا فشيئا فقلت في نفسي : متى بلغت القمة أمكنك أن تملأ نظرك من هذا الصرح العظيم الذي شيّده الأقدمون. ولكنني أخطأت الحساب، فقلت : سوف تناح لك رؤيته من أعلى ذلك المرتفع! ووخزت بغلي ووصلت الى فوق فإذا بهضبة أخرى تحجب الرؤية. وأخيرا صاح مرشدي : « هذا الجم ! هذا البرج الكبير امتاع الرومي ! » [كذا] ودققت النظر فانتابني شعور كئيب لا يوصف مرق أحشائي. كيف لا وأنا أرى هذه الآلة المعمارية العجيبة وسط هذه الصحراء الافريقية تحيط بها الطغم الوحشية العديمة الحضارة والمفتقدة لكل احساس بالفن ! وبدا هذا المبنى الجبّار من مشرفي وكأنه حصن من حصون الفرسان الألمان صانه الدهر. وكانت الشمس آنذاك في كبد السماء ترسل أشعتها اللافتة فتألمت كثيرا من الحرّ ممّا دعاني الى أن أزيغ عن الطريق جانبا حتى احتمي بظلال بعض الأشجار المنعشة. وكنت أنوي المكوث هناك حتى يحلّ المساء. وفي

الأثناء لم تفارق عيناى هذا البناء العجيب، بينما عاد بي ذهني القهقري الى العصور التي كان فيها الرومان والمسيحيون يعمرّون هذا القطر المبارك، الذي غدا اليوم في تعاسة. غير أن مرشدي لم يتركانى أتمهل طويلا وألحّا على مواصلة السير، ذلك لأنهما كادا يموتان عطشا، فتعيّن عليّ الانصياع وسرنا على ظهور مطايانا رويدا رويدا صوب وكر اللصوص الواقع في ظل الآثار المذكور والمسكون من قبل عرب شبه عراة. وفي هذا المكان تنزل كل القوافل الواردة من شتى الجهات للاستراحة. وبالتالي فإن الفنادق هنا تعجّ بالحشرات على مختلف أجناسها، ممّا يجعل كل مسافر غريب يقضي كامل ليلته في حركة ونشاط. وحرصا مني على تفادي هذا السوء أخذت احتياطي وجلبت معي رسائل توصية موجهة الى عربيّ من أعيان المكان. وسلّمته رسائلتي فأبعد نساءه واستقبلني في كوخه. ورغم ما كنت عليه من تعب خلّفه لي سير اثنين وثلاثين ميلا، رأيّني أسرع، حالما سمحت قواعد اللياقة بذلك، الى الخارج لكي أدقّق النظر عن كئيب في أعجب ما رأيّت لحد الآن. ويقال ان هذا الأثر هو أعظم معلم من معالم فنّ الرومان وترفهم، وقد شيّد في عهد « غرديانوس » (Gardianus) الذي نودي به قيصرا رومانيا في مدينة « تسدروس »، على مقربة من هذا المعلم.

وكان هذا المسرح المدرج في سالف العهد يشتمل على أربعة صفوف من الأعمدة قائمة بعضها فوق بعض وعلى أربعة وستين من الأروقة المقنطرة. لكن نجد حاليا صفّ الأعمدة العلوي منهارا أو يكاد ولم يبق في حالة طيبة سوى الصفوف الثلاثة الباقية. ويكون القياس من القاعدة الأساسية الى قاعدة الرواق العلوي الرابع تسعين قدما، باعتبار ان ارتفاع العمود الواحد خمسة عشر قدما. وبالتالي يكون ارتفاع كامل البناية مائة وخمسة أقدام. أما الساحة الداخلية فلها ثلاثمائة قدم طولاً ومائتان عرضا. ويوجد في الوسط جبّ لكنه مطمور حاليا. وقد فال لي العرب انه كان منفذ نفق تحت الأرض يصل حتى « المهدية » وما ذلك في اعتقادي سوى خرافة. وما زالت بقايا هذا المدرج تظهر وكأنها حديثة العهد أو أنجزت تولا. وقبل مضيّ مائة سنة أمر أحد بايات تونس بنسف أربعة أروقة مقنطرة لأن العرب تحصنوا خلال بعض

انتفاضاتهم بالمبنى وقاوموا مقاومة باسلة. وتبلغ كثافة الأروقة المقنطرة التي وقع نسفها مائة وخمسة أقدام. ويبلغ محيط المبنى برمته 1570 قدما. ويوجد في احد أركان المسرح تمثال لـ « فينوس » لكنه مبتور الرأس. وما زال بارزا على المبنى نفسه رأس جدي وآخر لرجل. وبين هذا الصرح الجبار وأكواخ العرب الحقيمة تباين لا يوصف. ولم يسبق لي بتاتا أن رأيت أكواخا أكثر بؤسا ولا بلدوا أكثر فاقة من هؤلاء. وتنتج دوائر المكان بكتل المرمر والأعمدة ودوائر البناءات الغابرة وخزانات المياه. وعلى بعد نحو ربع ساعة من هذا المسرح يوجد الموقع الذي كان يكتنف المدينة العتيقة وما زالت تنتشر فيه آثار كثيرة جدًا. وقد رأيت تمثالا مرمريا لرجل عملاق ولكنه ويا للأسف مبتور الرأس أيضا. ذلك أن تعصّب العرب الديني أدى الى تحطيم كل المعالم الفنية. ولم أمل من مشاهدة هذا المبنى فطفت حوله مرارا للتمتع فيه من كل جوانبه، يتعني حشد من البدو، رجالا ونساء وأطفالا، قد لازموا خطايا غير فاهمين أين يكمن العجب الجدير بالفرجة. كما أنهم عرضوا عليّ قطعاً نقدية قديمة للبيع وتعجبوا من كل ما كان عليّ. وبالرغم من أن لباسي كان لا يعدو كونه من نسيج الكتان الأبيض فقد سرى في اعتقادهم أنني لا بد أن أكون بعض القناصل أو تاجرا على أقل تقدير. والقنصل في أعين هؤلاء المخاليق أرقى ما يكون. ثم أنني كنت أحمل عادة، وقاية من حرارة الشمس الشديدة، زوج قفاز أبيض اللون، يمكنّ اليدين نوعا ما من شيء من الرطوبة، لذا استقطبت أصابعي جلّ انتباههم وقد تبادر الى أذهانهم أن القفاز جزء طبيعي من يدي لا ينزع فسألوني كيف يمكنني أن أتناول الطعام — مع الملاحظ أنهم لا يعرفون سكيناً أو شوكة بل هم يأكلون بالأصابع.

وتفصل هذا المكان عن « صفافس » مسافة خمسة وخمسين ميلا. وقد أبدى مرشداي تخوفا من متابعة الطريق صحبتي بمفردهما فرأيت أنه من الأفضل أن أواصل الرحيل في المساء رفقة القافلة القادمة من تونس. وبينما كنت أكرر الفرجة على المعلم الأثري عينه، والبدو يحملقون فيّ، شاهدت مشاهد أدخلت على نفسي كدرا كبيرا. ذلك أن بعضا من معاليك الباي

انهالوا على عدد من البدو ضربا وأسأؤوا معاملتهم بكل عنف، لماذا ؟ لأنهم باعوا الى بعض الأوروبيين مسبقا أكثر زيتونا مما حصل لديهم اثر الجنى. وهاهم الأوروبيون يبعثون الزبانية لا لأخذ الزيتون بل للمطالبة بثمنه. والعربي الذي أدى به سوء الطالع الى أن يبيع « مطر » الزيتون بخمسة ريالات يجد نفسه الآن ملزما بدفع عشرين ريالا للأوروبي وريالين للمملوك على عنائه. ولم يكن يعرف أدنى شيء من هذه التجاوزات الفظيعة قبل أربع سنين فقط. ففي ذلك الوقت لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأوروبيين المهتمين بشراء الزيتون وما كانوا يتعاملون إلا مع من كان قادرا من الأهالي على توفير ما التزم ببيعه. ولكن منذ بضعة أعوام دفع الجشع والتكالب على الربح بكثير من الأوروبيين الى عبور البحر والمجيء الى هنا. وكلّهم حريص على جمع ثروة برأس مال قليل وفي أسرع الآجال، فتراهم يمارسون الرّبا بصفة مهولة حتى انك لا تجد في سجلات أكبر المرايين اليهود ما يضارع ولو قليلا ممارسات هؤلاء المسيحيين المزعومين. وسوف تكون عاقبة تجارة الزيتون هذه، كما يتيسّر التنبؤ به، جدّ مأسوية، بلا ريب. اذ سيجنح العرب المسلوبون بهذه الصفة الشنيعة من قبل الأوروبيين والمنهكون الى أقصى درجة الى قتل النصارى المقيمين فرادى هنا وهناك في أرجاء القطر.

وفي الأثناء خيم الليل فقصدت كوخ صاحبنا البدوي فوجدته قد أعدّ اناء كبيرا مملوئا « بالكسكسي » ودعاني للأكل منه، فجلسنا على الأرض وأكلنا. وبعد العشاء أوثقنا أمتعتنا على ظهور بغالنا وتوجهنا الى المكان الذي تتجمع فيه القوافل في انتظار ساعة الرحيل. وبينما مكث خادمي ومرافقاي منتبهين الى البغال سرحت أنا أحديق في القبة الجميلة التي كانت فوق رأسي، قبة السماء الرائعة، المتألّفة نجوما. وارتقى فكري في سكون الليل الى من تبوأ العرش فوق النجوم، الى الرحمان الرحيم.

وفي الساعة الحادية عشرة تحركت القافلة وجهاز كل أحد سلاحه ليكون على استعداد في حالة حصول أي اعتداء. وراقبت بدوري مسدسي واحتزمت السيف من باب الاعتياد أكثر منه للاعتماد على هذا السلاح فكل ثقتي كانت بيد من يدبّر الأمور ويسيرها بحكمة. وامتعليت دأبتي وفعل خادمي بالمثل،

وترك أحد المرشدين البغل الثالث ليناولني معظفي ولما عاد اليه — ماذا حصل ؟ لقد غاب البغل واختفى ومعه كل لباسي وكتبي وغير ذلك من المتاع، كان مشحونا في حقيبتين. فامتلكني ذهول عظيم، وتبادر الى خاطري ان البغل اقتفى أثر القافلة التي كانت قد انطلقت. فأرسلت أحد مرشدي ليدركه ويعود به ولكنه عاد صفر اليدين وعليه علامات الحيرة. وكانت الساعة آنذاك تشير الى منتصف الليل وكان يسود المكان ظلام حالك. ما العمل يا ترى ؟ هكذا فكرت وكانت النصيحة في تلك الآونة فعلا لا تشتري بالذهب. ثم اني طالبت بحضور « شيخ » المكان، كما أرسلت في طلب البدوي الذي كنت موصى اليه وقد ساورتني شكوك في أمره. فأقبل يصحبه بعض البدو كما لحق « الشيخ ». وقلت لهؤلاء البدو في صراحة ان قومهم الذين لازموا أثرنا طول الوقت هم سراق بغلي. فأجاب « الشيخ » بأن قومه أهل ثقة وسألني في نفس الحين ان كان في الحقيبتين نقود فأجبت بأنهما لا تحتويان على نقود بل على كتبي وثيابي لا غير. فرد علي : « لا تخش شيئا إذن، إن لم تكن هناك دراهم فسوف تستعيد ما افقدت ». ثم أرسل رجالا الى مختلف الجهات ولكنهم كانوا كل مرة يعودون فارغي الأيدي. حينذاك لم يبق أمامي سوى حلين لتخويف هؤلاء البدو، قصد استرجاع أملاكي.

إن هؤلاء القوم لعلی قدر كبير من الاعتقاد في الخرافات والأباطيل، ثم انهم يعلمون اني أحذق العربية وأقرأ القرآن. وبالتالي يكفي أن أقول اني خبير بالسحر المعروف بـ « خط الرمل » [كذا] واني سوف أنفذ هذا السحر في صورة ما لم يحضروا لي بغلي وإن الجاني سيلقي عندئذ عقابا شديدا. بيد أني أبيت أن أريد في دعم اعتقاداتهم الباطلة والتجأت الى الحل الثاني. علما بأن الأنكليز يحظون في أعين العرب بمكانة عالية، قلت، وأنا مقر العزم على فعل ما أقول، اني سأترقب حتى طلوع النهار أن تعاد اليّ أمتعتي وإن لم يحصل ذلك فإنني سأرسل على جناح السرعة أحد رجالي الى تونس لاعلام القنصل الأنكليزي بما جرى وهو بدوره سينقل الخبر الى الباي. وعند ذلك سيدفعون لي ثمن بغلي وحقيبتَي غاليا. ولكن أظهروا وكأن لا شأن لهم مع

الباي، بل مع القنصل، فقد لاحظت فورا أن كلامي أحدث في نفوس هؤلاء البرابرة الهمج وقعا ملموسا. اثر ذلك تفرقوا ثانية قصد التفتيش بينما اعتصمت أنا ورجالي بالهدوء التام. وفي الساعة الثالثة صباحا أقبل أحد البدو وقال لي : « اطمئن، ان بغلك في منزلي ». وما هي الا هنيهة حتى جيء به اليّ يقوده أولئك اللصوص أنفسهم. وكم كانت فرحتي عارمة، لا سيما وأنه لم يكن ينقص من متاعي أدنى شيء رغم ما بدا جليا من عطب لحق بالحقيبتين لتعرضهما للفتح عنوة، بعد أن قطعت أحزمة الاغلاق بسكين.

والتف حولي عرب كثيرون وطالب كل منهم بمكافأة على عنائه في البحث عن البغل وتجاوز مجمل طلبهم مائة ريال. ولما صرحت لهم دون التواء بأني لن أعطيهم شيئا بل أني سأشتكي من تصرفهم العديم الحياء، انتابهم الخوف وقالوا : « اذا لم يكن لديك مال فاننا نهيك ما أديناه لك هدية وما عليك إلا أن تنصرف في سبيل حالك ». لكنني ما كنت لأتجرأ على احتياز هذه المنطقة صحبة رفيقي فقط : انها فلاة خالية من البشر، عديمة الثبت، تمتد على طول خمسة وخمسين ميلا بين الجرم وصفاقس. ولهذا رأيتني أتوجه الى البدوي الذي كنت موصى اليه، قائلا : « اني أعتبرك الآن بمثابة والدي وقد جئت موجها إليك رأسا، فاعطني اثنين من ثقة الرجال ليواكباني حتى صفاقس » فقال : « هاهما رجلان فإذا منحتهما أجرا كافيا فإنهما سيرافقانك ». بيد أني لقيت فيهما اثنين من أولئك الذين ثبت لي مشاركتهم في السرقة. فأخذت صاحبي البدوي جانبا وقلت له : « هل تعرف هذين الرجلين جيّد المعرفة ؟ هل هما من أهل الثقة وهل يمكنني أن أتكلم عليهما ؟ » فأجاب : « أقسم لك برأسك ورأس « سيرا » — وهو اسم السيد الذي أوصاني اليه — أني أعرفهما وانهما من أهل الثقة ». فأجبت : « اترك الآن رأسي ورأس « سيرا » جانبا واحلف لي برأسك ورأس أبنائك » وحينها تلعنم صاحبي البدوي وأحجم عن الكلام، فكان لي في ذلك دليل ببن على الخبث وسوء النية. واكتفيت بأن قلت : « سأبقى هنا في انتظار القافلة الآتية » وهكذا فعلت وحمدت الله على طيبته ووفائه وعلى رعايته ولبثت على بركة الرب كامل اليوم التالي رابضا في ركن حقير من القرية صحبة

أتباعي. وفي المساء على الساعة السادسة وصلت قافلة من تونس فانضممنا إليها وواصلنا مسيرنا ضمنها.

ومن عادة أدلاء قافلة كهذه وسائر أفرادها أن يكونوا مدججين بالسلاح. وكان يتقدمها راكبا أعرف الأدلاء بالطريق وواكبها من كلا الجانبين دليلان آخران وسار في المؤخرة رابع. وكانت البغال والجمال والخيول والحمير. بأسرها تعرف الطريق، وليس على المرء سوى الانضمام الى صفها وترك المطايا تمشي على هواها. وكان الأدلاء يعرفون جيدا كل شجرة وكل نبتة وكل منعطف طريق. فكانوا ينادون باستمرار : « انتبهوا ! هنا شجرة ! هنا يأخذ الطريق في الصعود ! أو : هنا ينحدر ! » كما كانوا ينتبهون كي لا يغفو أحد المسافرين، فكنت تراهم تارة يحادثون هذا وتارة ذلك. ووجدت هؤلاء الأدلاء على غاية من الكياسة وحسن السلوك. وفي الأثناء خيم الليل شيئا فشيئا وصرنا نبصر هنا وهناك في البعد نيران البدو مشتعلة ونسمع نباح كلابهم. ومن عادة هؤلاء البدو ألا يقيموا مضاربهم على قارعة الطريق تفاديا لضيوف غير مرغوب فيهم. وكانت النجوم ترسل شعاعها الوضاح وكان الليل في منتهى الجمال. بيد أن حادثة الأمس التي تمثلت حينها الى خاطري بكل خطورتها أدخلت عليّ الكتابة ولم تفارقني هواجس الخوف كامل تلك الليلة، لا سيما ونحن نسير عبر ببداء رهيبة. وعند الصباح شعرت بتعب شديد وسطا عليّ النوم بقوة حتى أضحييت ألقى عناء كبيرا في الثبوت فوق السرج.

ولاحت على بعض المسافة ديار فخلتها صفاقس. ألا أن بعض الرفاق قال لي أنما تلك بساتين هذه المدينة ومنازلها الريفية، وما زالت تفصلنا عن هدفنا عشرة أميال. لكن جميع قواي نفذت ولم تعد لي قدرة على مواصلة السير فانفصلت عن القافلة وحدث شيئا ما عن الطريق ثم أوعزت الى خادمي بأن يهَيء لي فنجان قهوة ونزلت عن مطيتي ونمت في الحال. ولما حضرت القهوة أوقظت من سباتي فشربت القهوة واعتليت دابتي ومشينا الأميال العشرة الباقية عبر أجمل البساتين الى أن أدركنا هذا المكان [صفاقس] في سلام وعافية بفضل رعاية الله. واستقبلني العون الأنكليزي، السيد « بلانكبارغ »

(Blankberg)⁽¹⁶⁾، السويسري الأصل، خير استقبال وبعد بادرة السلام سألت عن فراشي في الحين واستسلمت الى نوم عميق.

(16) لا ريب أنه نفس الشخص الذي يذكره الأمير بوكثير موسكاو باسم Blanchenay (انظر : « سميلاسو في افريقيا » ، المصدر المذكور ، ص 290).

صفافس في 8 جويلية 1835

قد لا توجد على كامل ضفاف البحر الأبيض المتوسط مدينة لها ما لصفافس من موقع متميز ومحيط جميل فتان. مباشرة على حافة البحر ترتفع الأسوار الباسقة التي تكتنف ألفا ومائتين من البناءات الرئيسية وألفين وأربعمئة من البناءات الثانوية. وباعتبار هذه الديار وكثافة المخلوقات الرائحة والغادية في الأنهج دون انقطاع، يجوز تقدير عدد السكان المسلمين بما يتراوح بين عشرة واثنى عشرة ألف نسمة. ان صفافس لمحصنة تصحينا حسنا، تعلو أسوارها المدافع، ولكنتي لم أبصر قط حراسة. ويحتل الحصن « آغا » رفقة بضعة جنود يقال لهم « زواوي » [كذا] وما زال زيتهم على الطراز التركي القديم، هذا في حين أن الجند في تونس وغيرها من البقاع عرف منذ ست سنوات تنظيمًا جديدًا وصار يعرف بالعسكر النظامي فكسي وفقا للنمط الأوروبي ودرب تدريباً أروياً. ويكفي ما قل من العناية ومن التكاليف لتجهيز المرفأ تجهيزاً لا تقا. لكن عوضاً عن ذلك نجده حالياً غاصاً بالوحل وبأعشاب البحر، مما يخول إلا لصغار المراكب الوصول حتى المدينة، بينما تضطر السفن الكبيرة إلى الارساء على بعد نصف ميل. أما شوارع المدينة فهي حسنة ومبلطة في بعض الأحيان، كما أن المنازل جميلة ننم عن الحفاظ والصيانة. وكاد الجولان عبر هذه الشوارع يكون متعة، لولا أنها، كما هو الحال بالنسبة إلى كامل بلاد البربر، تخص بالأوساخ على كافة أجناسها. وهكذا والحق يقال فإنه من خاصيات مسلمي سواحل شمالي إفريقيا أن يروا في قذارة الشوارع ضرورة لا غنى عنها. ولا توجد هنا بناءات متميزة ما عدا مسجدا كبيرا جدًا على مذهب « المالكية »، في حين تفتقر المدينة إلى مسجد على مذهب « الحنفية ». ويستحيل أن اعترضني مكان يعج مثل هذا بملاذات المجرمين. ولا يقتصر الحال على مقامات الأولياء فحسب، بل نجد مناطق بأسرها حبست شيئاً فشيئاً على مقامات الأولياء وصارت لها

بذلك نفس الصلاحية. ويكفي أي مجرم كان أن تطأ رجله منطقة من هذه المناطق ليحتفظ بحريته. وتحتوي صفافس أيضاً على بضعة أسواق جميلة وثرية توجد فيها منتوجات البلاد ومصنوعات المعامل الأروبية على حد سواء وتنفذ على صفافس بصفة خاصة قوافل غدامس لبيع بضائعها المستوردة من داخل إفريقيا، أذكر منها التبر والعاج وورق السنا وريش النعام والعبيد وغير ذلك. أما مشترياتهم العادية فتتمثل في الدرر الزجاجية والمرايا والمقاص والسكاكين والورق الخ.

ولتجار غدامس عادات غريبة، من ذلك أنهم لا يسلمون التبر قبل أن يقبضوا ثمنه الذي يشترط أن يكون من فضة، بحيث أنهم لا يقبلون النقود الذهبية. ومن عجيب الأمور أن السكن داخل أسوار مدينة صفافس حكر على « الصفاقسية » الأصليين محرم على سواهم. ولا يتسنى لأي غريب امتلاك منزل في حيّز المدينة، عربياً كان أو بدوياً. ويتعين على القادمين من تونس أو من طرابلس أو من أي مكان إسلامي آخر أن يقيموا مساكنهم خارج أسوار المدينة. ثم إن أهل صفافس بأسرهم وبدون استثناء أهل يسر وليس هناك صفافسي فقير الحال. فكل منهم يملك بستاناً جميلاً خارج المدينة، يتوسطه منزل ريفي يقيم فيه وعائلته بأسرها طيلة أشهر السنة الجميلة الستة. إنه لعمرى مشهد ممتع في هذا الفصل، يتهيأ لمن يقف في العشية عند باب المدينة فيرى الخلق صغاراً وكباراً، أطفالاً وشيوخاً، يمرّون زرافات في برودة النهار، قاصدين الأجنّة البهيجة التي تبتدىء على بعد ربع ساعة خارج المدينة، مكوّنة نصف دائرة يبلغ أقصى قطره اثني عشر ميلاً. ويشمل هذا الفضاء زهاء الستة آلاف من هذه الأجنّة. وتمتاز تربتها بخصوبة لا توصف : تقاح واجاص وعنب وتين ورمّان ومشمش وخوخ ولوز وليمون وبرقوق وتوت الخ. إلى جانب عدد آخر من فواكه الأقاليم الجنوبية، كل هذا يزين أجنّة « الصفاقسية ». لكن على نقيض هذا فإن الخضر التي لا تحظى بشغف الأهالي المسلمين لا تزرع إلا نادراً. فالبطاطس غير معروفة على كامل سواحل شمال إفريقيا ويستجلب المقيمون الأوروبيون احتياجاتهم منها من مالطا. لكن البصل والفقوس اللذين يحبّهما الأهالي بصفة ملحوظة يوجدان

بوفرة. وتزرع الحبوب بكثرة، لا سيما القمح والشعير، وكذلك الجلبان والعدس وكلاهما يفوق حجما مثيله في أوروبا، علاوة على أن العدس يكون أكثر حمرة من نظيره الأوروبي. تربية الماشية طيبة على الاجمال ولكنها دون ما هي عليه في أوروبا. وهناك فيض كبير من الغنم، الطويل الذيل منها والعادية. وتتوفر كذلك الخيول والابل والبغال بكثرة. وهناك أيضا فيض من طرائد القنص على مختلف أنواعها ولكن لا أثر للسياح الضارية. ولكن ما زال هناك، حسب ما شاع بعض الشيء منها في داخل البلاد فإنها لم تعد بالوفرة التي كانت عليها في عهد الرومان. وبما أنه ليس هناك ما يحد من حرية الصيد فإن ممارسته من أهم ما يتعاطى أروبيو المكان للترفيه عن النفس. وكثيرا ما تراهم يغنيون عن ديارهم أسابيع فيصطادون ويعودون بصيد وافر. ثم ان « الصفاقسية » لمن كبار محبي السمك. وهناك منه، والحق يقال، كميات هائلة ثم ان صيده يسير لا يتطلب عناء كبيرا، وذلك بأن تقام الحواجز المجدولة بعيدا داخل البحر وتنصب في طرفها الشراك وإذا حصلت الأسماك في حيز هذه الحواجز فإنها تصبو الى الخلاص فتواصل السباحة قدما حتى تقع في الشراك الذي يمتلىء عادة مرتين في اليوم.

ويقام حاليا موسم الحصاد، مع العلم أن القمح والشعير ينضجان في آن واحد. ويأتي كل واحد من أهل المكان بحزم حصاده أمام باب المدينة، حيث توجد ساحة رحبة تخصص لهذا الغرض، ويختار لنفسه موقعا يكسب فيه حزمه شيئا فشيئا كلما جلب منها قسطا من الحقل وعندما يتم هذا وينتهي من جلب الحزم وترصيفها يحضر « قايد » المدينة ويقدر كل كدس قائلا : « هذا يعطي مائة كيلة وهذا خمسمائة » وهكذا دواليك. ولا يحق لأحد الطعن في هذا التقدير. والأمر متعلق بالعشر الذي يحق لسيّد البلاد. وفي الحين يشرع كل مواطن في الدّراس باستعمال آلة الدّراس المألوفة لدى القدامى. وهي بالنسبة الى الشعير عربة وطبقة لها أربع اسطوانات لكل منها ما بين ستة وثمانية أقراس من حديد. وتربط هذه العربة بالدواب ويأخذ السائق مكانه فوقها. وقبل ذلك تنشر حزم السنابل في نسق دائري فتأخذ عربة الدّراس في الدوران فوقها الى أن تهشم وتداس وتغدو إربا. وفيما يتعلق بالقمح

تستعمل خشبة سمكة لها حوالي أربعة أقدام طولاً وقدمان عرضاً، اثبتت في صفحتها قطع من حديد وحجر الصّوان. وتربط هذه الخشبة الى الثور أو الحمار ويقف السائق فوقها ويشرع في الدوران الى أن يتفتت كل ما هنالك. وفي وقت وجيز يدرس بهذه الكيفية حصاد كثير. ولفصل الحبّ عن التبن يعكف بعض الرجال على ذرو الخليط بواسطة مذار كبيرة فتحمل الريح التبن جانبا ويسقط الحب الى أسفل. وفيما بعد تملأ الحبوب في أكياس وتشحن فوق ظهور الجمال وتنقل الى مخزن الحبوب الذي يكون عادة مطمورا تحت الأرض. ويجمع كذلك التبن المهشم اربا صغيرة بعناء ويحمله الجمل وهو الحيوان المفيد الى مكان حفظه. وبهذه الصفة ينتهي في ظرف عشرة أيام كامل موسم الحصاد والدّراس. وقد اتضحت لي جلياً، وأنا أشاهد هذا النشاط، الاصحاحات التالية من الكتاب المقدس : 1 : 3 وميخائيل 4 : 13 وهوسايا 10 : 11 الخ. ولما أخبرت العملة بالطريقة المستعملة في أوروبا لدّراس الحبوب استغربوا كثيرا وقالوا : لا بد أن الأروبيين لا يزرعون الا ما قل من الحبوب ما داموا يتوخّون طريقة عسيرة في الدّراس. يوجد من اليهود في صفاقس نحو مائتي أسرة تجمع حوالي ألفي نسمة .

وهم يسكنون ربضا مستقلا بذاته ينفصل عن المدينة نفسها بسوره ذي الأبواب. وهم يشتغلون على غرار غيرهم من يهود سواحل شمالي افريقيا بالصناعة والتجارة. وبرسمهم بيعتان كبيرتان لإقامة الصلاة وتعليم الأطفال ودراسة التلمود. ولم ألاق هنا من اليهود الأثرياء الا عددا قليلا فمعظمهم لا يكسب من الرزق الا ما يفي بالحاجة ويسد الرمق. ونتيجة للحرب الأهلية الناشئة في طرابلس منذ ما يزيد على ثلاث سنين، فرت الى هنا ما لا يقل عن ثمانين أسرة يهودية. وتؤدي المجموعة اليهودية الى سيّد القطر ضريبة سنوية لا تتجاوز ثمانين ريالا. ومن غريب الأمور أن يهود الدول الثلاث، تونس وطرابلس والجزائر، يختلفون بصفة متميزة من حيث غطاء الرأس. فأما يهودي الجزائر فانه يلفّ لحافا من الحرير الأسود حول جبينه ويحمل يهودي تونس عمامة سوداء، في حين يتعمم يهودي طرابلس بعمامة من منسوج الحرير الملون. وتحمل نساء يهودي طرابلس الأصلين حول العجين عصا

تندلّي منها قطع من الذهب يرتبط عددها وحجمها بشرة الزوج، وكثيرا ما تحمل المرأة بهذه الصفة على جبينها مجمل ثروة زوجها.

ولم يكن هناك نصارى قبل مضي عشر سنوات وكانت أول عائلة مسيحية استقرت هنا في صفاقس عائلة العون القنصلي الفرنسي والتحقّت بها بعد فترة وجيزة عائلة [نائب] القنصل السرديني كما أنه يوجد منذ أربعة أعوام [نائب] قنصل أنكليزي. وفي نفس الفترة تقريبا قدم بضعة تجار مسيحيين. وعندما اندلعت الثورة في طرابلس التجأت الى هنا أيضا عدة عائلات، لا شك أنها ستستقر على الدوام. الآ انه يوجد عدد غفير من المالطين الذين ينتشرون في كل مكان انتشار الأعشاب الطفيلية ويجلبون معهم العار والفضيحة لاسم المسيح. ويتعيّن على كل النصارى السكّن في حيّ اليهود ولكن سمح للعون الأنكليزي بالسكّن داخل أسوار المدينة نفسها فما ذلك إلا من باب التبجيل وبصفة استثنائية. وقد تمكن الأوروبيون المقيمون هنا من الاثراء في ظرف فترة وجيزة. وأعرف منهم من حلّ بالمكان قبل أربعة أعوام دون أدنى ريال في جيبه، وها هم الآن بوسعهم أن يستقروا للعيش في أية مدينة أروبية بما توفر لديهم من رؤوس أموال. وعلى كل حال أبدى مسيحيو المكان اهتماما بالغا بمهمّتي التبشيرية وآزروني على جميع المستويات بالرغم من انتمائهم كلهم، عدا واحد فقط، الى الكنيسة الكاثوليكية. وقد رحبوا بأسفار الانجيل بكل شغف.

ويعتبر مسلمو صفاقس أهل علم وأصحاب معرفة وقد أجريت مع العديد منهم نقاشات. كما أنهم تحصلوا من لدني على نصيب لا يستهان به من الكتب المكتوبة بالعربية. الآ أنني لم ألمس من علمهم الواسع الآ شيئا قليلا. فقد قال لي أحد علمائهم وهو يعد من المتبحرين في العلم، لمّا تحاورنا في علوم الفلك : « هناك سبع سماوات بعضها فوق بعض ولكل سماء شمسها وهذه الشمس هي التي يحسبها المسيحيون خطأ الأفلاك السبعة. ويتبوأ السماء السابعة كرسي الله وفوق الكرسي يوجد السرير [كذا] ». وقد أضاف الرأي الأخير تعقيبا على قلبي بأنّه يوجد أحد عشر كوكبا.

أخذت درجة الحرارة ترتفع يوما بعد يوم وقيل لي انها سوف تشتدّ حدّتها كلّما توغّلت نحو الشرق. وقد بلغت الحرارة اليوم 28 درجة حسب مقياس « رومير ». لكن حذو البحر يكتسي المناخ بعض الاعتدال. وأخطر من الحرّ وأشد منه تلك العقارب التي تتخذ من هذه البقاع موطنها الحقيقي. فبالأمس بينما كان صبيّ يلعب في التراب ببستان قريب اذ بعقرب تلدغه وما هي الآ ساعات حتى وافاه الأجل. وتبلغ خطورة العقارب ذروتها في شهري جويلية وأوت. غير أنها لا تؤذي النائم طالما ظلّ جامدا وأمسك عن الحركة، واذا تحرك فانها تلسعه. وأفضل وسائل العلاج في هذه الحالة فصد موقع الاصابة حالا بواسطة موسى الحلاقة والمواظبة على ذلك طيلة ساعات بالزيت. ويقال ان الآلام حينئذ لا تدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة ثم يزول الخطر. وأنا متيقن من أن السيد الربّ الذي اكتفني برعايته الى حد هذا المكان لن يحيل عني كفّ رحمته فنحن حيثما كنا، في افريقيا أو في أوروبا على حد سواء، نظل دوما في كنف رحمته !

قابس في 20 جويلية 1835

بين صفاقس وإقليم قابس الذي يشتمل على ثلاثة وثلاثين قرية مسافة تناهز بحرا مائة ميل. ونظرا الى خطورة الطريق البري، لأن بدوه نصف متوحشين يسيطرون على المسالك ويجعلونها غير آمنة، ونظرا الى قلة حركة السفن، فقد اكرت مركبا يملكه ويقوده مالطي. واتفقنا على أن ينقلني هو ورجاله الثلاثة الى اقليم قابس. وفي مساء الأحد، الثاني عشر من الشهر الجاري، هبت ريح ملائمة أبي الربان إلا أن يستغلها فأشار بالرحيل فامتطيت باسم الذي يحكم الأمواج ظهر المركب الضيق. ونشر الشراع وما هي إلا دقائق معدودة حتى تركنا صفاقس بعيدا خلفنا. وفي الحين اتباني كالمعتاد دوار البحر. وعندما حلّ الليل اتضح أن صاحبنا قائد المركب لم يسبق له بتاتا أن قام بمثل هذه الرحلة فكان يجهل الطريق تماما، ممّا حدا به الى الارساء مكانه في انتظار طلوع النهار. وساءني هذا الوضع الى أقصى حدود الاستياء لأنني توقعت أن السفرة ستكون طويلة وشاقة لا سيما وأني اتكلت على رائس غير حاذق لا عهد له البتة بالطريق المؤدية الى قابس طوال ساحل البحر، حيث بعض الصخور الناتئة والأرصعة الرملية التي يتعين تفاديها بمهارة. وما كان بيدي سوى الاستسلام الى مشيئة الرب، ما دام سلطان الكذب قد طغى بصفة خاصة على عباد هذه البقاع. فقبيل اقلاعنا من صفاقس تظاهر هذا الربان بأنه يعرف أدنى شبر من الساحل المذكور خبير معرفة ولولا ذلك لما اطمأنت اليه.

واستسلمت للأمر المقضي وصبرت الصبر كله في انتظار الصباح، ولما طلع واصلنا سفرنا. لكن ما كنا نسير نحو ساعة حتى أخذت الرياح تنفخ بشيء من العنف فادعى الرئاس الجبان أن مركبه غير قادر على مواجهة تلاطم الأمواج وعرج صوب البر وأرسي وجعل يدخن غليونه في أتم راحة بال. ومكثنا على هذا الحال حتى العشية ومع انسداد الليل أرسينا من جديد. وهكذا

لم نصل ضفاف قابس إلا في اليوم الثالث بعد أن ذقت الويل خلال هذه السفرة القصيرة المدى، من جراء دوّار البحر وبسبب حرارة الشمس اللاذعة التي يكون مفعولها على البحر الساكن أشد منه على الأرض اليابسة. ولكنني جوزيت على شقائي بأن فوجئت بمنظر واحات النخيل الفتان، التي تزين الضفاف وتترامى بعيدا داخل البلاد. وليست هذه أول مرة أشاهد فيها نخلا ولكنني لم أشاهد قبل ذلك قط غابات منه في نفس الكثرة ونفس النضارة الخلابة. ولا ينضج ثمر النخل إلا في شهر أكتوبر. وعند الظهر ولج بنا المركب نهر قابس الذي يصب في البحر. وهو ضيق قليل العمق لا تصله لأجل ذلك السفن الكبيرة، وحتى الصغيرة منها لا تتوغل فيه إلا ساعات المد. ويشكل ولوج هذا المعجى خطورة بسبب الرصيف الرملي الذي يفصل بينه وبين البحر والذي لا يبرز للعيان إلا ساعات الجزر. وكمرّة تاهت سفن في هذا الرصيف الرملي فساخت فيه. وما ان يبدأ المد حتى يشتد ارتطام الأمواج بالشاطئ فتتطلب قيادة المركب للدخول في النهر والخروج منه مهارة فائقة وعناء كبيرا وخبرة.

وبعد أن أُرست بنا السفينة نزلت ومعني نوتّي ليرافقني الى أهم قرى المكان وتدعى « المنزل » وتقع على قدر نصف ساعة من النهر المذكور. وسار بنا الطريق صاعدا صعودا هينا وبعد فترة وجيزة لاحت أمامنا قرية « المنزل » في حين بانّت يسارنا قرية أخرى تسمى « جارة ». ومنطقة قابس بأسرها منطقة جبلية وتعتبر قرية « المنزل » أهم قراها ومركزها الرئيسي ومن ثمّ حرصت قبل مجيئي على التزود برسائل توصية تفيدني في هذا المكان حيث لم يكن يقيم أي مسيحي. فمن أربعة أعوام فقط كان يعدّ من باب التهور أن يحل هنا نصراني دون حراسة هامة. بيد أن المالطيين تطرّقوا الى هذه الجهة كغيرها أيضا. وصاروا يقبلون من حين الى حين لتعاطي التجارة. وفي هذه الفترة بالذات يوجد هنا رجل مالطي غريب الأطوار يدعى السيد « ف... »، استقر منذ أربعة أشهر، وإليه جئت بخطابات توصية. كانت الشمس فوقنا ترسل أحرّ وهجها وقبل أن أبلغ مأربي كنت أتصيّب عرقا

وثيابي مبتلة وكأنها غمست في الماء. وعلى هذه الحال أدركت قرية «المنزل» وفي الحين سألت عن السيد «ف...» فافتادني بعضهم اليه فاذا به رويجل صغير البنية في الخمسين من عمره تقريبا يتحلى بشنب طويل ولحية وعلى أنفه نظارة، يرتدي ثيابا جمعت بين الافرنجي والتركي. وكان جالسا تحت سقيفة أمام الدار، منهمكا في المطالعة. انه السيد «ف...». وناولته الخطابات الموجهة اليه فقرأها وأعرب عن ترحيبه بي ثم قال لي : « سيدتي، اننا نعيش هنا عيشة الفلاسفة⁽¹⁷⁾، فاذا تجاوبتم مع فلسفتي فانكم تحلون عندي حلول الضيف المبجل المكرم. اجلسوا هنا حتى آمر بتهيئة غرفة لكم واثرو ذلك سأقدمكم الى عائلتي ». وفعلت ما طلب مني ونادى السيد «ف...»: «اسكندر ! فظهر صبي مولد همس السيد. «ف...» في اذنه كلمات وصرفه. عند ذلك دنا مني فيلسوفنا وجلسنا جنباً الى جنب وفي قليل من الوقت استمعت الى كامل قصة حياته، وهي التالية : بعد ولادته في مالطا، تربى السيد «ف...» تربية لائقة وفي سن الثامنة عشرة أصبح كاتباً مساعداً في الجيش واحتفظ بهذا المنصب طيلة اثنتي عشرة سنة، أقبل عقبها ولم أخبر لأي سبب. ثم سافر عبر كامل أوروبا حتى وصل القسطنطينية ومنها تحول الى حلب فبغداد ثم الاسكندرية بمصر حيث استقر في آخر المطاف. وهناك جمع في غضون اثنتي عشرة سنة بفضل مضاربات تجارية مريحة ثروة لا بأس بها فذهب بها الى طرابلس حيث أقدم على مضاربة غير صائبة أفقدته ثروته ولما اندلعت الثورة هاجر صحبة عدة مسيحيين آخرين الى صفاقس حيث دهاه سوء الطالع فأصيب بكسر في رجله. عندئذ شعر بالملل من كثرة الترحال وحن الى الاستقرار في ركن من أركان المعمورة، يقضي فيه على غرار الفلاسفة ما تبقى له من العمر. ونصح به بعضهم بقابس فعمل بالنصيحة. وحتى لا يظل عاطلاً اعتزم امتحان الطب وأحسن المهنة الى حد أن العرب صاروا يفلدون عليه جموعاً للمداواة. ويبدو أنه لم يمض بعد أي مريض من مرضاه على يديه.

(17) عبارة واردة باللغة الفرنسية .

وعاد الصبي المولّد وقال ان كل شيء على أحسن ما يرام. فنهض السيد «ف...» ورجاني أن أتبعه. وفتح الباب المؤدي الى فناء الدار ومشينا الى أن أشار السيد «ف...» بالأصبع الى غرفة حالكة الظلام لا نوافذ لها ولا باب يغلق وليس لها شيء عدا جدرانها الأربعة، فكانت تلك هي غرفتي. «على نحو الفلاسفة، يا سيدي، على نحو الفلاسفة كما ترون». هكذا قال السيد «ف...» ثم أضاف قائلاً : «تعالوا الآن لرؤية أسرتي». وسرت وراءه وهو يعرج، ثم قال : «أترون هذه العنزة؟ انها هدية من أحد العرب شفيتها من داء السل. انها تزودني بلبن القهوة. وتلك الشاة هناك؟ انها هدية من امرأة اعترافاً منها بالجميل بعد أن أنقذتها من الموت. وما قولكم في هذين الخنزيرين البريين الصغيرين؟ لقد جيء لي بهما من الجبل كعربون شكر على براعة طيبة فائقة حققتها. وتلك الدجاجات الرائعة؟ انها ثمن خدمات قدّمتها، مثلها مثل تلك الحمامات. آه! لا بد أن تروا عضواً مفضلاً آخر من أعضاء أسرتي، أعني غرابي. يا له من حيوان مسكين! لقد دهاه ما دهاني من مكروه فأصيب بكسر في ساقه. إلّا أنني عالجنه خير علاج. لكن مع الأسف ها نحن كلانا نعرج كما ترون. هذه هي، سيدي، أسرتي التي أعيش معها باستمرار في هناء وسلام. لكن لا أحد يسبب لي تعباً مثل اسكندر الذي هو ابني من امرأة زنجية».

وعند هذا الحدّ أنهى السيد «ف...» قصة عائلته. وتركني بعد ذلك أهلاً على أرجاء المنزل. ولم يسبق لي أن رأيت مزيجاً عجيباً من دلائل البؤس والفاقة المدقعة ومن مظاهر الثراء البائد كالذي تجلّى لي في هذا المنزل. هنا فرشت بقايا زربية من أثنى الزرابي الفارسية، بجانب كرسي مهشّم عديم المسند. علق هناك على الحائط القدر شيء كان في سالف الأيام امرأة ذات اطار مذهّب. ولا بد اليوم من خيال واسع لادراك هذه الوظيفة الفاتنة. وثمة صحون وقوارير وكؤوس وغير ذلك، اختلطت كلها ببعضها ببعض بصفة عشوائية. وبعد ذلك أرسلت في طلب أمتعتي من السفينة وربّبت شؤوني كما سمحت به الحال.

ولما علم «شيخ» المكان بقدومي أرسل في الحين طبقا من «الكسكسي» معلنا أنه سيلحق ليشاركنا الأكل. وبالفعل أقبل بعد هنيهة وجلسنا حول مائدة الطعام. غير أن «الشيخ» طفق يأكل على عادة أهل البلاد بالأصابع ويصول ويجول بيده في كامل الطبق فلم ألبث أن أحجمت عن الأكل. وبعد الغذاء خرجت للفرجة على المكان. ويبلغ عدد سكان «المنزل» من العرب نحو خمسة آلاف ساكن. إلا أن ما يكتنف هذا الموقع من قاذورات وحشرات ضارة ووسخ يتحدى كل التصورات. ولا يعتبر هؤلاء السكان، كغيرهم من أهالي منطقة قابس عموما، من المسلمين الحضّر بل من الأعراب ولو أنهم لا يسكنون الخيام بل ضربا من الديار، هي أقرب إلى أفنية، ويقال لها «حوش» والفناء منها عبارة عن ساحة يحيط بها جدار ولها باب. وفي هذا الفضاء توجد الخيول والجمال والبقر والمعز والطيور الخ. وفي ركن من أركانه يوضع السرير تحت سقف من سعف النخل تسترته الستائر. وفي ركن آخر يوجد المطبخ، وفي موضع آخر غرفتان أو ثلاث غرف من طين وحجارة، عديمة النوافذ.

ويمتاز رجال قابس بحسن المظهر والقّد المشوق والأعين السود والبنية القوية والهيئة المهيبة. وهم فرسان مهرة ورماة بارعون، شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب الجبلية لكنهم كسالي يستكفون من العمل. وتقوم النساء بجميع شؤون المنزل وأعمال الحقل، ما عدا الحرث. ويظهر النساء هنا دون لحاف ويبدن ولعا بالغا بالحلي فتراهن يتحلّين بأقراط مفرطة في كبر الحجم وبأطواق للرقبة والجبين وبأسورة وخلخيل مصنوعة من ذهب أو فضة أو نحاس. ويتوازي لباس الفقيرات منهن والغنيات من حيث الطراز والهيئة. وهو يمثل في ثوب من القطن يصل إلى الكعبين، ينحسر في مستوى الخاصرتين ثم يتجزأ من هذا المستوى فصاعدا إلى جزئين أحدهما يستر الصدر والآخر الظهر ويقفل عند الرقبة بواسطة إبريم من فضة وهكذا يظل جانبها الجسم دوما عارين. ثم انهن يوشمن وجوههن لا سيما من الذقن إلى الشفتين.

إن كميات الأحجار الضخمة المنحوتة والأعمدة المرمرية الموجودة قرب «المنزل» لدليل قاطع على أنه كانت هناك في الجوار مدينة كبيرة قائمة الذات. إلا أنني لم أتمكن من العثور على أية كتابة حجرية. ومن المحتمل أن المستعمرة الرومانية العتيقة كانت تبعد عن هذا المكان مسافة نصف ساعة. كما أنني اكتشفت ثلاثة صهاريج أحدها في حالة جيدة من الصيانة والحفظ. ويتداول العرب خرافات كثيرة في شأن عظمة هذه المدينة البائدة. وحسب رواياتهم فإنها كانت تشتمل على خمسين ساحة سوق تجمع كل واحدة منهما خمسمائة دكان. ويوجد اليوم قرب هذه الآثار قرية صغيرة تدعى «سيدي [أبو] لبابة»، يحجر دخولها على اليهود والنصارى على حدّ سواء ذلك لأنها تؤوي رفات ولي صالح عظيم الشأن، يزعم أنه كان حلاق [الرسول] محمد الخاص. ومن المحتمل أن تربة هذه الناحية خصبة، إلا أن الأهالي الكسالي لا يوفون الغرس حقه، لذا تكاد مواد المعيشة تكون منعدمة، خصوصا بالنسبة للأي الأروبي الذي يتضايق كثيرا أن أبي أن يحذو حذو العرب فيقتنع بالخبز والزيت. ومن جهة أخرى فإن واحات النخل على غاية من الفتنة والجمال وكم من مرة خيل إلي وأنا أتجول وسطها أنني في حلم أو عرضة للأوهام.

إن العربي أصيل المكان يقضي طوال النهار في الظل يستمتع بالراحة أو مستسلما للنوم. ولئن توفرت لدى الحضّر من المسلمين امكانيات تقصير الوقت كالتدخين ولعب «الدامة» وما شابه ذلك والجلوس في المقاهي أو دكاكين الحلاقين للثرثرة أو الذهاب إلى الحمامات، فإن الأعرابي لا يعرف من كل ذلك شيئا. وهو لا ينتزع من راحته إلا إذا أعلن عن حالة حرب أو إذا انتظمت عملية سلب ونهب. حينذاك تراه يسارع بتجهيز حصانه وتقلّد سلاحه وفي لحظة يكون على أتم الاستعداد لخوض غمار المعركة وعندها يشعر الأعرابي بأنه قد ردّ إلى عنصره وإلى بيئته الحقيقية. وليست مثل هذه المناسبات بالقليلة لأن مختلف قبائل الجهة تكاد تكون في حرب مستمرة مع بعضها. ولئن توقفت حرب القبائل فليس من النادر أن ينشب العراك بين القرية والأخرى. وفي الوقت الراهن بالذات، وأنا مقيم بالمكان، فإن المعركة

قابس في 26 جويلية 1835

إن هواء هذا المكان غير صحي بتاتا والماء فيه رديء للغاية . ونظرا لعدم وجود منازل بأتم معنى الكلمة فإنه لا وجود كذلك لصهاريج المياه. وتقع البئر الوحيدة على بعد نصف ميل من قرية «المنزل» لكن ماءها ساخن. وفي الصباح والعشية تقصدها النساء والصبايا اليهوديات والعرييات على السواء لجلب الماء وعليهن كامل حليهن. وللموسرات منهن حمير لحمل القلل. ويتعين ترك هذا الماء بضع ساعات حتى يبرد ويصير قابلا للشرب وحتى ذلك الحين فهو يكاد يكون غير مستساغ بالنسبة الى من لم يألفه. إلا أن المرء يجد في رحيق الثَّخُل أو «اللاقي» خير بديل. وللحصول عليه تحدث في أعلى الشجرة حَزَّة يشد من تحتها اناء ينسكب فيه الرحيق. ويكون هذا الرحيق فور انزاله من أعلى النخلة في الصباح قبيل الشروق أو في المساء بعد الغروب شرابا لذيذا منعشا، فيه فضلا عن ذلك، للصحة نفع كبير. لكن يكفي أن يترك بضع ساعات حتى يصير مَرًا لحد أني لم أستسغه. بيد أن العرب يفضلون «اللاقي» بهذه الصفة لأنه يسكرهم.

وفي «جارة» التي تفصلها عن «المنزل» مسافة نصف ميل يقيم «الخليفة» أو ولي أمر اقليم قابس. وقد تحولت إلى هذا المكان رفقة السيد الحكيم والفيلسوف «ف...» على ظهر حمار. وفي منتصف المسافة يوجد ما شابه الحصن، يؤوي حامية من الجند الأتراك، وقد أقيم بغية الحد من الحروب الدامية بين القريتين، لكن قلما يتحقق هذا المرام. واستقبلني «الخليفة»، سيدي عمر في فناء محكمته بالحفاوة والترحاب وحباني برعايته وأهداني بطيخة وشيئا من البصل من حديقته فتقبلتها بالشكر. وبناء على رغبتني في الفرجة على القرية وتحسبا لما قد ينجر عن ذلك من خطر ان تجرأت على التجوال بمفردي عيّن لي «الخليفة» بضعة من رجاله لمرافقتي. ولكن هذا لم يمنع من أن يتبعني قذيع من العرب أخذوا يدقّون في النظر لإشباع فضولهم من

قائمة بين «المنزل» و«جارة». ذلك أن «جارة» أجرت قناة ماء جديدة فعمدت قرية «المنزل» الى صدّها وفي الحين التجأ القوم الى السلاح. وفي إحدى الليالي قامت «جارة» بغارة على «المنزل» فسالت الدماء وانسحب المهاجمون ومنذ ذلك الحين خمدت المعركة ولا أحد يدري كم ستلوم الهدنة (18).

تعيش بين السكان العرب مائة وخمسون أسرة من اليهود، يعانون فقرا مدقعا ويتعاطون شتى الصناعات. وهنا رأيت لأول مرة حدّادا يهوديا. وترتدي نساء اليهود ما ترتديه نساء العرب، إلا أنهن لا يوشمن وجوههن. وأديت الزيارة للحبرين وأجريت معهما حديثا مباركا. ولم أجلب معي سوى ستين نسخة من الانجيل وبالتالي لم تلبّ كسل الطلبات. ولم يسبق لهؤلاء المساكين أن سمعوا شيئا عن دين المسيح وتقبّل كثيرهم «العهد الجديد» بالشكر والترحاب. وكان لي مع العرب أيضا حديث حول الحقيقة التي في يسوع المسيح ووزعت نسخا من الانجيل العربية القليلة التي جئت بها ولم أستبق منها شيئا.

(18) يروي الرحالة الألماني هاينريش بارت الذي زار قابس في مارس 1846 أحداثا من هذا القبيل (انظر : « سبع رسائل مخطوطة لـ هاينريش بارت » ، قرطاج (بيت الحكمة) 1987 ، ص 51 وما تلاها) .

النصراني. وتقيم في هذا المكان أربعون أسرة من اليهود لا يفلون عن يهود «المنزل» فقرا. وما زالت توجد هنا أيضا عدة أعمدة مرمرية وكثير من الأحجار المنحوتة الكبيرة، كلها من مخلفات المدينة العتيقة. وبعد أن اطلعت على الموقع ودّعت «الخليفة» الذي أمعن في الاحسان اليّ وأبى إلا أن يأمر بمرافقتي إلى «المنزل»، علما بأن السيد «ف...» لم يلبث أن عاد أدراجه على حماره فور وصولنا. وما إن عدت إلى محل سكناي حتى بعث «شيخ» قرية «المنزل»، وقد بلغه ما حظيت به من حسن استقبال من قبل الخليفة، في طلبي، راجيا مني القدوم إلى بيته ليكرمني بكأس «لاقيمي». وذهبت إليه فوجدت امرأته أيضا بصحبته. وكانت ترفل في لباس فاخر رفيع الذوق. ولئن لم يختلف رداؤها عن رداء عامة النساء من حيث الطراز فانه امتاز بقماشه الثمين الموشى بالذهب. وازدان رأسها بعمامة سوداء وجبينها بشريط تحلى بأربعة صفوف من قطع الذهب والجوهر. أما المرأة نفسها فلو كانت في أوروبا لعدت من الحسنات. وبعد أن شربت «اللاقيمي» وتجاوزنا أطراف الحديث، فكر «الشيخ» على عادة العرب أمثاله، في أنه من حقّه أن يطالب بهدية جزاء كرمه. وأبدى أولا اعجابا مفرطا بساعتي ثم أشاد بمسدسي وأخيرا شدّ سيفي كل انتباهه. بيد أنني تجاهلت خفايا مديحه ولم أبال برغبته.

قضيت أيامي بـ «المنزل» في هناء نسبي لكن ليالي كانت فظيعة. فما ان اسلقت على حشيتي أول ليلة حتى انقضّ عليّ جيش من الحشرات واحتفى بقدمي بأشنع الصفات. وبما أنني تعهدت بأن انتهج هنا منهج الفلاسفة فقد خطر لي أن أمارس استعداداتي الفلسفية وقلت في نفسي : «لعلني أستطيع أن آلف هذه الحشرات، فلأتركها تفعل ما تشاء». ولكن فلسفتي لم تصمد طويلا. فبحث عن كرسي نصبت أمام الباب وجلست فوقه، وفي هذه الوضعية قضيت ثلاث ليالي بأسرها في حالة يرثى لها، وفرحت بالخلاص لما حان موعد رحيلي. وشكرت السيد «ف...» على مروءته وتوجهت صوب مركب صغير على ملك مالطي، كان في انتظاري منذ أربعة أيام. ومكثنا طوال الليل على متن القارب في النهر نترقب النهار والجزر [كذا] معه. ولكنني في الأثناء التقطت بعض التصريحات الصادرة عن قائد المركب ورجاله أدخلت في

الشكوك في شأنهم وأفقدتني الثقة في هؤلاء الخبثاء. ولحسن الحظ كانت أربعة مراكب أخرى على ملك مسلمين راسية في النهر. وما إن طلع النهار حتى تركت سفيتي الأولى واتفقت مع صاحب سفينة مسلم على أن يأخذني إلى جربة. عند ذلك كلفت بعضهم بإنزال أمتعتي ودفعت للمالطي أجره وعدت إلى «المنزل» وإلى مقامي الفلسفي، بينما مكث خادمي بجنب متاعي. وفي المساء عدت إلى خادمي وكلفت رجلا بشحن أمتعتي فوق السفينة ثم ركبنا بدورنا. وافترشت بساطي على ظهر السفينة ونمت على بركة الرب. واستفقت بعد بضع ساعات فاذا بالسماء تتلأأ نجومها في روعة وبهاء. ونهضت لأمتع النظر بعظمة الإله المتجلية في قبة السماء ثم عدت إلى مكاني فما راعني إلا والبساط قد سرق. وكنت مقتنعا من براءة طاقم السفينة ومتيقنا من أن اللص لم يكن غير حارس من حراس الشاطئ، له كوخ على مقربة من مرسانا، ناهيك وأنا اكتشفنا آثار خطوات السارق واقتفيها حتى هذا الكوخ.

وقامت ريح معاكسة واستعصت علينا مبارحة النهر فما كان عليّ إلا أن عدت أدراجي بمتاعي إلى صاحبي الفليسوف وفي نيتي السفر إلى جربة عن طريق البر. ولما وصلت استشرت «الشيخ» في ذلك لكنه أكد لي أن السفر من هنا إلى جربة برا خطير جدا وحتى طاقم حراسة بأربعين رجلا غير كاف لوقايتي من أخطاره. وصرت في حيرة كبيرة لأنني كنت أرنو بكل جوارحي إلى مغادرة هذا المكان المنكر عندي المضّر بصحتي ولكن ما كان بيدي سوى الصبر والتريث. وكان قائد إحدى قبائل العرب وصل بالأمس إلى هنا صحبة خمسة عشر من رجاله قادمين من تونس فعرض عليّ ايصالني سالما إلى جربة. لكن قبل أن أطمئن إلى هذا الشخص فضلت أن أستمع إلى رأي «خليفة» «جاره». وقصده وشكوت إليه حيرتي، كما أخبرته بسرقة بساطي فرد عليّ بما يلي :

«أما فيما يتعلق بسفرك فأقول لك انه لا يمكنك الذهاب إلى جربة عن طريق البر. فالعرب الذين عرضوا عليك ايصالك سالما سيكونون أول من

يقتلك ان أنت استثقتهم. فليكن في علمك أن هؤلاء الناس لا يتورعون عن قتل نفس بشرية من أجل بصلة لا غير. لذا ترقب في صبر حتى ينعكس اتجاه الريح ثم سافر في البحر في رعاية الله. أما فيما يتعلق ببساطك فلنعالج الأمر حالا. وعلى هذا أرسل في طلب رئيس حراس الشاطئ ثم أضاف قائلاً : «خذ لك مكانا بجانبني وانتظر حتى يأتي المعني». وما إن جلست حتى أعلن عن عدة مداولات قضائية وشرع النظر فيها.

كان «الخليفة» جالسا على عرش مرتفع في بهو كبير وكان كاتبه الأول والأخير يهوديا، رأيته يتدخل في جميع القضايا المطروحة وكان «الخليفة» يستشير. وامتدت على طول بهو المحكمة يمينا ويسارا مصطبتان بنيتا من حجر، جلس عليهما أحباب «الخليفة» ومعارفه بالاضافة الى مواطني المكان الذين أحبوا متابعة المداولات، مع العلم أنه يحجر على أي كان دخول المحكمة بسلاح. وكان أعوان «الخليفة» — وهم كذلك بدون سلاح — في حركة متواصلة لتنفيذ أوامر سيدهم. ويدخل الشاكي البهو ويجثو على ركبتيه على بعد ثلاث أو أربع خطوات من العرش ويسط في هذه الوضعية أمره. وتكون ديباجة الشكاية دوما كالتالي :

«الله يحفظك أيها الخليفة ويبارك رأسك ورأس أبنائك ويضيف الى ما كتب لك من العمر ثلاثين سنة أخرى ويحيطك برحمته». ويجب «الخليفة» : بارك الله فيك. ما حاجتك؟.

— لقد سرق لي جمل في المرعى.

— متى؟

— عشية أمس، فعندما أردت العودة به وجدته قد اختفى.

— هل كان جملك يرعى بمفرده أم كانت معه جمال أخرى؟

— كانت جمال علي بن أحمد وجمال مصطفى بن حسن في نفس المكان.

— ولم يفتقد أحدهما جماله؟

— نعم، كلاهما جماله في الدار.

وهنا نادى «الخليفة» :

— حمودة! يا حمودة! اذهب بسرعة واتني بعلي بن أحمد ومصطفى بن حسن.

ونفذ الأمر وما هي إلا هنيهة حتى دخلا واعتلى «الخليفة» قليلا وقال : «انكما سرقتما جمل مسعود فاتيا به في الحال وان لم يتم ذلك في غضون ساعتين من الزمن فاني أحكم عليكما بالجلد خمسمائة على باطن القدم. وفي انتظار ذلك ليلق بهذين الوغدين في السجن». وفي الحين اقتيدا الى السجن. ولم يمض زمن طويل حتى دخل شخص وقال انه تم العثور على الجمل المفقود وانه في انتظار صاحبه في منزل علي بن أحمد. ومباشرة اثر ذلك وقع النظر في القضية التالية :

تسلم جمالان من أحد تجار «المنزل» بضاعة لنقلها الى «الجريد» وأعطيا أجرهما وقدره 130 ريالاً ابان شحن البضاعة. هذا ما قاله التاجر. أما الجمالان فقد ادعيا أنهما لم يحصلوا إلا على نصف الأجر، إلا أنه لم يكن هناك أي شاهد. وأطلع التاجر «الخليفة» على دفتره حيث سجل القيمة المذكورة. وأحدث الطرفان ضجة عارمة بينما تقيد «الخليفة» بوقار يحسده عليه رئيس غرفة «اللوردات» الانكليزية. ولما كف الطرفان عن الصياح توجه «الخليفة» إلى أصغر الجمالين سنًا قائلاً :

«تعال اقرب!» ثم خاطب الجمال الثاني بقوله : «برأسك لا تفتح فمك حتى أسألك». وأردف وهو يخاطب أصغر الجمالين : «يا بني، أنقلت أنت وصاحبك البضاعة المذكورة الى «الجريد»؟

— نعم سيدي.

— كم كان في جيبيك من المال عندما فارقت «المنزل»؟

— ولا فلس واحد، ما عدا ما دفع لي التاجر.

— كان معك اذن نصف الأجر لصالحك؟

— نعم سيدي.

— وعند عودتكما اقتسمتما ما تبقى من النقود، وبعد خصم مصاريف السفر كم كان نصيبك الذي حصلت عليه؟

— 25 ربالا، يا سيدى.

— هكذا، 25 ربالا، حسنا، حسنا جدا.

قل لى الآن، كم استغرقت رحلتك؟

— 27 يوما، يا سيدى.

— أليس صحيحا أنك قضيت الليلة الأولى فى المكان كذا؟

— أجل.

— وكان لديك جملان وحمار أدت لصاحب الفندق مبيتها؟

— أجل، ستة «خروبات».

— وأنت بكم أكلت؟

— أكلت رغيف خبز وشيئا من الزيت وزيتونيا وذلك بأربع «خروبات».

— لكن دوابك أيضا كانت فى حاجة الى علف، فكيف حصلت عليه؟

— اشتريت بكذا تبنا وبكذا كلاً مجففاً.

— حسنا، كل هذا يساوي كذا. قل لى الآن، من المكان كذا ذهبت الى

المكان كذا، أما تناولت طعاما؟

واستعرض «الخليفة» كامل أطوار الرحلة ذهابا وإيابا وحسب كل ما

صرف من «خروبات» وإذا بالمجموع يساوي 130 ربالا. وهكذا وبدقة

رياضية اتضح أن التاجر كان على حق والجمالين على باطل وبالتالي صرفا

بتوبيخ لاذع.

وفى الأثناء وصل رئيس حراس الشاطئ وهو شيخ زنجي طيب القلب.

فقال له «الخليفة» :

— يا سليم انى أعرفك خالصا كالذهب ويمكننى أن آتمنك على كل

كنوز الدنيا ولكن ليس كل الناس مثلك. لقد سرق لهذا النصراني البارحة

بساط من السفينة. ان النصراني يقولون الحق والمسلمين لا يفعلون ذلك فى

كثير الأحيان ولو أنه كان مسلما لزعم أنه سرق له خمسمائة ربال وكان

من واجبي بوصفي «خليفة» أن أعوض له الخسارة. يا سليم، عليك الآن أن

تجتهد فى البحث عن البساط الى أن تعثر عليه وإلا فعليكم معشر الحراس أن تدفعوا ثمنه.

— الله يحفظك، الله يطيل عمرك أيها الخليفة أين لى أن أجد هذا البساط؟

والنبي لا أدري عنه شيئا! نحن مجرد حراس للشاطئ وعددنا قليل والعرب

كما تعلم لصوص كبار، ثم ان السفينة كانت قد سارت فى النهر شوطا

وابتعدت عن منطقتنا، وبالتالي أبحث أيها الخليفة أن نتحمل مسؤولية السرقة؟

— ماذا تسمون، أنتم الذين أقمتكم أكواخكم عند مصب النهر، ماذا يقال لكم؟

— حراسا.

— إذن فعليكم أن تحرسوا. وبهذا تكون قد صرحت بحكمك بنفسك. أنكم

تكافؤون بوصفكم حراسا فعليكم أن تحرسوا. هذا هو القرار، فتش عن البساط

ولا يهمني أن أعرف من استولى عليه، أطلب منك فقط أن تأتيني به.

ثم استأذنت بالانصراف وقلت للخليفة انه إذا تم العثور على البساط فى

حبذا وإلا فإني أرفض أخذ مال هؤلاء الناس المساكين.

واضطرنى الحال أن أمضي أربع ليال مضنية إضافية فى «المنزل» لأن الريح

استمرت معاكسة. وبما أنى صرت معروفا فقد قضيت أيامي بين اليهود

والمسلمين أكرز. لهم بكلمة الخلاص. وكم تمنيت أن أزور سكان المنازل

الجبلية فى الداخل، المسلمين منهم واليهود، الذين يسكنون مساكن لا فوق

الأرض بل تحتها. وحتى فى مطمطة التى تبعد من هنا مقدار يوم سفر فقط

يعيش سكان الكهوف هؤلاء. لكن من التهور أن أجراً على الذهاب إليهم.

جربة في غرة أوت 1835

أخيرا تغيرت وجهة الريح وتحولت مرة أخرى من «المنزل» إلى النهر المشؤوم. ولئن صارت الريح ملائمة فإن المد كان ينقصنا لخوض غمار البحر. فما كان علي إلا أن أخذت أهيتي مرة أخرى لقضاء ليلة بلا نوم. وجلس النوتية طوال الليل شاهرين المسدسات للحراسة ولصدّ العرب المارين بالمكان. وفي كل لحظة كنت تسمع : «منهو ؟ منهو ؟» [كذا]. وبيطء سرت ساعات الليل وبأكثر بطء دنا موعد المد. وحين أشارت الساعة أخيرا الى منتصف النهار اكتمل المد المرتجى بفارغ الصبر وعظيم الاشتياق. وجذفنا بصعوبة صوب البحر. ولا تتجاوز المسافة الفاصلة بين قابس وجربة خمسين ميلا بحريا تقطع في ثلاث أو أربع ساعات عندما تكون الرياح ملائمة. واستبشرت بوصولي الى جربة مع حلول المساء. ولكن الأقدار شاءت أن يطول امتحاني فما إن تقدمنا مدى ثلاثة أسيال حتى فوجئنا بريح معاكسة تدفعنا القهقري نحو الساحل. فتحتّم علينا الارساء وكان ذلك في ناحية تصول فيها وتجول عصابات ساطية من البدو المتوحشين وتكرّرت أهوال الليلة المنصرمة. وزاد الطين بلة أن انتابني الدوار. ثم انه لم يكن معنا ما يكفي من المؤونة فقد تعفّن اللحم الذي تزوّدت به ونفد الخبز ولم يبق لدينا، أنا وخادمي، سوى قليل من الشاي. وفي الصباح تسوّى لنا الاقلاع والابحار بعض المسافة ولكن سرعان ما هدأت الرياح وخيم سكون شامل وأضحينا عرضة للشمس التي كانت تصبّ علينا جام لهيها. ولبئنا كلنا على أشدّ لهفة نترصد شيئا من الريح وإبتهلنا الى السماء لثمنّ علينا بنفحة ريح ولو ضعيفة تكون لنا رحمة ونجدة. وانسدل الليل من جديد دون أن نكون قد تقدمنا كثيرا، وألقينا المراسي ونام من استطاع النوم. وفي الصباح الموالي قامت علينا بعض الرياح المعاكسة فصرنا نهيم ذات اليمين وذات الشمال حتى ألقينا أنفسنا في آخر المطاف بالقرب من جزيرة جربة. ولم نكن أنا

وخادمي الوحيدين في نفاد زادنا بل ان كامل طاقم السفينة وثلاثة من البدو سافروا معنا عانوا مثلنا من النقصان. إلا أن هؤلاء البشر كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف. ذلك أنهم كانوا يهيئون «الكسكسي» وطريقتهم هي التالية : تأخذ بضعة مكاييل من الشعير وتجهّز الرّحى المتكونة من حجرين وترحى الحبوب بكل جهد ثم ينقى السميد من الشوائب ويبلّ بشيء من الماء ويخلط. ثم تضاف الى هذا الخليط قطع بصل وقليل من الزيت والفلفل الأكلحل ويوضع فوق النار ويترك للطهي. ويعد هذا الصنف من الطعام أشهى لقمة في ذوق هؤلاء الناس. أما أنا فلم استسغ هذه الأكلة قط.

وشيئا فشيئا اقتربنا أخيرا من جزيرة جربة لحد أنه أصبح في متناولنا ولوج المرفأ الواقع في شرق الجزيرة. بيد أن المدينة تقع في غربها على بعد ثمانية عشر ميلا. ولاح لنا قارب فأطلقنا حناجرنا بالنداء لكي يدنو منا ولكن أصحابه ظنوا أننا قادمون من طرابلس حيث وصلت مؤخرا قوات تركية من القسطنطينية مما استوجب فرض الحجر الصحي على كل سفينة قادمة من هناك. وبالتالي واصل المركب مسيره دون أن يكثرث بأمرنا. وأصرّ البدو المرافقون لنا على النزول الى البر ورمت نفس الشيء. ودنا بنا المركب من الضفة جذفا قدر المستطاع ونزل البدو وتخططوا في الماء الضحل حتى بلغوا الشاطئ. حينذاك أوعزت إلى خادمي بالبقاء على متن السفينة ربّما أذهب الى المدينة وأعود ببعض المؤونة. وأراد الرّبان أن يصطحبني كما تطوع شيخ نوّتي أنهكه الجوع بحملي الى الشاطئ رغم ما كان عليه من الضعف. ولكنني، رغم أنني لم أذق تقريبا ما يسد الرّمق منذ أربعة أيام، تيقّنت من أن هذا الشيخ الذي رأيته على السفينة يلاقي عناء ومشقة في الوقوف على رجله غير قادر على حملي الى اليابسة. غير أنني رضخت أخيرا تحت إلحاح الرّبان واعتليت كتفيه ونزلنا الى الماء وما ان تجاوزنا نصف المسافة حتى أخذ الشيخ يتّرع ثم خرّ جاثيا على ركبتيه وهوبنا الى الماء. إلا أنني كنت قرأت لمثل هذه العاقبة حسابا فانفصلت عنه أثناء السقوط ونهضت قائما على رجلي وأدركت الشاطئ بسلام ثم لحق بي الشيخ البحار. وحمدت الرّب على النجاة وفرحت كثيرا وأنا أقف من جديد على اليابسة. وليس هذا من

جربة في 4 أوت 1835

ما ان استلقيت على دكة في بهو الفندق طلبا للراحة حتى أقبل عليّ البواب الخير وسكب عليّ رجلي ماء باردا، علما بأنني أتيت بدون جوارب ولا حذاء. وحينها أدركت لأول مرة الفضل الكبير في غسل رجلي عابر سبيل جلس للاستراحة، كما نقرأ في مواطن عديدة من الكتاب المقدس. واستسلمت للنوم. ولم أصبح إلا بعد مرور زمن طويل. وفي الحين أرسلت بعض المؤونة الى خادمي في السفينة، مشيرا اليه بالالتحاق بي صحبة أمتعتي حالما ينتعش بما يطيب له من الطعام. واثّر هذا حضر صاحب الفندق ويدعى سيدي مصطفى، وهو يتقلد خطة عون قنصلي يتعامل مع سائر القناصل المسيحيين بتونس⁽¹⁹⁾. وكنت أصطحب معي خطابات موجهة إليه فرحب بي ببشاشة وأخذني إلى حجرته حيث سلّمني مجموعة من الرسائل الموجهة إليّ.

وتقدم بنا الوقت وخادمي لم يصل بعد وأمتعتي معه فقبلت دعوة مصطفى إلى اصطحابه إلى منزله الريفى. وهنالك أحضر لي العشاء على الطريقة الأوروبية فلم أستنكر ذلك بتاتا ثم هيا لي فراشا مريحا فنمت حتى الصباح. ولما عدت الى الفندق وجدت أن غرفة قد خصّصت لي، بل قل فضاء تحيط به أربعة جدران. وكان خادمي قد وصل ومعه متاعي فاحتلت محلي ورثبت حالي كما تيسر الأمر. وكنت على درجة من الارهاق الى حدّ أني مكثت اليوم الأول عاجزا تماما عن القيام بأي شيء. وكانت ثلاث سفن يونانية راسية بالمرفأ أقبل منها الى الفندق بعض الملاحين فوزّعت عليهم عددا من أسفار « العهد الجديد » باللغة الاغريقية الحديثة. فعادوا بسرعة الى السفن

فرط ما أحرق بي من خطر بل من أجل الدوار الكريه الذي يبلوني كل مرة أشدّ بلاء، فأنا أعرف حق المعرفة أن الأرض والسماء في حكم الاله. وبعد سير نصف ساعة بلغنا بعض الدور فالتمسست جرعة ماء فكان لي ذلك على الرحب والسعة. يا لها من نشوة لذيدة منعشة! وقد اشتقت أيضا الى بعض الطعام ولكن ما كان يوجد شيء يؤكل، وأخيرا عثر لي على بيضتين. يا لها من وجبة شهية! وامتصصتهما نيتتين ثم استويت على ظهر حمار ائتمني عليه رب البيت وطويت مسافة ثمانية عشر ميلا حتى السوق الكبيرة أو مدينة جربة. وبلغت الفندق وأنا في حالة قصوى من الاعياء والارهاق والاحترق من جراء شعاع الشمس، وجسمي كله حشرات، لكنني كنت ولله الحمد في صحة وعافية. وطلبت فنجان قهوة واستلقيت في الحال حتى أستريح قليلا.

(19) هو المدعو مصطفى بن ابراهيم الذي عمل زمنا طويلا نائبا لعدة قناصل أروبيين في جزيرة جربة.

وأطلعوا رفاقهم على الكثر الذي أحرزوه فما هي إلا لحظات حتى كان طاقم السفن الثلاث — وهم من أصيلي سباتسة (Spetsa) وحيدره (Hydra) ومن جزيرة سيروس (Syros) — ملتفين حولي وكلهم يلتمس مني الانجيل. وسلمتهم ما كان معي من كتب « العهد الجديد » المكتوبة بلغتهم. ولقد روجت الى حد الساعة على سواحل شمالي إفريقيا عشرة صناديق من كتب الانجيل.

إن جربة لجزيرة لها ثمانية عشر ميلا من الطول وما يساوي ذلك من العرض وفي شرقها وغربها مرفآن. ومن الأكيد أنها كانت في سالف العهد شبه جزيرة، إذ انه لا يفصلها عن البر من الشرق سوى ربع ميل أنكليزي. ولئن جاز القول عن بشر إنهم يسكنون في أمان بين كرومهم وأشجار تينهم فذلك ينطبق تمام الانطباق على هذا الموطن وأهله. فالجزيرة قاطبة بمثابة المتزه الفسيح. وبصرف النظر عن مدينتين يهوديتين فليس بجربة مدن ولا قرى بل مجرد منازل منعزلة عن بعضها، تحيط بها أبهى الحدائق الغناء. وتغطي الزراعة كل شبر، لذا يوجد في هذه الجزيرة الفتانة كل شيء بوفرة : القمح والشعير والتخل والزيتون والكرم وشتى أشجار الشمار وأصناف الخضر. وتوجد بجوار كلا المرفأين ساحة يقام فيها السوق مرتين كل أسبوع، مما يفسر وجود بضعة ديار متجمعة بالمكانين، علاوة على عدة فنادق لإيواء المسافرين الغرباء. ويقع أكبر السوقين في الناحية الغربية وهناك حططت رحالي. وبما أنني دخلت الجزيرة من شرقها وتنقلت راكبا ظهر مطية حتى المرفأ الغربي، مخترقا إياها من طرف إلى آخر، فقد تستنى لي منذ البداية ملء النظر بجمالها والتحقق من حسننها وبهائها. وقد يبلغ عدد سكانها نحو 150.000 نسمة غير أنه لم يتيسر لي التأكد من ذلك على وجه التدقيق. ويقال ان الجزيرة تحتوى على 400 مسجد وبالاغتماد على هذا الرقم قدرت عدد السكان.

وأهل هذه الجزيرة اللطيفة من المسلمين كما هو الشأن بالنسبة الى كامل ساحل شمالي إفريقيا. وينقسم هؤلاء عادة الى « حنفية » و « مالكية ». إلا

انه اعترضتني في هذا المكان طائفة ثالثة غريبة الأطوار يقال لها « الوهاية »⁽²⁰⁾، ينتمي إليها ما يزيد عن أربعة أحماس أهل الجزيرة ويعملون بتعاليمها. ولهم لغة خاصة بهم تختلف عن العربية كل الاختلاف، لكن لها صلة باللهجات الدارجة في داخل إفريقيا وفي جبال الأطلس. ولهم مساجد خاصة بهم ومعلمون وهم يتزوجون فيما بينهم فقط [...] وينتمي الى هذا المذهب أيضا عرب كثيرون من سكان الجبال الداخلية، مما يجعلنا نرجح أن وهايي جربة أصيلو هذه المنطقة. وناهم يواجهون من قبل بقية المسلمين بشديد الكراهية ويلاقون منهم الاضطهاد هناك حيث يقل عددهم. وفي حين أن سائر المسلمين يكتفون عند أداء الصلاة بخلع النعال فقد نجد الوهابيين يخلعون السراويل أيضا ويصلون بدونها. وكل المسلمين يرفعون عند الصلاة الأيدي الى فوق ويهتفون مرتين « الله أكبر »، أما الوهابيون فإنهم يرخون الأيدي ويعيدون عبارة « الله أكبر » أربع مرات. وهم يرفضون كل مفسري القرآن ويتقيدون بحرفه فقط ويعتبرون أنفسهم « سنين » أي أصحاب العقيدة الصحيحة. [...]

ان أهالي جربة ليسوا بميسوري الحال فحسب، بل هم أثرياء، يعيشون عيشة شرقية أي رغيدة ومترفة. وتصنع في هذه الجزيرة أبهى البرانس والأحزمة والشيلان ومنتجات عديدة أخرى من نسيج الصوف، تصدر الى مصر والى سائر بلاد البربر والمغرب وغيرها. بيد أنه في الفترة الأخيرة تراجع تسويق هذه المنتجات بنسبة كبيرة، من جراء التحوير الذي أدخله السلطان الأعظم على لباس جيوشه، فقد أضحت هذه اليوم في غنى عن البرنس والحزام. لذلك نرى أصحاب المصانع في جربة يضمرون للسلطان الشر، والأفدح في هذا أنهم ذهبوا الى حد الادعاء علنا أن السلطان الحالي يهودي وليس بمسلم. ومع كل هذا فإن الصادرات من المنتجات المذكورة ما

(20) الوهبة هي فرقة من فرق الأياضية، سميت هكذا نسبة إلى مؤسسها الامام الخارجي عبد الوهاب بن رستم (مع العلم أن هناك من ينسبها إلى عبد الله بن وهب الراسبي).

زالت هامة جدًا وما فتئت تدرّ على البلاد أموالا طائلة.

تقام كل يوم اثنين وخميس من أيام الأسبوع سوق كبيرة يؤمها أصحاب المصانع بسلعهم فيبتاعها الغرباء القادمون من كل حدب وصوب ويرسلونها في الحال إلى مواطنهم. وكما هو الحال بالنسبة إلى الأماكن التي تتوفر فيها المصانع، نجد أهل جربة يتسمون بلباقة وحسن معاملة نفتقدهما في الأماكن التي تفتقر إلى مصانع، ذلك لأن توافد الغرباء ومعهم أسباب الارتزاق يفرض التحلي بهذه الخصال. ولم يسبق بتاتا أن اعترضني مسلمون ألطف من أهل جربة، ومن المستحيل أن يوجد في أي مكان آخر مسلمون يفوقونهم استقامة ودمائة أخلاق. وكنت أتيت حاملا خطاب توصية إلى أحد المسلمين من أعيان المكان يقطن في ضيعة تبعد عن السوق مسافة تسعة أميال. وما إن علم بقدمي، وكنت قد أرسلت إليه الخطاب، حتى سارع بإرسال أحد أبنائه ليستضيفني. وتم الاتفاق على يوم يرسل فيه إلي بغلا يزينه سرج فاخر. ووجهت الدعوة أيضا إلى مصطفى، مضيفي، وبعض وجهاء الجهة.

وكان صباح جميل ذلك الذي ركبنا فيه إلى «الحاج يونس»، كما يدعى المسلم المذكور (21). واستقبلت في ردهة الاستقبال في «السقيفة» وقد ازدانت بالطنافس المليحة والزراي الوثيرة. وبعد أن أخذنا نصيبا من الراحة وزّعت لنا المرطبات. ثم أقبل اثنان من أبناء الدار لتحيّتي، لكنهما مكثا في حضرة أبيهما واقفين على مقربة منا، إذ لا يجوز للأبناء الجلوس في حضور الوالد. وبعد هنية انصرف كل الحاضرين حتى يتسنى لي الحديث في كامل الحرية مع الحاج يونس، الذي بلغ الثمانين من عمره. وكان في ذلك التصرف لياقة فهمتها حقّ الفهم. وعلمت من هذا الشيخ أنه زار العديد من بلاطات أوروبا وأنه كلّف مرّة بمهمة إلى القسطنطينية وكان يتكلّم اللهجة الافرنجية (Lingua franca) ويخاطبني بأسلوب فيه من البشاشة والوقار ما يليق بأي رجل

(21) لا شك أنه ابن الحاج يونس بن يونس الذي علا شأنه في عهد حمودة باشا وبلي في عهد محمود باي فسجن بمعية ابنه هذا إلى أن أفرج عنهما حسين باي سنة 1824 .

دولة أروبي. وكان يملك في ماضي الأيام ثروة عظيمة تفدّر بخمسين مليون ريال، إلا أن الحكومة عرفت كيف تستحوذ على نصيب منها، ومع هذا فهو أغنى رجل في الجزيرة. وبعد أن تحادثنا طيلة نصف ساعة، انسحب الشيخ المسنّ تاركا لابنيه المجال لمحاورة النصراني. وبعد هنية غادرنا «السقيفة» وتحولنا إلى قاعة فخمة مزدانة على النمط الشرقي، تعج بأطيب الروائح. وهنا جلسنا على أرائك ثمينة، في حين انتصب ثلاثة زنوج بالباب يترصدون أوامر سادتهم. وأديررت القهوة في فناجين تركية أعلاها من الفخار النفيس وأسفلها من الذهب الخالص. وتسلينا مع شرب القهوة بتدخين تبغ عطر فواح. وتكوّن المجلس فضلا عني من ستة من المسلمين الحضر واسترسل الحديث شيئا وتمحور حول الحرب والسلم وحول الحكومة السابقة والحالية، وندد ابنا البيت دون احتراز بتعسف البلاط وطغيانه فتعجبت كثيرا من هذه الصراحة. وقد كانت العبارات المستعملة شديدة اللهجة إلى حدّ أن أحد المسلمين الحاضرين نبّهني إلى ذلك، فإذا بأحد الابنين يشب واقفا ويقول: «لا تهمني حكومة تونس، فأنا أنكليزي». وفي الابن غادر القاعة لحظات ثم عاد وهو يفتح علبة فضيّة وأخرج منها وثيقة حصاته الأنكليزية. فلقد اتفقت القوى المسيحية مع باي تونس على أن لا يخضع الأشخاص المنتمون إلى قنصليات هذه الدّول لسلطة الباي بل يعاملون بوصفهم رعايا الملك المسيحي الممثل. ولا ينطبق هذا على أعوان القنصليات فحسب بل على سائر التجار التصاري وخدمهم ووسطائهم. وقد بادر اليهود بالانتفاع بهذه الاتفاقية فعملوا على أن يكونوا وسطاء التجار وانتدب الوسيط لنفسه وسيطا واتخذ هذا بدوره خادما وهكذا دواليك. وعلى هذا المنوال أصبح اليوم عديد اليهود في أهمّ بقاع ساحل إفريقيا الشمالي يتمتعون بالحماية الأنكليزية أو الفرنسية أو الهولندية. ويستأثر هؤلاء الأشخاص بأكثر حرية من غيرهم ولا يرزحون تحت جور الحكومة. ثم إن الأهالي المسلمين تفتنوا أخيرا بدورهم إلى هذا الملاذ فلم يتورّع أثراهم وأوجههم من أن يصبح خادما لأحد القناصل حتى ينجو من تكالب الباي على الابتزاز.

بعد هذا أحضر الغداء وانفردت أنا وسيدي مصطفى بالأكل على الطريقة الأوروبية، بينما استعمل بقية الجماعة الأصابع كالمعتاد. وتوقف الكلام أثناء الأكل، وكانت أصناف الطعام تلتهم بسرعة ثم ترفع وتعوّض بأخرى. وعددت الأصناف التي قدّمت خلال هذه المأدبة فكانت أربعة وعشرين صنفاً. وعندما يشرب أحد تهتف الجماعة : « صحّا ! »، أي « تشرب بالشفاء ». ويكون الردّ : « يسلمك ! »، أي « الله يعطيك السلام [كذا] ». وإذا شيع أحد أو توقف عن الأكل فانه ينهض دون أن ينس بكلمة ويشير الى غلام فيأتيه بوعاء ويسكب منه ماء على يديه. وبعد الطعام أدير القهوة من جديد ثم عيّن لكل واحد، حسب عادة المكان، موضع لقضاء القيلولة ونلت أنا أيضا مكاني. وبدأ لي خلال وجودي بالدّار وكأنها خالية من الاناث. لكن كل ما في الأمر، في واقع الحال، أن النساء انزوين في الخدر وعكفن بلا ريب على تتبّع الأحداث الجارية بكل دقة. أفيعقل أن يستضاف نصرانيّ يقرأ القرآن كما لو كان « قاضيا » [كذا]، بل وأكثر من ذلك، يخوض في تفسيره بلغة هي لغة المسلمين المقدسة، أيعقل أن يستقبل رجل كهذا ويودّع دون ملء العين برؤيته ! ألا يعني ذلك امتحانا قاسيا لطبيعة بنات حوّاء ! وبالفعل، ما إن اضطجعت في ركن من أركان « السقيفة » لأغفو اغفاءة حتى رأيت الباب المقابل يفتح بهدوء وسمعت همسا خافتا ثم لاحت سيّدة ثم أخرى فثلاث وأخيرا صرن خمسا، ووقفن يتفحصنني عن بعد ويردّدن فيما بينهنّ :

- انه ينام !
- كلاً، انه غير نائم !
- انه طويل القامة !
- لا بل هو قصير القامة !
- انه شاب !
- كلاً، كلاً، انه كبير السن !

واقتربت السيّدات رويدا رويدا حتى صرن على قيد شبر منّي. وعلى حين غرة انفلتن بالضحك وهرعن صوب الباب وأغلّقنه وراءهنّ بسرعة.

والتأم شمل الجماعة ثانية، بما في ذلك الحاج يونس المسنّ. وقدّم للحاضرين شراب منعش ثم قهوة في فناجين مختلفة عن الأولى لكنها ليست دونها قيمة. وقوبل اقتراح أحدهم القيام في رطوبة العشية بنزهة على ظهور المطايا بالترحاب، فزرنا بعض البساتين حيث استمتعنا بشتى أصناف الفواكه. ثم جلسنا للعشاء فكان فائرا يشهد ببراء مضيفنا وكرمه. واثّر ذلك تسامرنا حتّى ساعة متأخرة من الليل. وفي الأخير ذهب كلّ لنيل نصيبه من الراحة. واكتنفتني مضجع فائرا. وفي الصّباح التالي ركبت عائدا الى مقامي صحبة مضيّفي سيدي مصطفى.

جربة في 8 أوت 1835

كانت جربة فيما مضى بمثابة منجم الذهب بالنسبة لمن اضطلع بشؤونها من الولاة. ذلك أنهم كانوا يدفعون للدولة سنويا مبلغا معيناً غير مرتفع ويستحوذون مقابل ذلك على حق نهب الأهالي كما أحبوا واشتهوا. ومنذ زمن طويل استأثرت عائلة « بن عياد » بهذه الخطّة. ولكن عندما تسنى لصاحب الطابع الحالي الارتقاء من مجرد عبد الى وزير أول جعل ملء خزينة مولاه الخاوية همّة الأكبر. ولهذا الغرض قام شخصيا بزيارة مختلف أقاليم المملكة، بما في ذلك جربة. واستقبله الوالي، بعد أن علم بقدمه، في بيته الذي كان مؤثثا ومزوّقا بصفة يحسده عليها الملوك. واطلع الوزير البصير على هذه الأبهة وهذه النفائس بعينين ملؤهما الطمع ثم عاد أدراجه الى تونس. وبعد فترة وجيزة بعث الى الوالي يأمره بالمشول أمامه وخاطبه قائلا :

« لقد عرفت كيف تملأ خزائنك بما هو ملك يمين سيدك، فنبئت لنفسك الديار وزينتها بأغلى زينة، في حين كان مولانا يعاني أشد الضيق. انك تستحق الشنق وأن تجرد من كل أرزاقك. لكنني، رفقا بك، أعفو عنك وأتركك على قيد الحياة، لكن شرط أن تدفع حالا مليوني ريال لصالح خزينة الدولة. وحذار أن تضع رجلك ثانية في جربة. » ونفذ الشرط الأول دون أدنى نقاش. أما الشرط الثاني فقد كان فيه من المس بكرامة كافة أسرة ابن عياد ما جعلهم يدخلون في مساومات سرية مع صاحب الطابع الحقن الى أن لانت قناته. وعفا عن الوالي المغضوب عليه وأعيد الى منصبه « قائدا » على جربة لكن بشروط تختلف تماما عما سبق، فقد تقرر تعيين عشرة من أعيان الجربة ليكونوا له مستشارين فلا يحقّ له جمع ضرائب أو جبي أداءات دون استشارتهم. وفي نفس الوقت حدّد الوزير الأول الضريبة السنوية بـ 130.000 ريال. ويضطلع مجلس العشرة المستشارين بجبي هذا المبلغ حسب طاقة كل من الأهالي ثم يسلم الى الباي بينما أضحي « القايد » يحصل على

جرايته من الباي. وهكذا لم يعد الجربي في حاجة الى ادعاء الفقر وقلة ذات اليد بل صار بإمكان أي أحد أن يتنقل بثروته حراً وأن يتظاهر بثرائه جهرا، وهو ما يحصل على العموم.

ولا يفوت المرء عند احتكاكه بالجربة أنهم يمتازون بسلوك مهذب الى أقصى حدّ وبآداب لائقة ولطيفة. كما أنهم لا يعاملون المسيحيين معاملة الكراهية والازدراء، حتّى أننا نكاد ننسى أننا وسط أعداء الانجيل الألداء، لولا وجود نصب تذكاري مروع تقشعر له الأبدان، يشهد بما يكمن هنا من كره للتصاري. وهو يحتل موقعا على شاطئ البحر ويتمثل في هرم من جماجم التصاري ومن عظامهم. فقد حدث أن التجأ أثناء آخر المعارك التي دارت رحاها في هذه الجزيرة بين الاسبان والمسلمين (22) ثمانمائة من المحاربين الصناديد الى حصن أقيم قرب البحر وقاوموا العدو ببسالة. وقام المسلمون بمحاولات عديدة لاحتلال الحصن فباعت كلّها بالفشل وتكبّدوا خسائر جسيمة. وسقط ثلاثة من قادتهم دون أن يصاب اسباني واحد بجراح. وتمادى الحال الى أن حصل ما يخشاه المحاصرون عامة، أعني نفاد المؤونة. وترقبت جماعة التصاري يوما بعد يوم وصول نجدة وامدادات ولكن بدون جدوى الى أن أرغم الجوع الحامية على الاستسلام، بعد أن حصلوا على وعد باخلاء سبيلهم. لكن ما ان استولى المسلمون على الحصن حتى انقضوا على الثمانمائة اسباني المجردين من السلاح وفتكوا بهم عن آخرهم وأقاموا بجماجمهم وبعظامهم على شاطئ البحر نصبا تذكاريا جديرا بهؤلاء البرابرة الهمج. وها هو لا يزال منتصبا منذ ذلك العهد ومن حين الى آخر يطلى بالجير. وتقع بجوار هذا الهرم قبور المسلمين الذين سقطوا على أيدي هؤلاء الصناديد. وباعتبار كثافة القبور فان عدد الضحايا المسلمين لم يكن بالقليل. وتتميز قبور القادة الثلاثة بقباب تعلوها. وقد انتابني وأنا أقف على هذا المعلم

(22) إشارة إلى وفائع سنة 1560 التي منيت فيها الفوات الاسبانية بهزيمة ساحقة.

انظر : Ch. Monchicourt : L'expédition espagnole de 1560 contre l'île :

de Djerba. Paris 1913.

اللا انساني، نصب الخيانة والغدر، شعور غريب، وبدا لي وكأن العظام الرمادية تتحرك وكأن الأذرع تمتد نحوي، وكأن الجماجم الخاوية تشير الي وكل فم يسعى أن يقول لي : « رح أيها المسافر، عبر البحر ورح الى بلاد المسيح وبلغ أننا لا نلبث منذ قرون طوال نحمل ثقل هذا العار وما زالت عظامنا بدون ضريح يؤويها. لعل صدى ندائك يبلغ أذن أمير تقّي فيعمل على ترحيل بقايانا الى أرض الوطن ».

يعيش في هذه الجزيرة، فضلا عن المسلمين، نحو ستمائة أسرة يهودية تحتل مدينتين هما « الحارة الكبيرة »، على بعد ميل من رحبة السوق الفسيحة، و « الحارة الصغيرة »، تبعد عن نفس المكان خمسة أميال. ويخضع هؤلاء اليهود لرئيس منهم مزكّي من قبل الحكومة، يقال له « نجيد » (Nagid) ويمثل بمعية بضعة أحيار سلطتهم العليا. وتوجد على مسافة ميل من « الحارة الصغيرة »، وسط ساحة منعزلة، بيعة يقال لها « الغريبة »، يزعم أنها أقدم البيع على كامل ساحل افريقيا الشمالي. ولا تتفق أخبار اليهود فيما يتعلق بعمر هذه البيعة. فمنهم من يدعي أنها شُيّدت بعد تدمير المعبد الأول، في حين يزعم آخرون أن يهودا نزحوا من مصر هم الذين أسسوها. والشئ الوحيد الثابت هو أنه عثر قرب « الغريبة » على شهادة ترجع تاريخ القبر الذي وضعت عليه الى 1300 سنة خلت. ويمكن أن نستببط عمر بيت الصلاة هذا من تصميمه على مثال معبد أورشليم إذ نجد له رواقا وقداسا وقدس أقدس. ويجتمع اليهود في هذه البيعة أيام الاثنين والخميس والسبت لقراءة التوراة. ويفد بنو إسرائيل من مختلف أصقاع إفريقيا إلى هنا حجيجا لاقامة الصلاة في هذا المقدس ولا يغادرونه دون أداء عطية لصيائنه. وحتى المسلمون أنفسهم يرون في هذه البيعة معلما مجيدا من العهد القديم وبالرغم من انزوائه ونأيه عن عمران البشر فإنه لا يجوز بخاطر أي مسلم أن ينتهك حرمة هذا المبنى. ولم يعترضني قط يهود أشد فقرا مما رأيت في جربة، وبنفس الكثرة. ويخال المرء وهو يشاهد نسل يعقوب في هذا المكان وكأن عجلة الزمان عادت به أربعة آلاف سنة الى الخلف ويتصور نفسه وكأنه في مصر والعبيد اليهود تبني لفرعون [نصب] « بطح » و « رمسيس ». ويهود

جربة هم عمال مقاطع الحجارة فيها وبتأؤوها وأجراؤها وحدادوها الخ. ويضطلمون بأدنى الأشغال وأشقاها. وبالرغم من أن تجارة المنتجات المحلية تدر أرباحا لا يستهان بها فإننا لا نجد أي يهودي له سهم في هذه التجارة بل هي بتمامها في حوزة المسلمين. ويكتفي جل اليهود من حيث اللباس بقميص طويل خشن، يضيف القليل منهم فوقه قميصا ثانيا من الصوف. ولا يقدر إلا أقلهم عددا على لبس ما يليسه إخوانهم في أماكن أخرى من « بلاد البربر » ولا يعرف الكثير منهم طعاما آخر سوى خليط من دقيق الشعير والماء والملح. وعلى غرار طعامهم الزهيد نجد أجرحهم بالمثل تماما. فقد مررت قبل أيام بمقطع حجر يشتغل فيه يهود فسألتهم وقد أنهوا العمل : « كم يتقاضى الواحد منكم على هذا العمل في اليوم ؟ » فأجابوا : « أربعة خروبات (23) ». ولا يساوي هذا المبلغ سوى ستة « كرويتسر » (24)

لم يكن بالجزيرة قبل سنتين مسيحي واحد. الا أن ثورة طرابلس حملت عددا صغيرا من العائلات المالطية على الهرع الى هذا المكان، وها هم اليوم يحتلون الفنادق. فقد استقرت في الفندق الذي نزلت فيه اثنا عشرة أسرة بنسائها وأطفالها وبخنازيرها ودجاجها. فكانوا يحدثون طوال اليوم صخباً مزعجا ويملؤون الفندق نتونة وقذارة الى حد أنني بقيت في الساعات الأولى عاجزا عن التفكير. وحدا بي الأمر أن فكرت في تغيير مكان الإقامة، بيد أنني قلت في نفسي : *passus graviore ! dabit Deus his quoque finem* (25) وبالتالي مكثت في مكاني. ولا يعيش حاليا في الجزيرة أروبيون غير هؤلاء المالطيين. لقد سبقني من صفاقس قبيل حلولي بجربة الخبر بأن مسيحيًا سيأتي ليتحاور مع يهود ومسلمين في شؤون الدين. فلما أديت، حال وصولي، لوالي الجزيرة رفقة سيدي مصطفى، زيارة التعرف التفت الوالي إلى مضيقي سائلا

(23) مفردة « خروبة »، وحدة نقدية تساوي 1/16 ريالاً أو ثلاثة « ناصري » وربع.

(24) « Kreuzer » عملة ألمانية قديمة ضئيلة القيمة.

(25) أي : لكن سوف نزول المحنة وسوف يجعل لها حد.

ان كنت أنا المسيحي الذي جاء ليتحاور مع يهود ومسيحيين في مواضيع دينية. ولما أجبت بنعم، خاطبني قائلا : « أما فيما يتعلق باليهود فسوف أجمع هنا كبار الأخبار حتى تتجادل معهم وان كنت على حق فأني سوف أجبرهم على التناقص ». فرددت عليه قائلا : « إنه ليتنا في تماما مع مبادئنا أن ينشر دين المسيح بحدّ السيف، ولا بد أن تبلور حقيقة عقيدتنا بمحض الاقتناع الشخصي، لذا فكل ما أرجوه هنا، كما تم لي ذلك في أماكن أخرى، هو أن يسمح لي بمخاطبة الناس في ديارهم ودكاكينهم في هذه المواضيع الهامة. » فقال الوالي : « ان كنت تفضل هذا فتصرف كما شئت، ولكنك سوف تلقى صعوبة في اقناع الناس بهذه الطريقة. » فكان جوابي : « اني أترك هذا لمشیئة الله الذي يحكم في كل شيء. » ثم رحت أركز بالانجيل على اليهود والمسلمين. فليبارك الرب ما صدر من قول.

إن هواء جربة لنقي وماءها ممتاز إلى درجة أنني لم أشعر بنفسي طوال كامل رحلتي في صحة وعافية مثلما شعرت في هذا المكان وبالرغم من حلول شهر أوت الذي يعدّ عدو الأروبي الألد تحت سماء إفريقيا فان الحرارة ليست من الشدة بما تكون عليه في مواقع ساحلية أخرى. ولكن لكل موقع إفريقي ما من شأنه أن يزعج الانسان ويجعله باستمرار في حالة فزع. وعيب هذا المكان هو أيضا العقارب الكريهة. ولئن كانت ليست بكثيرة عددا، في كامل الجزيرة، فإنه لبس هناك أخطر من عقارب جربة، ناهيك أنه إذا أضمر مسلم الشرّ لآخر، قال له : « ليت عقربا من عقارب جربة تلسعك ! » وهي هنا على أجناس شتى فمنها الصفراء ومنها الخضراء ومنها الضاربة الى البياض ومنها السوداء. وقد تمكنت من القبض على عدد من هذه السّوام الخطيرة وها أنا أحتفظ بها في سائل الكحول. وأخطر العقارب السوداء. وهي تظهر عموما خلال شهري جويلية وأوت. بيد أن الانسان يبقى طيلة النهار في مأمن نسبي من شرّها ولا يستفحل هولها إلا خلال الليل حينذاك تتسرب من أحجارها الخفية وتقوم بدورياتها. لذلك يظل نور يتقد طوال الليل حذو كل مرقد يؤوي بشرا. وإذا أصيب أحد بلدغة عقرب يكون العلاج الأفضل

والوحيد معا بفصد مكان الاصابة بواسطة موسى الحلاقة وشدّ رباط فوق الجرح شداً محكما لمنع سريان دم الجرح ويترك هذا يستقطر ثم يدلك بالزيت. وأبان اللدغة تنتاب المصاب الحمى ويزرق لونه أو يسود ويملكه الغثيان ويشعر بضيق في صدره ويبرد في يديه ورجليه وتعترية رعدة وفي غضون أربع وعشرين ساعة يلفظ أنفاسه الأخيرة. أما اذا استعمل العلاج المذكور وهو لا يتيسر إلا إذا أصابت اللدغة موضعا من الجسم يجوز فيه فتح الجرح فإنه عادة ما يأتي الشفاء بعد أربع وعشرين ساعة. ولأجل هذا رأيتني أضع كل ليلة موسى حلاقة ورباطا في متناول يدي. بيد أن الرب شملني إلى حدّ الساعة برعايته وصونه فله الحمد والشكر والاجلال.

طرابلس في 3 سبتمبر 1835

بارحت جزيرة جربة اللطيفة في العاشر من أوت بعد الظهر على متن سفينة صغيرة على أمل أن توصلني الى طرابلس سالما بمعونة الرب. ورغم صغر السفينة وضيقها فقد أركب قائدنا المالطي ما يزيد على خمسين مسافرا بين مسلمين ويهود ونصارى جميعهم ممن قرأنا من طرابلس ورام العودة اليها بعد أن استتب الهدوء. وكانت من نصيبي مساحة لا تعدو أن تكون كافية للاضطجاع. وكان من المنتظر أن نبحر في اليوم نفسه، لكن مركبنا رسب في الرمل فعين علينا انتظار المد الذي لم يكن يكتمل إلا صبيحة اليوم التالي. وإذا كنا أطلقنا الشراع وتقدمنا شوطا ولكن ما راعنا إلا والريح تنعكس مما أرغمنا على المراوغة. ونتج عن ذلك أن شرعت السفينة ترجأ رجأ عنيفا مطردا. وسرعان ما انتابني الدوار من جديد واشتد بي. وفي المساء استوجب علينا الارساء قرب « رأس المحبس »، حيث يعيش بدو مجبولون على السلب والنهب. وتواصلت من الغد الرياح معاكسة عنيفة وتعين علينا ملازمة مرسانا طوال اليوم. وأمر الریان باثقال السفينة بغية الحد من تأرجحها. وأنزلت الزوارق وذهب النوتية مدججين بالسلاح الى البر لجلب ما يفي بالطلب. وتسلق ملاح صاري السفينة لمراقبة الشاطئ خشية أن يقترب بعض البدو وقد تم الاتفاق على أن ترفع الراية في حالة ما اذا حصل ذلك فتعود الزوارق بعجل. إلا أن العملية تمت دون أن يطرأ طارئ، وهو أمر نادر حسبما أدلى به بعضهم. ولما كانت الرحلة من جربة الى طرابلس لا تتطلب عموما أزيد من يومين فإن خادمي اكتفى، من باب التهاون أو الاغفال، بشراء زاد يومين فقط، وها نحن الآن نشكو نقصا. وكذلك زاد بقية الركاب أخذ بالمثل يتقلص كما أو شك الماء على التفاد. وشاء سوء الطالع أن تستمر الرياح المضادة تنفخ بعنف وعم الاستياء على متن السفينة. وازداد بي السقم والكلال ورغبت في أكل شيء ما ولكنني لم أحرز على لقمة.

واشتد الصراع على الماء ولما هممت بتوبيخ قائد السفينة على ذلك قال لي انه حدث له أن حبسته الرياح المضادة في نفس المكان طيلة أحد وعشرين يوما بأكملها. وزاد في كربنا أن سكنت الرياح وخيم الهدوء التام. ومرت علينا ونحن في البحر خمسة أيام ثم لأحت بوادر الفرج. ففي يوم 15 أوت بعد الظهر هبت علينا ريح خفيفة لكنها موافقة وفي الحين رفعنا المرساة وانطلقنا قدما. ولكن ضوضاء ركاب السفينة من أجل ماء الشراب زادت حدة وغدا الموقف يهدد بأخذ منحرج خطير. وبالتالي رأيتني أفاتح رائس السفينة في الموضوع وأعرض عليه الموقف من مختلف جوانبه، فقال إن رياحا موافقة بصدد دفعنا الى الأمام نحو هدفنا وانه لم تعد تفصلنا عن طرابلس مسافة كبيرة. واقتنع بضرورة توزيع الماء وأعطى أوامر بذلك. وأخيرا في السادس عشر من شهر أوت لاح لنا عند منتصف النهار ساحل طرابلس فغمرتنا الفرحة وفي المساء ألقينا المرساة غير بعيد عن الضفة، على مقدار ستة أميال من المدينة. إلا انه ظهر خلال الليل ظل كثيف بللني وبلل حشيتي التي كنت أنام عليها في العراء فوق سطح السفينة — لأنني التمسيت في ذلك أكثر راحة — وصيرها تقطر ماء، وخشيت أن يسيء هذا الندى الى صحتي. وفي السابع عشر من أوت توجهنا صوب المرفأ ولولجناه قبيل الظهر.

تقع طرابلس في برزخ وتحيط بها أسوار شامخة تعلو على سائر مباني المدينة، كما تحميها علاوة على ذلك بطارية مدفعية مهيأة في شكل نصف دائرة. كما أن هناك عدة مدافع منتصبة وشتى التحصينات الدفاعية والمتاريس، تحمي مدخل الميناء الذي يؤوي حاليا خمس عشرة سفينة حربية تركية. وما إن أرسينا حتى أسرع إلينا قارب فكان على قائد سفينتنا أن أدلى بما طلب منه من ارشادات. وعقب ذلك حضر ترجمان القنصل الأنكليزي ومعه التصريح الذي يخول لي النزول الى البر فعجلت بالاستفادة من صلاحيته.

وبما أن طرابلس أضحت تخضع لسيادة الأتراك فقد وجدت على أبواب المدينة جنودا أتراكا يرتدون أزياء أوروبية النمط. واجتازت المداخل ونفذت الى المدينة دون أن يوجه إلي أدنى سؤال. وسعيت بادىء ذي بدء الى اكثراء

محل أحطّ فيه رحالي. وسرعان ما عثرت على ما أبتغيه ودفعت كراء شهر كامل ثم أرسلت في طلب متاعي من السفينة ورّبت حالي كما تيسر في مقامي الجديد. وودت أن أزور القنصل الأنكليزي لتتعرف على بعضنا ولكنني لم أتمكن يومها من مقابلته.

وما إن ربت شؤوني بعض الشيء حتى انتابني نوبة نقرس عنيفة بذراعي اليمنى عاقنتني عن القيام بأي عمل. واحتدت وطأة هذا الداء من ساعة إلى أخرى وبان على هذه الذراع نفسها ما شابه الطفح الجلدي والورم. واختلّ نظام المعدة وصرت في حالة يرثى لها من السقم. وكانت هذه نتيجة البرد الذي أصابني على السفينة والغذاء الرديء الذي تناولته والجوع الذي تلاه. وصرت عاجزا عن الكتابة والقراءة معا وتألمت آلاما مبرّحة. وكانت تلك أيام محنة قدرها الله فتحملتها ممثلا لمشيئته وفكرت في دار الآخرة. لكن بفضل الإله ورحمته زال الكرب وجاء الشفاء. فقد ألح عليّ بعض الأحاب أن أدعو طبيبا فأذعنت مكرها وحضر طبيبان عوضا عن واحد فشرعا في التنقية والدهن والدلك وما الي ذلك الى أن أعان الرب عليّ الشفاء.

لم استشف الخبر الصحيح فيما يتعلق بثورة طرابلس الهامة الأخيرة الآ على عين المكان. فقبل ما يزيد عن 150 سنة استولى آل « قرمانلي » على عرش طرابلس وعكفوا بالاشتراك مع تونس والجزائر على سلب النصارى واسترقاقهم. إلا أنه والحمد لله تمّ منذ 1816 محو هذا الشئار الذي ظلّ أمدا طويلا يثقل عاتق الأمة المسيحية قاطبة. وكان من نتائج ذلك أن تقلص دخول هؤلاء اللصوص بنسبة هائلة. ولحق الضرر طرابلس بالخصوص اذ يقال أنّ هذه الممارسة كانت تدرّ على الباشا بمفرده ربحا خالصا يقدر بـ 600.000 دولار. وأحسن يوسف باشا كثيرا بالخسارة ولكنه عرف في البداية كيف يجاري الوضع ببعض التقشف في نمط عيشه. ولكن مع تقدمه في العمر ازداد ولعه بعديد النساء فكان أن دفعنه في دوامة النزوات الجنوبية. وغرق في ديون بالغة وطالب أصحابها بأموالهم وأخيرا لم يجد حلا سوى أن دعا إليه شيوخ العربان وقال لهم أنّه في حاجة الى مال لتسديد ديونه وانه يطالب كل فرد منهم بمبلغ معيّن وعليهم، أي الشيوخ، أن يأتوه

بالمحصول في أسرع الآجال. وعاد الشيوخ الى خيامهم وأخبروا طغامهم ببغية الباشا. وما إن تلقوا الخبر حتى ثارت ثائرة العربان قاطبة وأهالي المدن خارج طرابلس. وعلت من الخيام والقرى والمدن خارج طرابلس صيحة واحدة تنادي بأن يوسف باشا غير جدير بالعرش. ولما وصلت هذه الصيحة المفزعة مسمع يوسف، تصرّف بحنكة وتخلّى عن الحكم لصالح ابنه علي باشا. وتبوأ هذا العرش وبايعه كامل أهل المدينة باشا عليهم. ولكن أهل الريف (26) لم يفعلوا بالمثل لأنهم كانوا يكتون الكراهية لعلي. واختاروا على رأسهم اثنين من أبناء شقيق لعلي وابن ليوسف، سبق أن مات أبوهما بأمر من أخيه يوسف نفسه. وانطلاقا من الريف اندلعت الحرب الأهلية، وفي مستهل سنة 1832 تعيّن غلق أبواب المدينة. واستمر الصراع سنة كاملة بين طرفي النزاع، عرف كلاهما خلالها النصر تارة والهزيمة تارة أخرى. ثم ان السلطان أرسل القفطان الي علي باشا، معترفا به بهذه الصورة سيّد البلاد الشرعيّ. غير أن ذلك لم يفلّ من عزيمة شقّ الريف فواصلوا الحرب ضدّ المدينة بكل حزم. وغادر المدينة كل من قدر على ذلك وهاجر العديد من قناصل الدول الأوروبية وجل النصارى وثلث اليهود وأثرياء المسلمين فأدى ذلك الى أن ضعف صفّ عليّ باشا حتى انه لم يبق معه سوى بضعة مئات من الرجال، تعوزهم القدرة الكافية للدفاع عن المدينة كما ينبغي. ورفع القطر بأكمله السلاح ضدّ علي باشا وتمكن جيش أعدائه حتى من جلب المدافع، العادية ومدافع الهاون. وتمّ ضرب الحصار على المدينة في بعض النقاط وتهاطل عليها وابل من الرصاص والقنابل أحدثت أضرارا جسيمة. ومّرت على هذه الحرب ثلاث سنوات بأكملها لما ظهر على حين غرة في عرض طرابلس أسطول تركي قوّته خمسة وثلاثون شراعا، زيادة على عدد من سفن الشحن تقل 6000 رجل من القوات النظامية. واعتقد كل فريق أن الأتراك انما جاؤوا لمناصرتهم على خصمه. وتحوّل علي باشا توّا الى سفينة القائد التركي الذي

(26) أو « أهل المنشية » كما يعرف بهم في « انحاف أهل الزمان » لابن أبي الضياف ضمن الأخبار عن هذه الأحداث .

كان يحمل رتبة باشا ذي ثلاثة من « الطوغ » (27) للترحيب بقدمه. واستقبل هذا عليًا بحفاوة فائقة وأكد له أنه لم يأت إلا ليدعمه في منصبه وأنه سيهاجم الخصم حالما يتم انزال جنده، مضيفاً أن هؤلاء لم يستعيدوا بعد كامل نشاطهم من جراء أتعاب السفر الطويل وأنهم في حاجة إلى نصيب من الراحة. وطلب من علي أن يسمح له قبل كل شيء بإنزال قواته إلى البر. ولم يكتف علي بالموافقة بكل سرور بل ساعد على ذلك بكل جهد. وما ان تم للأمر التركي ما أراد حتى أبلغ شق الريف أيضاً أنه ما أتى إلا لتنصيب زعيمهم على العرش وتأديب باشا المدينة. وابتهج أهل الريف كثيراً وأغلقوا على الجنود المؤونة.

وفي تلك الأثناء استولى الأتراك على كل مراكز المدينة ومنشأتها الدفاعية واستحوذوا على المدافع المنتصبة فوق التحصينات. وعلى إثر ذلك أصدر الأمر الجديد بلاغا يدعو فيه أصحاب المدينة إلى تسليم أسلحتهم لعدم جدواها ما دام معه من العتاد ما يكفي لحماية مدينتهم. وأحسن أهل طرابلس عن حق بالخدعة لكنهم رضخوا أمام القوة واستجابوا للطلب. وتلقى أهل الريف بدورهم أمراً مماثلاً لكنهم لم يذعنوا وفضلوا الانسحاب إلى داخل البلاد. وفقد الأخوان، زعيماً عرب الريف الثقة في أي طرف كان، ففر الأول إلى مالطا وانتحر الثاني لخيبته مما لحقه من غدر. ولكن على اثر بعض المفاوضات انصاع أهل الريف بدورهم وسلموا السلاح. وخلال كل هذه الأحداث مكث الأمر التركي على متن سفينته ولم يتجرأ على النزول إلى البر. وعندما تيقن من نجاح خطته تماماً نزل إلى البر وقام بزيارة علي. وبعد أن حظي باستقبال فاخر وبضيافة جديرة بالملوك عاد إلى سفينته ووجه بدوره الدعوة إلى علي لتكريمه. ولبي الباشا المخدوع الدعوة واستقبل هو وأتباعه بالتقدير والتبجيل وأقيمت على شرفه مأدبة فاخرة. ولما هم بمبارحة السفينة، أظهر الباشا فرماناً من لدن السلطان يتضمن أمراً لعلي بالتحويل إلى القسطنطينية

وبتسليم مقاليد حكم طرابلس إلى نديب باشا — هكذا يدعى أمر الأسطول — حتى يأتي ما يخالف ذلك. ومنع الأمير الشقي من الرجوع إلى قصره ومن الغد كانت السفينة تشق به وبأتباعه المقربين عباب البحر صوب عاصمة الأمبراطورية التركية. وأمسك نديب باشا بزمام الحكم واتخذ لنفسه من قصر آل قرمانلي مقر إقامته. وأبعد يوسف باشا، وهو شيخ هرم في الثمانين من عمره، ومعه نساؤه الثلاث وأطفاله، وأجريت له من باب الشفقة جناية أسبوعية قدرها ثلاثون « غولدن ». وبهذه الصورة انتهت ثورة طرابلس الأخيرة، التي تسببت على مدى ثلاثة أعوام في افقار المدينة من أهلها وفي افقارها وهدم كيان تجارتها، وفي الحاق ضرر بالقطر لن يزول أثره عمّا قريب. ولا ريب في أن دولة طرابلس سوف تظل إقليمياً خاضعاً لتركيا وتدخل بذلك في عهد جديد.

(27) استعملنا هذه الكلمة التركية لترجمة ما معناه « ذنب حصان » وذلك بالاستناد

إلى : H. Hugon : Les emblèmes des Beys de Tunis. Paris 1913, p. 81

طرابلس في 10 سبتمبر 1835

تتألف الحامية التركية من 4500 رجل زيّهم وتدريبهم أروبيّا النمط تماما. وعلى العموم فإن هيئتهم حسنة، ألا أنهم يجلدون صعوبة في الالتزام بالوقوف فترى العديد من الحراس جالسين في تمام الراحة في مواطن حراستهم، إمّا على كرسيّ أو على حجر قاموا بجلبه. ذلك أنهم يؤمنون إيماننا صريحا بأن الحراسة جلوسا لا تقل نجاعة عنها وقوفا. ومن منغصاتهم أيضا واجب لبس الأحذية والجوارب. لكنهم عادة ما يتخلصون من هذا العبء دفعة واحدة أو أنهم يتتعلون الحذاء وكأنه مجرد شيشب. وقد راعني أخيرا مشهد أمر كتيبة أثناء قيامه بتدريب رجاله، وكان صدره يتحلّى بنجمة وهلال من الألماس ويتعل شيشبا سبق أن كان حذاء. وكان منكبا هو ورجاله، الذين منهم من انتعل الأحذية ومنهم من تخفّف في الشباشب، على تطبيق قواعد المدرسة الأروبية. ونظرا الى تقيّد المسلمين بالصلاة خمس مرّات كل يوم وبغسل الأيدي الى المرافق والأرجل الى الركب [كذا] قبل كل صلاة، فإنه يسهل علينا فهم هذه المضايقة الناجمة عن البرّة الحديثة العهد. ألا انه يسيء إلى العين الأروبية كلما تبصر ضابطا يرتدي البرّة الأروبية الطراز وهو جالس القرفصاء أمام دكان حلاق، حافي القدمين منهمكا في اللعب مع صاحب الدكان، وهو مشهد مألوف، كثيرا ما يعترضنا — أو عندما نراه يمشي بتزمت متكلف بينما سار خلفه بعض أعوان الخفر وخادم يحمل الغليون والجراب والسيف. وبصرف النظر عن ذلك فإن سلوك الجند مثالي لا عيب فيه. وقد مرّت على حلول نديب باشا بطرابلس أربعة أشهر ولم يؤدّ بعد زيارة واحدة الى مسجد من مساجد المدينة، ممّا أثار كثيرا من الاستغراب بين الأهالي المسلمين. وأول أمس تفضّل صاحب السّمّو بأداء هذه الزيارة. وتمّ نصب الجنود على طول الطريق الرابطة بين القصر والمسجد وأعلن عن قدوم المعني بطلقات مدفع. وجاء الباشا يتقدمه حرسه الخاص، وعددهم خمسة وعشرون

رجلا يرتدون الزيّ التقليدي الأصيل ويتقلد كل واحد في حزامه مسدسين وسيفا ويمسك في قبضته عصا غليظة مطعمة بالفضّة. وتبع هؤلاء الباشا نفسه، وهو رجل وسيم ذو لحية سوداء، له من العمر زهاء خمس وثلاثين سنة. وكان يعتلي صهوة جواد بهي المظهر ازدان بأفخر زينة وأغلاها. وعند ظهوره أدى الجند التحية العسكرية، في حين توخّى الضباط تصويب السيف نحو الأرض ولمسها باليد اليسرى ثم تقيّلها.

لقد بلغت الحرارة مستوى لم أعهده قط من قبل. وعمد الناس إلى إيراد الأبواب والنوافذ اتقاء من الشمس والريح. ولم تقلّ بذلك حدّة القيظ ناهيك أني كنت طول النهار أتصيب عرقا وكأني في حمّام، وفشل الجسد وصار عاجزا عن أدنى نشاط. وكانت الريح تهب من الصحراء جافة لافحة. ولئن كانت تسهم في انضاج الثمر وتؤدي بذلك نفعا في هذه البقاع فإنها مضرّة جدّا بصحّة الأروبيين.

قدم يوم أمس باشا طرابلس الجديد ويدعى أحمد. وقد استقبل بدويّ مدفع يصمّ السمع. غير أنه لم يستبشر بقدمه سوى الأتراك. بينما زاد العرب في التقهقر إلى داخل البلاد. ودعي نديب باشا الى العودة وسوف يرحل بعد بضعة أيام. كما نزل على يوسف المسنّ أمر بالتحويل صحبة كافة عائلته وأقربائه الى القسطنطينية ويهدف هذا القرار الى محو اسم قرمانلي من مملكة طرابلس، وهو مؤشر جلّي على أن الباب العالي مقر العزم على فرض سيادته على البلاد على وجه الدوام. ويتجاوز الاستياء الذي قوبل به هذا الاجراء الجديد كل التصورات وبالتالي صار العرب يتجنبون المدينة ولا يرتادونها الا نادرا.

لقد اتخذت لنفسي مبدأ التزمت به طيلة رحلتي وهو أن أطوف عبر أرجاء المدن بمفردي قدر الامكان وأن لا أتوجه بالسؤال عن هذا الأمر أو ذاك إلا الى من لاقيته بمفرده، ثم أفاتحه في بشارة الانجيل بعد ربط الحديث معه. وعلى هذا الأساس لقيت نفسي قبل بضعة أيام أمام باب المدينة الذي بفتح على البحر والتفت الى الضفة المقابلة فرأيت الأتراك بضدد القيام بمناورات. فاستقللت زورقا وقصدت المكان. وبعد أن تحاورت مع بعض

المتفرجين أردت أن أعود الى محلي. ولم يسبق لي أن وضعت رجلي في هذه الناحية من المدينة، لذا رأيتني أتجه قدما صوب الباب الذي كان مفتوحا أمامي، فإذا بي في مجاز مقبب به عديد الحراس. وقلت في نفسي : « لا بد أن هذا هو مدخل المدينة »، بيد أن بعض الشكوك ظلت تساورني. والتفت حولي عسى أن أجد من أسترشده. وأقبل نصراني فخاطبته باللهجة الافرنجية (Lingua Franca) قائلا: « هل يجوز المرور من هنا ؟ » فأجاب بنفس اللهجة : « طبعا ! » فواصلت السير. ووجدت السرداب المقبب أطول مما توقعت، وكان يعترضني من حين الى حين أحد جنود الحراسة. « يا له من ممر طويل مظلم ! » هكذا قلت في قرارة نفسي، واستبشرت لما أبصرت أخيرا ضوء النهار. ولكن سروري لم يطل، فما ان خطوت خطوات حتى وجدت نفسي قبالة درج. وصعدت الى فوق فغمرتني العتمة من جديد. وحشت الخطي راجيا أن ينتهي هذا السحر العجيب. وسلكت ممرا حالك الظلمة وصعدت بضعة أدراج ومررت بحرس كثيرين، الى أن انتهيت الى باحة صغيرة عارية حوت مدافع. حينئذ تيقنت تمام اليقين ان الباب الذي دخلت منه لم يكن باب المدينة. ولكن أين أنا ؟ هذا السؤال بقي كاللغز. ولم تجد محاولاتي في مخاطبة رجال الحراسة نفعا، اذ ما كانوا يفهمون كلامي واكتفوا بالإشارة باليد الى الأمام. وواصلت السير حتى اعترضني درج خشبي صغير. « ما العمل يا ترى ؟ أعود أعقابني ؟ من يدري، لعلك تنيه أكثر مما تهت في هذه الكهوف السحرية ! » هكذا قلت في نفسي قبل أن أقدم على تسلق الدرج. ولما بلغت الدرجة القصوى تجلت لي ساحة غير فسيحة، توسط واجهتها باب مفتوح على مصراعيه. ونظرت عبره، فيا لدهشتي ويا لذهولي! لقد اكتشفت أنني أوجد داخل قصر الحاكم وعلى باب قاعة العرش، وقد احتوت على أثاث أروبي وكرسي حكم مزركش زركشة فاخرة بالذهب. وامتلكني حرج كبير أخذ يتعاضم من لحظة الى أخرى، غير أنني كرهت أن أظهر شيئا منه بسبب جند الحراسة الكثيرين فابتعدت بسرعة عن المكان. ووجدت نفسي مرة أخرى وسط ممر مظلم يلتوي يمينا تارة وشمالا تارة أخرى. ومررت أمام أفنية وقاعات، دون أن

يعترضني أحد سوى عساكر الحراسة الأتراك. وصعدت أدراجا ونزلت أخرى ولم أعثر على المنفذ المنشود للخروج من هذه المتاهة. ولم أترك أحدا من جند الحراسة دون أن أتوجه اليه بالسؤال، مستعملا كل ما في متناولي من اللغات. ولكنني لسوء حظي لم أكن أفقه التركية فلم أجن من أسئلتني على اختلافها سوى الإشارة الى الأمام. ثم لقيتني من جديد أرتقي درجا عديدة الى أن انتهيت آخر المطاف أمام باب، فتحه لي الحرس الذي كان واقفا أمامه دون أن ينبس بكلمة. وصوبت النظر فانتابني الدوار : لقد كنت في أعلى نقطة من القصر وأقصاها. وقلت للحرس اني أريد الخروج من القصر فأشير إلي مرة أخرى الى الأمام. واتبعت الطريق الذي كان يحده جدار تظهر عليه بين الفينة والأخرى آثار الاصابات التي ألحقتها به نيران العدو. وتعين علي هنا ملازمة الحذر خشية أن أقع في الهاوية. وانتهيت بعد ذلك الى ساحة عارية توسطها بعض الضباط الأتراك. وقلت في نفسي : « لا بد أنهم يفهمون العربية أو ربما بعض اللغات الأروية ». وخاطبتهم بالعربية أولا ثم بشتي اللغات الأروية لكن بدون طائل، فكأنني بهم أيضا أصيبوا بالكم، وكل ما أفادني به هؤلاء الصناديد إشارة الى درج. ولم يكن لي خيار سوى اتباع النصيحة. وقلت في نفسي : « من حسن طالعك أن الوقت ما زال باكرا فيا للحيرة إذا حان المساء ! » وارتقيت الدرج برباطة جأش فبلغت شرفة وأمعنت النظر فكادت عزائمي تخور. لقد تربع في هذه الشرفة الباشا نفسه على أريكة فاخرة وحف به بعض الكبراء. وفسح لي الحراس الطريق، ربما لأنهم ظنوا أنني ألتبس مكالمة صاحب السمو التركي. وأسرع نحوي فجأة أحد الكبراء — وهو الوزير الأول — وقال لي باللهجة الافرنجية (Lingua Franca): « تفضل، اقرب، هل من خدمة أقدمها لك ؟ » فأجبتة بأني دخلت القصر على وجه الخطأ وها قد مرت ساعة وأنا أبحث عن المخرج بدون جدوى. وسأل الوزير : « ما هي جنسيتك، هل أنت فرنسي ؟ » فأجبتة : « كلاً يا سيدي، أنا ألماني تحت حماية أنكلترا. » ودعا أحد

طرابلس في 15 سبتمبر 1835

ان طرابلس أو « أورا » (Ora)، كما كانت تعرف لدى القدامى، أصغر من تونس ومن الجزائر، لكنها تفوقهما من حيث النظافة، شوارعها عريضة ومنازلها لا تختلف عما هو مألوف في مدن ساحل شمالي إفريقيا عموماً، باستثناء منازل القناصل الأوروبيين، وعددها أحد عشر منزلاً يحق نعتها بالجميلة، وهي مؤنثة بجميع المرافق التي يجد فيها الأوروبي الراحة والرفاهة. ويشكل قصر الباشا الأسبق كومة غير متناسقة من البناءات، أنجزت، على ما يبدو، تدريجياً وحسب الحاجة، ويتصل بعضها ببعض بواسطة الممرات الداجية التي تهت فيها أخيراً. ويقال إن طرابلس كانت تؤوي قبل الثورة ثمانية عشر ألف مسلم وأربعة آلاف يهودي وألفين من النصارى. أما اليوم فلا يتجاوز عدد سكانها النصف أو أقل. فقد هجر المدينة أثريائها، غالبهم إلى مصر وأماكن أخرى، ولم يعودوا. وهذا ما يفسر أنني وجدت صفوفاً بأسرها من الدكاكين مغلقة وشوارع برمتها خالية من السكان. ويرتدي مسلمو المكان لباساً هو أقرب إلى لباس عرب البادية منه إلى لباس مسلمي المدن، كما نفتقد هنا العلوم والمعرفة التي ما زال منها شيء في مدن إسلامية أخرى، ويتعين على من أراد تحصيلاً من أهل طرابلس الذهاب إلى تونس أو إلى مصر. وكان سوق العبيد قبل اندلاع الثورة أهم هذه الأسواق على كامل ساحل إفريقيا الشمالي. فلقد كان يستقطب قوافل جرارة من أولئك البؤساء أصيلي باطن إفريقيا ومن هنا يؤخذون للبيع على طول الساحل. أما اليوم فقد صار تجار العبيد يسلكون طريقاً غير طريق طرابلس. وما زالت توجد هنا وهناك آثار من عمارات رومانية عتيقة على غاية من الجمال. بيد أن أعجب هذه المعالم من الفن الروماني القديم قوس نصر محلى بالنقوش البارزة، وهو لا يزال قائماً في حالة جيدة من الصيانة على مقربة من باب البحر داخل المدينة. وقد شيد في عصر أنطونيوس بيوس. ونرى اليوم مالطياً اتخذ لنفسه من هذا المعلم دكاناً.

الحرس وقال له « كاييا (Capia) (28) » فردّ بالمثل : « كاييا ». وأعاد الوزير نفس اللفظة وأردفها بكلمات أخرى لم أسمعها جيداً. بعد ذلك رجاني أن أقتني أثر الحارس فشكرته واستأذنت وتبعت الرجل الذي أوصلني في فترة وجيزة سالماً إلى المنفذ الذي كنت أبحث عنه بلهفة واشتياق. وألفيت نفسي أمام الباب الذي دخلت منه. ويدعى ذلك الوزير الأول الذي أسدى إلي هذا المعروف ساعة خرجي في حضرة صاحب السمو التركي « بيت المال » [كذا] وقد رأيته فيما بعد مراراً عديدة. وكان يشغل نفس المنصب حتى تحت حكم الباشا الأسبق، يوسف. وقد لعب دوراً هاماً أثناء الثورة وساند في البداية شقّ المدينة ثم انضم إلى شقّ الريف. وأبحر بنفسه إلى مالطا وجهّز عدة سفن وعاد بها ليقذف المدينة بالمدافع من جهة البحر. وعند وصول الأسطول التركي التجأ إلى سفينة حربية أنكليزية كانت راسية في عرض طرابلس. إلا أن الباشا الجديد حثّه على النزول إلى البر ضامناً له الأمان من كل سوء. وها هو يرتقي مرة أخرى إلى منصب وزير أول، لا سيما وأن الحكومة الجديدة في حاجة أكيدة إليه تجعلها تكاد لا تستطيع أن تكون في غنى عنه، نظراً إلى خبرته الدقيقة بكامل القطر وإلى كثرة أصدقائه بين الأهالي العرب.

(28) لفظة تركية معناها : إلى الباب .

يناهز عدد النصارى الكاثوليك المقيمين حالياً في هذا المكان الألفي نسمة. وبصرف النظر عن بعض العائلات الفرنسية والإيطالية والاسبانية فإنهم على الاجمال من المالطين. وقد تقبل مني كثيرهم الكتاب المقدس بكل سرور. ويوجد هنا دير للرهبان الكابوشيين يعود تأسيسه إلى العهد القديم. وبناء على أن الأب رئيس الدير كان عادني خلال مرضي فقد رأيت من واجبي أن أعيد له الزيارة. وتحادثنا معا طيلة ساعات عديدة فلقيت فيه رجلا ذا اطلاع ودراية، يجمع بين كثير من اللطافة والمحبة وسعة الاطلاع. وسرعان ما غلب على حوارنا الطابع الجدلي. وسعى بكل ما توفر لديه من معلومات إلى الدفاع عن منزلة البابا وتبرير عادة تمجيد القديسين والاعتقاد في الذخائر المقدسة. وقد أثار انتباهي وفضولي حين وسم العذراء مريم بـ«السيدة العظيمة»، وهي تسمية لم أعهد لها قط من قبل. وبما أن حججه لم تكن مستمدة من الانجيل فقد سهل عليّ بالاستناد إلى كلمة الرب أن أجيبه على كل نقطة الاجابة الملائمة. ولم يكن صاحبنا في الواقع من محبي الكتاب المقدس بل أظنه ضرب عليه الحجر في بعض الأحاد. أما تصريحاته في شأن «لوتر» فقد اتسمت باعتدال فاق ما كنت أتوقع من راهب مثله. وقال ان «لوتر» هو أحد أبناء الكنيسة وانه كان مسيحيا صالحا ولكنه طلب الكثير، فرغم أنه كان لا يعدو أن يكون مجرد راهب متواضع فقد طالب بأن يتدلل له البابا، أفليس ذلك بطلب فادح بالنسبة الى زعيم الكنيسة ورأسها! وعلمت من الأب القسيس أيضا خبر نشأة الدير وتاريخه. ففي سنة 1687 أرسل مجمع التبشير بروما راهبا كابوشيا الى هنا مبشرا. وسرعان ما وفق هذا في نيل ثقة الباشا الحاكم وصداقته، وحصل منه على إذن خاص في بناء كنيسة ذات ثلاثة نوافيس — وهو امتياز يكاد يكون منقطع النظير في سائر بلاد الاسلام — ودير لإيواء الرهبان الذين سوف يلحقون. ولكن التخلي عن عقيدة النبي الدجال والدخول في خدمة يسوع المسيح فاشتعل غيظ أهل البلاط ضد المبشر المخلص ولم يهدأ لهم بال إلا حين صدر القرار بإعدامه. وتم نقل الأب القسيس خارج باب المدينة حيث كانت المحرقة في انتظاره. وتبع النصارى الذين اجتمعوا في هذه المدينة زعيمهم الروحي

في كدر وهم ينوحون ويندبون حظهم، قائلين: «واويلاه! ما عسى يكون مصيرنا عندما تذهب عنا وتفارقنا؟» فأجابهم ببشر: «سأترك لكم قلبي». فيا للدهشة ويا للعجب حين جمعوا رماد الشهيد فوجدوا تحته القلب سليما لم يلحقه أدنى ضرر. ونقل هذا القلب في وقت لاحق الى القدس ويقال انه محفوظ الى الآن هناك في دير الرهبان الكابوشيين حيث تتسنى مشاهدته. وأرسلت روما اثر ذلك قسًا جديدا لتوكلي مكان سلفه ولتثبيت الحقوق التي كسبتها الكنيسة قدر الامكان. ووصل القس وأدى للباشا زيارة التعارف فوقع من نفس الباشا موقعا حسنا وأغدق عليه هذا من جزيل فضله كما أنه وعده بأشياء كثيرة في صورة ما اذا ارتد عن ديانة المسيح وصار مسلما. أغرته هذه الوعود وأسلم. وعلى إثر هذا جاء من بلاد المسيح أربعة ممن أخلصوا الايمان للرب ولاموا المرتد على خيائته بمحضر من الباشا فאלوا ميتة الشهداء. وقدم فيما بعد كابوشيون آخرون واستعاد الدير من جديد مكانته المميزة في ظل حكم الباشوات اللاحقين، الذين حباه بعضهم بالهدايا. إلا أن دولة طرابلس تمكنت قبل زمن طويل من حمل فرنسا التي يقع الدير تحت حمايتها على ابرام عقد ينص على أن يقتصر تبشير الرهبان الكابوشيين على النصارى ويمنع عليهم منعا باتًا فعل ذلك بين المسلمين.

ويوجد هنا من النصارى الانجيليين نحو الخمسين نفرا منهم عائلات خمسة قناصل أروبيين — وقد يكونون ستة أحيانا — لكن لم يحدث على الاطلاق أن أم المكان قس انجيلي. وفي سنة 1830 فقط تكتل البروتستان المقيمون بالمكان وهياًوا مقبرة خاصة بهم تقع على حوالي ساعة من المدينة. وقبل بضعة أيام مات للقنصل الأمريكي طفل فشيعت الجنازة الى المقبرة حيث أقيمت صلوات الجنازة المعتادة. ومنذ إقامتي بالمكان التأم شمل حفنة النصارى الإنجيليين يوم أحد في القنصلية الأنكليزية فأقامت بهم القداس وناولتهم العشاء الرباني.

طرابلس في 18 سبتمبر 1835

قبل بضعة أيام حصلت في يدي صحيفة « مونيتور ألجيريان » (29). وبدأ لي كأني بمحررها يحمل فكرة مميزة عن فحوى كلمة « حضارة » إذ هو يسوق في صحيفته أن الرحالة الألماني الشهير الأمير بوكليير موسكاو جاب الجزائر وقام بجولة داخل القطر حيث احتفى العرب بقدمه أينما حلّ وأحسنوا ضيافته. ولما كان الأمير ينقل معه حملا من القوارير ملؤها أجود الخمر فقد كان يقدم منها من جهته إلى مضيّقيه من العرب. وتقول الصحيفة إن هؤلاء كانوا يتناولون الخمر بدون كبير إلحاح وقد قرعت الكؤوس على نخب الحاكم الفرنسي، كما أن قائد بني موسى ذهب إلى حدّ التفضل بقبول زجاجة من أرفع الخمر، وما هذه سوى بادرة من بوادر التمدّن. وهكذا نستنتج أن تقبّل زجاجتي خمر يعني بادرة تمدّن وأنّ شرب الخمر تقدّم في مجال الحضارة. وعلى هذا الأساس فإن ثقافة الإنسان، حسب هذا المحرر، تقاس بشرب الخمر فيقدر ما يشرب يرتفع مستواه الحضاري. ولو صحّ هذا لقلت أنّ مسلمي ساحل إفريقيا الشمالي حققوا خطوات جبّارة في مجال الحضارة، ويحتلّ حاليّا أهل طرابلس بالأخص مكانة مرموقة في العالم المتحضّر إذ نجدهم كلهم دون استثناء يشربون الخمر وقلّ أن اعترضني مسلم منهم لا يحب الخمر حبّا جمّا.

ويعيش هنا من اليهود حاليا نحو الألفين يسكنون حيّا خاصا بهم وبرسمهم ثمانين عشرة بيعة ومدرسة عليا لدراسة التلمود. ويترأسهم « قايد » من صلبهم يضطلع بمهام قاض أول فيما يتعلق بالقضايا المدنية. ويدفع اليهود إلى الدولة نحو ألف « تالير » في السنة وبوسعهم تعاظمي ما شاؤوا من المهن والحرف.

(29) هي صحيفة « Le Moniteur Algérien » وقد أفردت الرحالة الأمير بوكليير موسكاو ، في عددها الصادر يوم 13 مارس 1835 ، بمقال طويل ، لا شك أنه الذي يعنيه ايقالده هنا .

وكان عليهم فقط، فيما مضى، أن يحترسوا كي لا يصل مسمع يوسف باشا — الذي كان في حكمه أقسى من هيروديس — أنّ لديهم مالا. وقد وظّف هذا الباشا يهوديا ناظرا على السكّة فكان كل ما تضربه الدولة من نقد يمر على يديه. وبعد أن أشرف هذا اليهودي على قطاع السكّة سنين طويلا وتقدم به العمر أمر يوسف بمصادرة كامل ثروته وعيّن ابنه خلفا له. وما ان مرت فترة وجيزة على توليه الخطة حتى دعاه الباشا إلى تناول القهوة معه. وكانت القهوة مسمومة فمات الشاب المسكين تمزقه آلام قاسية. ولم هذه الجريمة ؟ السبب هو أن أحد غلمان الباشا ربط علاقة مع ابنة مولاه وصادف أن أبصرهما اليهودي يوما يتخاطبان. ثم أنّ الباشا اكتشف صنيع ابنته فاغتاظ شديد الغيظ من وقع العار الذي لحق بيته. وأمر بقتل العبد أشنع قتلة ثم تحرّى في معرفة ما إذا كان هناك أي شاهد على علاقة ابنته وعشيقتها. ومن سوء حظ ذلك اليهودي أنه لقيهما مرة في حديث وحتى لا يتفشّى السرّ تحمّن أن يموت. وبعد أن تمّ ذلك دعا يوسف شقيق الاسرائيلي المسموم إليه وأوكل إليه إدارة السكّة. وبعد أن باشر هذا الخادم الأمين وظيفته بكل حذق مدة ثلاثة أعوام رجا من الباشا أن يعفيه ويشقّل أحدا غيره. وقدم حسابا مضبوطا وسرى في اعتقاده أن طلبه حظي بالرضا. ودعاه يوسف إليه وقال له : « أعطني 600 « تالير » كي أقيلك من مهمتك. » فرد عليه اليهودي : « من أين لي بهذا المبلغ يا سيدي ؟ » فقال الباشا : « لا تماطل كثيرا، ادفع والآ رمي بك في السجن ونلت غدا مائتي جلدة على باطن قدميك ثم أفرض عليك 800 « تالير ». » وأصرّ الرجل المسكين مؤكدا على افتقاره إلى المبلغ المطلوب فرجّ به في السجن وجلد في اليوم التالي مائتي جلدة واشترط للإفراج عنه 800 « تالير ». ودفع الأقارب والغرامة فأطلق سراح مدير السكّة. ومثل هذا، بعد الإفراج عنه، أمام الباشا وقبل يده فتحجّرت فيه، أي الباشا، روح السخاء والكرم فوهب اليهودي « تالرين » اثنين على أساس أن يحضر لنفسه بهما طبيبا.

ولا تتوقف ممارسات القهر التي يزخر بها حكم يوسف عند هذا الحدّ. من ذلك أيضا أنه اغتال أخاه في عقر بيت أمه ودبر لقتل أخ ثان له، ولا

طرابلس في 20 سبتمبر 1835

تمثل مملكة طرابلس واحدة من أكبر دول القرصنة البائدة على ساحل أفريقيا الشمالي. وتمتد طولاً من زواره إلى « رأس هاله » (Ros Hala) 900 ميل أنكليز ويحدها شمالاً البحر الأبيض المتوسط وجنوباً تونس وشرقاً مصر وغرباً مملكة قزان. وما زال باطن القطر مجهولاً بالقياس إلى مملكة تونس والجزائر. واستناداً إلى أقوال العرب فإنه توجد في الداخل آثار هامة من عصور الزومان. وتقع على الساحل مدينة من أهم المدن هي بنغازي أو « برنيس » (Berenice) كما سماها القدامى. ولها مرفأً حسن نسبياً وتعد 400 ساكن [كذا]. ومن بنغازي تستورد الحامية العسكرية بمالطا غنم الذبيح كما يصدر من هناك الصوف بكثرة. وتقيم بنغازي عدة عائلات مسيحية يملك الكاثوليك منها كنيسة ويرعى شؤونهم الدينية أب كابوشي. كما يوجد نائب قنصل أنكليزي وآخر فرنسي. وتوجد قرب بنغازي آثار « بطليموس » (Ptolomais) حيث لا تزال تكمن أعداد من التحف العتيقة العجيبة. ويملك القنصل الأنكليزي بطرابلس مجموعة لا يستهان بها من هذه التحف كشفت عنها حفريات كلف بالقيام بها صهره، نائب القنصل بينغازي. وهي مجموعة لم يسبق لي قط أن شاهدت عيني أروع منها. ويجدر بالذكر أيضاً مدينتي « درنة » و « بنبه » (Benba)، الواقعتان فوق [كذا] طرابلس، لامتيازهما ببعض الأهمية. ويزدان الشريط الساحلي على طولته وعلى عمق بعيد بزراعة حسنة وبكثافة عمرانية هامة. وينمو بالخصوص النخل الذي يجد في هذه الأماكن وطنه الحقيقي. وتفضل تمر طرابلس على غيرها.

وعلى مسافة يومي سفر فقط من تونس [كذا] تقع آثار ليدو (Lepidus) أي بقايا المدينة الشهيرة المعروفة لدى القدامى بـ « لبتيس ماغنه » (Lepus magne). وهي من تأسيس الفنيقيين وتعد من أقدم مدن إفريقيا. وجاء عن بلينيوس أنها كانت تدفع للقرطاجيين خراجاً قدره يومياً « طالت » (Talent)

سبيل إلى حصر بقية ضحاياه الذين تعرضوا لنقمته. ويوجد في القصر جب عميق كانت تلقى فيه جثث القتلى. لكنهم كانوا أكثر مما كان للجرب أن يستوعب فتعين تنظيفه لكي يتسع لضحايا جدد. وحدث ذات مرة أن أثار أحد وزرائه جام غضبه فتقرر بذلك سفك دمه. وبعد مرور فترة قصيرة دعاه إليه وفاتحه في أمور عادية ثم قال له في الختام : « يمكنك أن تأتي غداً باكراً لتشاركني فطور الصباح. » وابتهج الوزير بهذه الحظوة وقبل يد مولاه وانصرف. وأكد عليه الباشا الماكر قائلاً : « لا تنس أن تحضر لفطور الصباح غداً. » لكن ما إن خطا بضع خطوات حتى انقض عليه مماليك وزهقوا روحه خنقاً.

وندد ذات مرة أحد شيوخ الأعراب جهراً بطغيان يوسف. فلما وصله الخبر عمل على جلبه إلى قصره إلى أن وقع في الفخ دون أن يتفطن إلى ما كان يترصده من شر. وكان يوجد في حضرة الباشا عربي فالتفت إليه قائلاً : « عندما ترى هذا الرجل المقبل علينا الآن ينزل الدرج منصرفاً اقتله وسأعيتك مكانه على رأس قومه. » وهناك حيث كمن القاتل الغدار في أسفل الدزج ودّع الباشا الشيخ تاركاً إياه يموت بطعنة خنجر. وقامت ضوضاء في القصر فأسرع الباشا إلى المكان وسأل عما جرى فأطلع على الجثة وعلى المجرم فصاح فيه : « أيها الكلب اللعين أتجرأ على اغتيال صديقي في عقر داري ! فليقطع رأس هذا اللعين في الحال. » ونفذ فيه الإعدام دون تأجيل.

وظفح الكيل باثام هذا الرجل وما هو سيّد كل الأسياد ينزل بالطاغية الهرم ما يستحقه من عقاب على تصرفاته فبعد أن انتزع منه كرسي الحكم، وجب عليه، وهو شيخ في الثمانين من عمره، انتهاء ما تبقى له من أيام منفياً في القسطنطينية، سنوذاً فقيراً.

جربة في 12 أكتوبر 1835

ها أنا ذا ثانية في هذه الجزيرة المليحة. لكن على عكس ما سبق لم أحظ هذه المرة بإقامة طيبة، وذلك لما وجب عليّ تحمّله من حجر صحي طويل المدى. لم تستغرق سفرة الإياب أكثر من يومين وما أن بلغنا جربة حتى فرض علينا الرضوخ للحجر الصحي طيلة عشرين يوما. وقد نزل عليّ هذا القرار نزول الصاعقة لأنني خشيت أن تكون إقامة طويلة كهذه في العراء، وتحت سماء كثيفة التّدي ليلا على العموم، فاتكة بصحتي وقد أخذ منها الانهاك مأخذا. لذا رأيّنتي أرسل في طلب مضيقي السابق، سيدي مصطفى، ملتسما منه المجيء فأتى. ورجوته أن يئذل ما في وسعه لكي يمكّنتني من غرفة آوي إليها لغجري عن أن أتحمّل طويلا ما فرض عليّ من ظروف قاسية. وكان الوالي يملك منزلا قرب البحر فأسرع إليه مصطفى حالا وبسط عليه وضعي الحزين والتمس منه الاذن في السماح لي بقضاء فترة الحجر الصحي في منزله هذا. فاستجيب للطلب وأفرغت لي غرفة من غرف المنزل وانتقلت إليها، وكاد هنائي يكون كاملا نسيبا، لأنني كنت محفوقا بأعز أصدقائي أعني كتيبي التي تفي بالحاجة. غير أنّ جيوشا من الذباب كانت تقاسمني الغرفة وبالتالي تمنعني من الكتابة وتعطلني حتى عن القراءة. ومكثت ليل نهار في حركة دائمة، تارة أثب من مقعدي أو مضجعي وتارة أرفس برجلي وتارة أخرى ألّوح بيدي وأحيانا ألقي بمنديل على وجهي. فكانت تلك أيام تعيسة لم تنزحزح إلا ببطء، ولكنها مرّت وانقضت بعون الاله وانفتح أمامي الباب فاستمتعت بطعم الحرية وبجمال الطبيعة التي تمتاز بها هذه الجزيرة.

ان المسلمين لعلّى جهل تام بمفهوم التدابير الصحية سواء تعلق الأمر بالوقاية من الطاعون أو الكوليرا. إلا أن الأوروبيين توصّلوا أخيرا بعد سعي حثيث الى فرض الحجر الصحي بمملكة تونس على سائر السفن الواردة من موانئ مشكوك في أمرها. ورغم الصّبة الرسمية التي يكتسبها هذا الاجراء

وما زالت بها أطلال معبد ماثلة للعيان وعدة أقواس نصر ومجاري مياه وأعمدة وغير ذلك. وقد أمر القنصل الأنكليزي بطرابلس بالحفر عن تحف فنية عديدة بعث بها الى أنكلترا. وما زال باطن الأرض يحوي العديد منها في انتظار محبي الفن من الأوروبيين ليكشفوا عنها.

وبقدر ما نرى حاليا نسبة السكان في مدينة طرابلس ضعيفة فهي مرتفعة في الأحواز القرية المعروفة بـ «المنشية» ويقدر مجموع سكان الريف في أحواز طرابلس بـ 300.000 نفس، يسكنون كلهم الجنان كما هو الحال في جربة تقريبا، حسبما سمعت. وترتفع في أحواز المدينة عشرة ملايين نخلة تدر عليها دخلا يناهز خمسة عشر مليون «غولدن» في السنة. وبالرغم من أن تربة منطقة «المنشية» تحتوي على نسبة من الرّمل فإنها مع ذلك شديدة الخصوبة. وينوّه أناس كثيرون بالمناخ المحلي وقد أكد لي القنصل الأنكليزي، المستقرّ هنا مع عائلته منذ أزيد من عشرين سنة، أنه فضلا عن الرّمد المنتشر بكثرة لا تعرف هنا أمراض على الاطلاق. وليس من النادر أن يعمر الأهالي الى ما بين 110 و130 سنة.

لقد وجدت أهالي المكان على قدر كبير من لين الطبع مما سهّل عليّ الدخول معهم في الحديث ومفاتحتهم في حقائق ديننا المنقذ. وينطبق الأمر على اليهود أيضا. وقد نفدت كل ذخيرتي من نسخ الانجيل، بعد أن وزعت منها رصيда لا يستهان به. وبفضل ذلك انتعش العديد من المسلمين واليهود والنصارى بكلمة الحياة. وأدعو الربّ أن ينفع من لدنه حقول الزرع بنفسه المحي حتى تخضر وتينع ويتصل خيرها الى دنيا الخلود.

بكونه قرارا صادرا عن الحكومة فإن عامة الناس لا يدركون جدواه وجدوى أمثاله من التدابير الوقائية وإن قليلا، وذلك، بدون شك، لتنافيها مع تعاليم دينهم. فقي تصوّرهم أنّ الانسان يموت حتما إذا حضر أجله، سواء أكان هناك حجر صحي أم لم يكن. ونجد هذا الاعتقاد راسخا حتى في أذهان أكثر العرب ثقافة. فقبل بضعة أيام قدم أحد سكان الجبال الى سوق جربة وبعد قضاء شؤونه أراد على عادته التنزه على شاطئ البحر. ولكن لسوء حظه أتى على مقربة من محطّ القادّمين من طرابلس، فصاح به الحرس : « ابتعد ! هنا « الكارانتيليا » » — ذلك أن الأهالي المسلمين ينطقون « كارانتيليا » عوض « كارانتان » (30) — واندھش « الجبالي » لللفظة لم تطرق مسمعه من قبل وظن أن هناك حيوانا عجيبا أو وحشا بحريا وظن الطائفة من البشر الموجودين على عين المكان مجتمعين للفرجة على الحيوان العجيب فرأى أنّه من حقّه أيضا الفرجة واشباع الفضول وقصد المكان. عند ذاك هتف جندي الحراسة بأعلى صوته : « كارانتيليا ! كارانتيليا ! » والتفت الأعرابي حواليه فلم يستجّل ما يثير الانتباه. وأدّى الهتاف المبرح الى مجيء « راييس المرسى » الذي أمر حالا بطرح ساكن الجبل المذهول أرضا وجلده عشرا على باطن قدميه. وبعد تنفيذ العقاب شرح له معنى كلمة « كارانتيليا ». حينئذ صاح رجل الجبل مندهشا : « يا للنصارى ! يا لهم من قوم حازمين ! حتى الموت يعرفون له حيلة ويقاومونه. لكن لم لم تشرحوا لي هذه اللفظة البشعة من قبل ؟ ».

حلّ بحرية جمع من المغاربة كانوا في طريق العودة الى وطنهم بعد أداء مناسك الحج بمكة. ولما كانوا قد أتوا عبر طرابلس فقد وجب عليهم قضاء فترة الحجر الصحي المكروه. وهو بالنسبة الى المسلم بمثابة قسر فطّيع سواء بسبب فطرته على الحرية أو من أجل مبادئه الدينية. ولتلافي هذا العبء قرّ

في إحدى الليالي ثلاثة من الحجيج الى الجبال. وفي الصباح التالي وقع التفطن الى هروبهم وأخبر « راييس المرسى » بما حدث، فلم يلبث أن قدم ومعه بعض رجاله يحملون الأغلال الطويلة وأمر تَوّا بتكبيّل كل المغاربة بهذه الأغلال لمنعهم من الفرار.

وانقضت أمس الأول فترة حبسنا ودقت ساعة خلاصنا واستعد رباننا للانطلاق صوب صفاقس. بيد أنه تعيّن أولا أن نحصل على شهادة من الوالي تثبت أننا قد أدّينا الحجر الصحي لتفادي إعادة الكرة والسجن الطويل في مكان ثان. ألا أن الوالي كان يقطن على مسافة عشرة أميال من الشاطئ. ولذا رأيتني يوم اطلاق سراحي أقصد المحكمة لسحب الوثائق اللازمة. وعند وصولي وجدت نائب الوالي فرجوتة أن لا يزيد في تعطينا وأن يسلمنا الشهادة : فضحك وقال : « الحقيقة أنني لا أحقق فن الكتابة العظيم. » فقلت له : « بوسعي أن أقوم بتحريرها، قل لي فقط ما يجب أن أكتب وما عليك إلا أن تضع الختم الرسمي. » فردّ نائب الوالي : « ليس لدينا الآن ورق ولا حبر ولا أقلام. » واستوجب أولا أن أرسل في طلب هذه الأشياء الى سيدي مصطفى فأحضرت وحررت الشهادة المنشودة فإذا بي أسمع أن الختم لدى الوالي. فتحتم مرة أخرى أن أبعث مرسولا استعجاليا الى مقام الوالي الذي يبعد عدة أميال داخل الجزيرة، حتى يضع الختم على الوثيقة والأ ما صالحت. وسوف نتسلمها في هذا المساء ونبحر على بركة الرّب.

(30) تداولت فعلا في البلاد التونسية اللفظة الأجنبية «Quarantaine» ببعض التحوير، للتعبير عن إجراء الحجر الصحي الذي صار معمولا به خلال القرن التاسع عشر بالخصوص في فترات الأوبئة.

تونس في 24 أكتوبر 1835

عدت، ولله الحمد، سالما الى تونس بعد غيبة استغرقت حوالي خمسة أشهر. وكانت رحلتي من جربة الى هنا طيبة إجمالا. ووجدت على متن سفينة تونسية صغيرة تسمى « شبيكه » (Schebecka) متسعا من الوقت للتفكير في شأني وفي شأن البقاع التي تستنى لي بفضل رحمة الاله جوبها. واستحضرت في ذهني كل المواقف والمشاهد وتعاقبت في مخيلتي وكأنها لوحات حيّة [...]

وكان من بين رفاقي في السفر مملوك عجيب أمره قدم مثلي من طرابلس الى تونس. وكان هذا الشاب قد اختطف من قبل مختطفين بشر وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره، بينما كان يرعى الغنم، وفصل عن والديه المسيحيين وعن وطنه الأصلي، جيورجيا، ثم جلب صحبة صبية آخرين الى العاصمة التركية حيث تمّ عرضه وبيعه كعبد من العبيد. وكان مولاه الأول أحد الباشوات، فصيره، وهو الصبي في الثامنة من عمره، مسلما وأطلق عليه اسم « رستم » وبعد أن لقّن كل ضروب الرذيلة وفنون الدسيسة، أعطي هدية الى باشا ثان وبهذه الصفة وقع تداوله وهو حدث يافع عدة مرات من سيّد الى سيّد، أي أن الواحد كان ينيله للآخر بوصفه أداة ملائمة للغاية، وجاء في آخر المطاف في حوزة نديب باشا الذي اصطحبه معه الى طرابلس. ولما دعي هذا الباشا للعودة الى القسطنطينية خطر له أن يقدم رستم هدية الى باي تونس (31). وكلّف رستم بأن يحمل نفسه بنفسه الى مولاه الجديد. ومنذ أن كنّا في جربة خلال الحجر الصحي، تستنى لي ربط الصلة به

(31) لعله المملوك رسم الذي لعب دورا خطيرا في بلاط أحمد باي ومن خلفه وتدرّج في الخطط العسكرية والوزارية وفاد مثلا « محلة » لاختماد ثورة علي بن غداهم سنة 1864 .

والدخول معه في أحاديث مطولة. وأعرب يوناني وجيه كان موجودا بالجزيرة آنذاك عن استعداد لارجاعه الى والديه. ولكن بدا في بعض اللحظات كأن رستم على وشك الانصياع الى مشاعره النبيلة والاستجابة للعرض، فانه تشبث في أوقات أخرى بالحلم بما كان يترقبه في تونس من حظوظ الرقي والعظمة، وبالتالي رفض رفضا قاطعا العودة الى والديه والى مسقط رأسه. وكان رستم لا يزال يذكر والديه المسيحيين جيّدا ويحذق حتى سرد بعض الصلوات المسيحية عن ظهر قلب في صيغتها اللاتينية، كما كان يتكلم، فضلا عن التركية، اللغة اليونانية الحديثة والايطالية. ولما كنت ركّزت الحديث معه على مسألة خلاصه فقد انجرّ عن ذلك حتما أن ثار اهتمامه ونما تدريجيا. وكان في بعض الأحيان شديد التأثر بأقوالي، لا سيّما حين علم بوجود أحد أبناء قومه سجيناً في جربة وكان أيضا مملوكا لدى بلاط تونس، وها هو يرسف في الأغلال منذ ما يزيد على ثلاث سنوات. حينذاك صاح رستم قائلا : « ما أسهل أن أقع بدوري في نفس المصير ! يا ليتني أعود الى أهلي ومسقط رأسي ! » وقبل مغادرة جربة قام رستم بزيارة ابن قومه في سجنه فقص عليه هذا الشقي أسباب بليته ومفادها أنه كان يشغل خطة نقيب ضمن جيش تونس الحديث التنظيم فتعرض، دون أن يفهم السبب، لبغض صاحب الطابع. وخرج معه مرّة لجبي الأموال عبر البلاد حتّى أتى قابس. وهنا شعر باعتلال فقال له صاحب الطابع : « اذهب الى جربة للراحة والاستجمام وسأعطيك خطابات توصية. » وأبحر النقيب الى جربة رفقة بعض رجاله، ولدى وصوله سلم الخطابات فأحسن استقباله والترحيب به وسئل عن المكان الذي يريد النزول به، بوعد أن يلبي طلبه، وعرضت عليه شتّى المنازل وكذلك القلعة في آخر الأمر، بدعوى أنها تشتمل على أفضل الغرف وأوثرها. وقصد القلعة لمعاينة المكان. وما أن طاف في أرجائها قليلا حتّى انقضّ عليه الجند وكبّوه بالسلاسل وزجّوا به في السّجن. وهذا التعيس يقبع الآن هناك ربّما الى آخر أيامه.

تونس في 24 نوفمبر 1835

بدأت تدخل على تونس أوجه التجميل يوما بعد يوم. فقبل بضعة أعوام كانت الأوساخ تغشي الأنهج بصورة لا توصف. ففي موسم الأمطار كنت ترى بعض الأزقة تنسد إلى حد أن عبورها يصير مستحيلا، وفي الصيف تصدر منها روائح لا تطاق. أما الآن فهناك عربة تجوب كل صباح مختلف أحياء المدينة وتجمع القمامة، فحصل للمدينة بذلك كسب عظيم. وما كان يتخذ هذا الاجراء على الاطلاق لولا ظهور الكوليرا في الجزائر المجاورة، مما جعل الأوروبيين يخشون فتك هذا الداء فسعوا إلى حمل الحكومة على تبني المقترحات التي تقدم بها القناصل الأجانب حتى توصلوا إلى ذلك أخيرا. وهناك انجاز لائق آخر كرسه معشر التجار [الأجانب] في تونس، يتمثل في ناد للمطالعة أو « كازينو »، فتح أبوابه منذ بضعة أسابيع. ويؤدي هذا المحل في نفس الحين وظيفة « بورصة » (مصفق).

يخيم منذ بضعة أشهر قلق كبير يرتبط باشاعة مفادها أن الأتراك ينوون التصرف حيال تونس مثلما تصرفوا ازاء طرابلس. وقيل أيضا ان السلطان الأعظم بصدد تجهيز أسطول بحري سيوجه إلى هنا. زد على ذلك أن صاحب الطابع الذي أبحر منذ زمان إلى القسطنطينية في طلب القفطان للباي الجديد أبطأت أخباره. غير أن التخوفات من هذه الناحية تبددت وتشتت فقد عاد إلى تونس منذ بضعة أيام بعد أن أدى مهمته بما فيه رضاء الباي التام. وقد انقضت أول أمس فترة حجره الصحي وتحوّل اليوم في موكب رسمي إلى محله الرفي المعروف بـ « سيدي اسماعيل » والواقع بين تونس وباردو، حيث يقيم الباي. واعترضه للاحتفاء بقدمه، في منتصف الطريق بين تونس وحلق الوادي، أعضاء الديوان راكبين الخيول. كما تقدم لاستقباله ثلاثة آلاف رجل وواكبوا مبعوث الباي إلى منزله. وكان موكبا حسن الترتيب، جاء في طليعته أعضاء الديوان، وكلهم شيوخ مهيبو الهيئة، ثم تلاهم

وفي بداية سفرنا ما انفكت الريح تهبّ عكس وجهتنا، لكن رغم ذلك بلغنا مرفأ صفاقس سالمين بعد ثمان وأربعين ساعة. وكانت هناك قافلة تنأهب للرحيل من الغد إلى تونس فقررت الانضمام إليها.

ووصلت بنا القافلة دون أيما تعطيل. فقد بارحنا صفاقس في السادسة مساء وسرنا كامل الليل وفي الثامنة صباحا دخلنا الجهم، هذا المكان الذي ظلت تربطني به ذكريات عجيبة. واضطررنا بسبب رياح لافحة جدا، يقال لها « القبلي » إلى أن نبقى بالمكان طوال النهار. ومع حلول الليل ارتحلنا وبعد أن قطعنا مسافة ستة وثلاثين ميلا وصلنا إلى جمال في الصباح. وهي قرية كبيرة سبق أن قام أهلها بثورة ضد الحكومة فهذمت ديارهم ومنع عنهم منذ ذلك الحين البناء بالحجارة وفرض عليهم الاقتصار على الطين، لذلك نجدهم اليوم يسكنون كلهم أكواخا حقيرة. وعند حلولنا بالمكان كان القوم صغارا وكبارا بصدد إقامة مزار خارج القرية، إكراما لبعض الأولياء ووقف بالقرب من العاملين بعض الرجال بالطبول والمزامير لحنهم على العمل. ثم واصلنا السير حتى بلغنا، بعد يوم شاق، هرقلّة، ومنها سرنا يوما آخر إلى قرمبالية. وشاهدت آثارا كثيرة لم تعترضني في الذهاب، لاختلاف الطريق المتبعة في الاياب. ومررنا بموقع يحوي أربعين من أضرحة الأولياء المسلمين، تزين كل ضريح منها نخلة ويسوره حائط. ويدعى المكان « الأربعين »، ورأيت قائد القافلة يرفع خففات من تراب هذه الأضرحة ويذروها على الخيول والبغال. وسألت عن سرّ هذا الصنيع فقبل لي : لكي تقوى الدواب وتسمن. وانتهينا أخيرا إلى قرمبالية التي كانت لنا آخر مبيت قبل تونس حيث وصلنا سالمين في اليوم الموالي. فسبحي بحمد الربّ يا نفسي ولا تنسي فضله عليك !

صاحب الطابع، يمتطي فرسا فاخر الزينة، ويرتدي بزّة « الجنرال » الحديثة العهد، وهي زرقاء وموشاة بكتفيات مذهبة. وكان يمسك في يمينه بكيس من الحرير الأزرق، احتوى على « الفرمان »، أي وثيقة الاعتماد من لدن الأمبراطور التركي، وفي يسراه أيضا كيس حريري أزرق، حمل السيّف الذي بعث به السلطان الأعظم الى باي تونس. وجرت يوم أمس بيعة الباي الرسمية. وتحولت بالمناسبة الى قصر باردو لمتابعة هذا الحفل، فشاهدت ما يلي : في باحة القصر الأمامية الفسيحة انتصب تحت الحكم، وفي حوالي الساعة الثامنة ظهر الباي يحف به سائر الأمراء وخلفهم جلادو الباي الخمسة [الشطّار] في بدلاتهم الحمراء. وبينما ارتقى الباي عرشه وتبوّأه، اصططف الأمراء يمينا والجلادون يسارا والى جنبهم كبار رجال الدولة. ثم هتف رئيس الجلادين [باش شاطر] عبارة السلام بصوت جهوري وتداول كبار رجال الدولة على الباي يقبلون يده. وتلاههم كافة أعضاء الديوان الذي يتكوّن من 300 من « الأضه باشي » و 400 من « البلق باشي ». ذلك أنّ الحكومة بأسرها تركية الأصل وبالتالي وجب أن يكون كافة أعضاء الديوان من فصيلة الجند ومن أصل تركي. ومنذ الولادة يجرى للطفل التركي الأب مرتّب يومي من خزينة الدولة قدره « ناصري » واحد، وعندما يبلغ الطفل سنّ الخامسة عشرة يدرج في قائمة الجند ويصبح مرتبه أربعة « نواصر » في اليوم. وبعد مدّة من الخدمة العسكرية يتسنى له الارتقاء الى رتبة « أضه باشي » ثم الى رتبة « بلق باشي » ويصبح بذلك عضوا في الديوان.

وكان الجيش العامل فيما مضى مقتصرًا على الأتراك لا يدخله أحد من الأهالي المسلمين. وليومنا هذا ما فتئت الحصون المنتشرة في أرجاء القطر تحت نظر الأتراك دون غيرهم. ولكن نظرا لما أدخل على الجيش من تنظيم جديد ولأنه صار يعدّ حوالي خمسة آلاف رجل من كل فئات الشعب فإن « الميليشيات » التركية أخذت تفقد من نفوذها يوما بعد يوم وليس من المستبعد انها سوف تحلّ تماما في وقت آت. وكان أعضاء الديوان في سابق الأيام يلبسون لباسا في منتهى الغرابة، أما اليوم، واقتداء بما كرّسه السلطان الأعظم فقد أضحي زيهم برمته يميّز بالبساطة وتخلّوا، كما حصل في هذا

الحفل، عن العمامة وظهروا متقبّعين بالقبّعة الحمراء أو « الشاشية ». وعلى اثر رجال الديوان توافد كافة الضباط وضباط الصف التابعين للفيلقين الجديدين، القائمين حاليا. وفي الأخير لحق القناصل الأوروبيون. ولم يخصّ بمقعد للجلوس سوى أعضاء الديوان. ولما التأم شمل كل المدعوين للحفل والتفوا حول العرش جيء بالرايات وبـ « الطوغ » وفي نفس الآونة ظهر صاحب الطابع حاملا القفطان الذي أتى به من القسطنطينية والذي تألّف من جلباب ومعطف. وفي الحين ارتدى الباي هذا اللباس ثم رشق على صدره الوسام الألماسي المبعوث اليه من لدن السلطان، كما قلّد السيّف الجديد. بعد ذلك تمت تلاوة فحوى فرمان السلطان الأعظم وعدد من رسائل التهنئة، جيء بها من القسطنطينية الى الباي. وأفسح المجال للحاضرين لتقيل يد الباي، وحتّى القناصل الأوروبيون تقدّموا ليقبلوا يد صاحب السمو المسلم. ودوت الموسيقى العسكرية كما وزعت القهوة على الحاضرين. والجدير بالاشارة أنه من المعتاد أن توجه الدعوة الى القناصل النصارى في مثل هذه المحافل التي يقيمها البلاط. وهو ما حدث في السنة الفارطة بمناسبة زفاف أحد أبناء الباي الراحل، الذي ألحق بنسائه الأربع خامسة. وكانت العروس ابنة « الباش مفتي » (32) أي كبير رجال الدين. واستدعي القناصل في اليوم السابق لحفل الزواج. ولما ترفع القنصل الأنكليزي عن الحضور أو تعذر عليه ذلك فقد وضع عربته الخاصة تحت تصرّفه فتحوّلت الى قصر الباي صحبة القناصل المقيمين بتونس. ولما وصلنا سارت بنا العربة عبر رواق مقنطر مغطّى يمتد حتى مدخل الباحة الأمامية، انتصب على جانبيه حشد من المماليك المسلحين. ونزلنا في الباحة الرحبة قبالة القصر فإذا بها مايعة

(32) كان ذلك حفل زفاف محمد بن حسين باي بابنة « شيخ الاسلام أبي عماد الله محمد بن محمد بيرم » (انظر ابن أبي الضياف : « اتحاف أهل الزمان » الطبعة الثانية ، تونس 1979 ، ج 3 ، ص 202 و 242) مع العلم أن ابن أبي الضياف يلاحظ أن هذا الزواج كان الثاني بالنسبة إلى محمد باي وليس الخامس كما يزعم ابناؤه .

بجموع غفيرة من العرب والحضر المسلمين، أتوا لتهنئة الباي. واقتدنا الى غرفة سكرتير الدولة الأول، وبعد هنيئة أعلمنا بأن الباي مستعد لاستقبالنا. واقتدنا الى قاعة الباي الكبيرة الفاخرة داخل القصر وقد جلس على بابها جمع من الجوارى عكفن على العزف والغناء. وكانت القاعة التي اليها دلفنا عديمة النوافذ، لا ينيرها سوى نور شمعان واحد، ناهيك أني في البداية لم أبصر شيئا وتلمست طريقي كالأعمى. ولكن سرعان ما خفت حدة هذه العتمة فلمحت في ضياء الشموع الشاحب الباي في قاع المجلس متبوءًا تختا. وكان يرتدي لباسا من الحرير الأزرق ويحمل في حزامه خنجرًا من ذهب وفي اصبعه حجرة ألماس كبيرة ترسل في القاعة المظلمة شعاعا بديع الألوان. واقترب القناصل من صاحب السمو المسلم وقبلوا ظهر يده. وهذه الجهة مقتصرة على النصارى، لا يحظى بتقيلها سواهم، أما المسلمون فمن نصيبهم الكف فقط. وحظيت أنا كذلك بما حظي به القناصل من شرف، ثم أخذنا أماكننا على يمين الباي وعلى يساره. حينذاك أمكنني أن أجيل بصري قدر المستطاع، فيا لدهشني ويا لعجبي! لقد خيل إلي من أول وهلة كأنني أجد نفسي فجأة في قصر من قصور الأساطير العجيبة. كانت جدران القاعة مجللة ببطانة مطروزة بالذهب، واصطففت عرض الجدران كوكبة من النساء يرقلن في الحلبي، كما زحرت المحيطان قبلتنا بالخناجر والسيوف والبنادق، كلها مطعم بالذهب والأحجار. وانتشرت بلا نظام الساعات والتحف من الفخار الممتاز وشتى أنواع الأثاث الجيد الصنع والأروبي الطراز كما فرشت الأرضية بأنفس الزرابي. وأحدث كل هذا، أي عتمة القاعة الشاحبة الانارة وبريق الذهب ووميض الأحجار الكريمة ورنين الساعات ودقها المسترسل وحضور مجمع البلاط قاطبة والقناصل النصارى والباي صحبة أفراد أسرته أجمعين، في نفسي وقعا عجيبا. وبعد استراحة قدمت المرطبات وتعال، ونحن نتناولها، نغمات الموسيقى العسكرية خارج القاعة. وتوجه الباي الى القناصل بأسئلة عادية من باب المجاملة، أجيب عنها على نفس الأساس. ومّرت زهاء النصف ساعة ونحن جالسون وسط هذه القاعة السحرية ثم نهض الباي، معلنا بذلك نهاية المقابلة. وعلى اثر ذلك وقع الطواف بنا عبر

سائر غرف الحريم وأطلعنا على ما حوته من تحف ونفائس. وامتازت بالخصوص غرفة العروس وفاقت غيرها جمالا وأبهة. ولما أنهينا الفرجة عدنا فوجدنا الباي وحاشيته واقفين وسط قاعة فسيحة، وهنا ودّعنا في منتهى البشاشة.

وفي نفس اليوم وعلى الساعة الثالثة مساء [كذا] انتقلت العروس الى قصر باردو، واحتشدت جموع غفيرة من الفضوليين على قارعة الطريق الرابطة بين تونس وباردو بغية مشاهدة الموكب وأقام العرب سباقا للخيل ومرحوا بشتى ألعابهم القومية في نفس الطريق المؤدية الى باردو. ويتمثل سباقهم ولعبهم بالخصوص في العدو السريع على ظهور الخيل وشحن بنادقهم الطويلة أثناء العدو واطلاق النار منها. وفي الساعة الثالثة اجتاز ركب العروس أبواب المدينة وتحرك بتودة صوب باردو. وسارت في المقدمة ثمان وعشرون عربة مغلقة جلس فيها أهل العروس من النساء ثم تلتها عربة العروس تجرها ثمانية بغال يمسك بزمام كل منها اثنان من الحرس المترجلين في حين التفت كوكبة من الخيالة حول العربة تسايرها على نفس النسق البطيء. واقتفى أثر عربة العروس سرب من العربات الاضافية ومن الخيول. وفي اليوم التالي استدعيت نساء القناصل لرؤية العروس، وهي حظوة يحرم منها الرجال. وأكرمت ضيافة السيدات بما طاب ولد من المأكولات والمشروبات ثم اقتدنا الى غرفة العروس فوجدناها منتصبة على تخت عال وكأنها تمثال، مغمضة العينين مثقلة بالمجوهرات. وكان لا يحق لها الحراك أو فتح العينين بل كان من واجبه المكوث طول النهار فرجة للأعين.

وبعد مضي زمن قصير على هذا الحفل تسنى لي حضور حفل زفاف صاحب الطابع الأسبق من احدى بنات الباي (33). وقد تخلل هذا الحفل حدث طريف. ذلك أنه عندما خلا صاحب الطابع لأول مرة بعقليته، عمدت

(33) ذكر في « اتحاف » ابن أبي الضياف أن عرس شاكير صاحب الطابع باهنة حسين باي سبق زفاف محمد باي (انظر : « اتحاف » المصدر المذكور ، ص 242) .

هذه الى دوس قدمه برجلها وفي ذلك رمز للاذلال ومعناه أن الرجل عبد والمرأة سيّنته، فهي الأميرة يسري في عروقها دم السيدات. وعلى هذا الوجه فهم الوزير الأنوف هذه المبادرة. فغادر الحجرة والغضب يملأ صدره وقصد الباي تّوا وطالب بالقصاص عمّا لحقه من اهانة. ووقع الباي وأهل البلاط في هلع عظيم وبادر الباي حالا باستنطاق جميع نسوته لمعرفة من حرّض الأميرة الشابة، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، على صنيعها المنكر. واتضح أن النصيح جاء من أخت العروس، هي بدورها زوجة لمملوك سبق له فيما مضى أن تسّم أعلى المراتب (34). ونالت المرأتان ما استحققتا من العقاب. وبارح الوزير المهان تونس في نفس اليوم وقصد داخل البلاد لابتزاز الأموال. ويحدث ذلك على المنوال التالي :

من المعتاد أن تجبى الضرائب مرتين كل سنة، ولهذا الغرض ينطلق الوزير من تونس الى داخل البلاد على رأس حوالي مائتي رجل. لكن حشده لا ينفك يزداد عددا كلما تقدم به السير لأن العديد من رجال العرب ينضمون الى صفّه تدريجيا وفي الختام يكون قد جمع حوله فيلقا يضمّ بين ألف وألف وخمسمائة رجل. وفي الاياب يتقلّص هذا الحشد تدريجيا وعلى نفس النسق الذي نشأ به في الذهاب، كلّما اقترب من تونس. وبهذه الصفة تستوعب خزينة الدولة مرتين في السنة دخلا ذا بال. لكن بالاضافة الى ذلك فان الباي يستخلص أداء جمركيا قدره خمسة بالمائة على كل بضاعة مستوردة. والغريب في الأمر أن رجال الدين المسلمين — علما بأن قسما كبيرا منهم ينتمون الى طائفة التجّار — والأوروبيين لا يؤدون سوى ثلاثة بالمائة في حين يفرض على اليهود والمسلمين خمسة بالمائة. الا أن هؤلاء عادة ما يجدون سبيلا للتحيّل على الباي وذلك بأن تصلّ جلّ البضائع المستوردة من الخارج باسم تجار نصارى مقابل مكافأة طفيفة ولا يكون من نصيب الباي سوى

(34) لا شك أن المعقبة بالأمر هي كبورة ابنة حسين باي وزوجة حسين نخوجة باش مملوك الذي كان وزير هذا الباي الأول ثم أفضي سنة 1829 وعوّض بشاكير صاحب الطابع .

ثلاثة بالمائة. ثم ان الباي يطالب بالربيع على كل المنتوجات الحاصلة في البلاد. ولو كانت الفلاحة في هذا القطر على ما هي عليه في ألمانيا لكان دخل الباي، باعتبار خصوبة الأرض الممتازة، لا يحصى ولا يعد. لكن هذه الضريبة أدّت الى جعل مسلمي المذن وعرب البادية، الكسالى بطبعهم، يزدادون كسلا وتقاعسا. فأنت تسمعهم يقولون : « لماذا تريدنا أن نلهث طوال السنة لصالح الباي ؟ » وبالتالي نجد مساحات شاسعة من هذا القطر تظل بورا جرداء [...] .

تونس في غرة ديسمبر 1835

« قولانه » أو « حلق الوادي »، كما يسمي الأهالي المسلمون هذا المكان، لوجوده على مصب قناة تصل بين البحر وبحيرة تونس، هو أهم مرفأ بالنسبة لكل السفن القادمة من أوروبا أو غيرها من البقاع. ولأجل ذلك فإن المكان محصن ويشتمل على بطارتين مدفعتين هاتتين. بيد أن مدافع كليهما المتعددة في حالة سيئة نظرا لتعرضها مباشرة لحرارة الشمس ولتساقط الأمطار وعدم العناية بتنظيفها أبدا. ولا تستعمل هذه المدافع إلا نادرا، وذلك في حالة أداء التحية لبعض السفن الحربية الأجنبية فقط. وتربط في هذا المكان حامية تعدّ حوالي مائتي رجل كما توجد ترسانة الدولة وسجن المجرمين. وقد استوطن المكان عدد من النصارى وبضع أسر يهودية تتعاطى التجارة. كما يقيم هنا حاكم [كاهية] يشرف على حراسة القلعة التي يعيها الأهالي المسلمون أهمية قصوى. أما أنا فلا أظن الموقع يصمد لأكثر من اثنتي عشرة هجمة بقذائف مدافع السفن الحربية الأوروبية. ونظرا لافتقار ميناء بآتم معنى الكلمة فإنه يتعين على السفن الواردة الإرساء عرض البحر على بعض المسافة من حلق الوادي. ولا يخلو هذا الوضع من الخطورة في كثير من الأحيان لا سيما في الشتاء. فعندما أتيت لأول مرة شاهدت أشتاتا من حطام سفن أهلكتها عاصفة قبل فترة وجيزة. وقبل بضع سنين رزى الباي بفقدان كامل أسطوليه في الموضع من جراء عاصفة. وعندما تحل سفينة من الخارج يبادر قائدها بالنزول إلى البر ليوافي الحاكم بالارشادات عن مآناه وحمولته من البشر والسلع ويبدد الحاكم القرار في النزول أو الرفض. وفي حالة الترخيص بذلك فإن القادمين يستقلون قاربا يقلهم عبر القناة إلى بحيرة تونس ويرسي بهم بعد ساعات قليلة عند أبواب الحاضرة. ويبلغ طول هذه البحيرة خمسة أميال وعرضها ميلين كما أنها تغطي جزءا من آثار قرطاج العتيقة.

ويقدر محيط مدينة تونس بحوالي خمسة أميال أنكليزية. وتحدها البحيرة شمالا وآثار قرطاج غربا والمقبرة الرحبة شرقا والقصبة، التي كانت فيما مضى مقر إقامة الباي، جنوبا. ويمتد أقصى طرفيها من الغرب إلى الشرق، في حين لا يتجاوز قطرها من الشمال إلى الجنوب نصف ميل تقريبا. وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أجزاء، هي « المدينة » وربضا « باب سويقة » و« باب البحر ». ويفصل المدينة ذاتها عن ربيضها سور مرتفع له خمسة أبواب. لكن ثمة سور ثان يحيط بالكل، تعلوه هنا وهناك بعض المدافع المهملة، ويشتمل على أحد عشر بابا. ولكل جزء من أجزاء المدينة ما يعرف بـ « شيخ المدينة » أي ما يضاهي رئيس الشرطة، يضطلع، على وجه التدقيق، بالحراسة الليلية. وتتميز الأنهج هنا بالاتساع وحسن العناية إلى حد ما، علما بأن حسن العناية هذا صار حديثا يقرأ له ألف حساب. ويتسنى في غالب هذه الأنهج، ولا سيما أنهج المدينة ذاتها، التنقل العربات.

ونظرا لكون تونس عاصمة البلاد، ترد إليها كافة متوجات أقاليمها تقريبا، ومنها يشتري ما تحتاج إليه هذه الأقاليم، فالمدينة بأسرها أشبه شيء بسوق عظيمة. ونجد في الأرياض أسواق الفواكه والخضر والزبد والبيض والزيت والطيور الداجنة والغنم والخيول والفحم والحطب والجلد ونسيج الأشرطة وغيرها. ويشرف على كل سوق ناظر خاص بها يقال له « أمين » يجبي الأداءات التي تؤجر الدولة حتى استغلالها إلى المزايد الأعلى. وتوجد في قلب المدينة سوق التوابل (35) وهي من أجمل الأسواق، ثم أسواق الفضة والذهب والجواهر والتعال والملايس وسوق العبيد. وتختلف الممارسات التجارية المحلية كل الاختلاف عما هو مألوف في أوروبا. فلكل سوق عدد من السماسرة يعملون ضمنها. وابتداء من التاسعة صباحا تكون السلع معروضة للبيع ويفد الشراة ويقفون على جانبي السوق، ويأخذ السماسرة البضاعة ويتنقلون بها جيئة وذهابا وهم يرددون يراحا : « تسوى هذه القطعة كذا وكذا فمن يزيد ! » والمزايد الأعلى هو الذي يحصل على البضاعة

(35) لا شك أنه يعني ما يعرف بـ « سوق العطارين » .

المعنية. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة يتوقف نشاط السوق وتعاد السلع التي لم تبع الى أصحابها في انتظار عرضها ثانية من الغد. ومن غريب العادات هنا أيضا ما يتعلق بأرباب الحرف الصناعية على مختلف اختصاصاتهم. فهم لا يختلطون بعضهم ببعض من حيث السكن بل تستأثر كل طائفة منهم بشارع. فحيث تصنع الأحذية لا تجد ديارا لغير الأساكفة وحيث تباع الملابس لا يقطن سوى الخياطين، وهكذا دواليك. ويقف على كل صناعة رئيس طائفة، كما يعتبر معشر التجار أيضا طائفة. وترفع الشكايات ضد مختلف أصحاب الحرف في نطاق مهنتهم لرئيس الطائفة. ويشكل رؤساء الطوائف ما يضارع المحكمة التجارية، تهتم بالسهر على مصلحة المرؤوسين.

ومن العسير البت في عدد السكان على وجه الدقة نظرا لافتقاد سجلات الولادات والوفيات ولأن كل من سأله من المسلمين أو من اليهود يدلي بأرقام مغايرة، فهم يعتبرون إحصاء السكان إثما. وعلى هذا الأساس تنعدم أدنى ركيزة وثقى على هذا الصعيد. وقد قيل لي في بداية إقامتي بتونس انه يعيش هنا نحو 120.000 نسمة، لكن يغلب عليّ ظني بالأحرى أن عددهم يناهز المائتي ألف. ويستند رأيي على ما لاحظته من حشود المارة التي تعج بها الأنهج جيئة وذهابا وعلى كثرة الديار وهي تفوق الاثنى عشر ألفا. وقد تسنى لي أن أشاهد بأمر غيتي في بعضها خمسين أو ستين متساكنا، دون أن تكون هذه أكثر الديار تراصا.

وينقسم سكان تونس الى مسلمين حضرّ وعرب وأتراك وزنوج ويهود ونصارى. ويتألف لباس المسلمين الحضري من سروال رحب فضفاض وسترة مستديرة الشكل تلبس فوقها ثوب عادة ما تكون موشاة بتطريز ذهبي غزير. ويلف حول الحزام نطاق تتفاوت جودته بحسب ثروة صاحبه. أما الجوارب فيندر لبسها، ويتوقف ذلك على الشيوخ، والّا فإن الأقدام تبقى عارية في أخفافها. ويسدل فوق الكل قفطان هو بمثابة المعطف. ولما يبلغ الشاب الثانية والعشرين من عمره يلبس العمامة ويترك لحيته تنمو وهي زينة الرجل المفضلة. وبقدر ما تزداد طولاً تكسب جمالا. ان مسلمي هذه المدينة لقوم

يتحلّون بآداب راقية حتى أنّ سلامهم يكاد لا يعرف نهاية. فتسمعهم يسألون: « كيف الحال؟ كيف الصحة؟ أنت بخير؟ هل من سوء يترصدك؟ أنت بخير، أليس كذلك؟ الحمد لله، أنت بخير! » ويجيب الطرف الآخر: « بارك الله فيك! سلام الله عليك! أطال الله أيامك! أطال الله أعوامك! الله يمنّ عليك بكل خير! » وهي عبارات تلفظ على وجه السرعة وباسترسال. وترى كل واحد يسعى دوما الى أن يسبق صاحبه بالسؤال لذا فإن نفس العبارات تعاد وتكرر إلى حدّ يستثقله الأوروبي ويضيق به ذرعا.

ويتعاطى مسلمو الحاضرة أشغالا متنوّعة، فكثيرهم أصحاب ضيعات، منها القريب من المدينة ومنها البعيد، ويملكون رقيقا وافرا، وطالما تركهم الحكومة وشأنهم ولا تضايقهم فانهم يعيشون عيشا هنيئا رغيدا. وينتمي آخرون الى فئة التجار، وكأني بالتجارة من أحب المهن الى نفوس المسلمين. ومنهم أيضا من هو صاحب مصنع للحريز يتج فيه شتى الأقمشة الحريرية. وهناك عدد كبير يباشر صناعة القبعات الحمراء أو « الشاشية »، وهي ذائعة الصيت وتصدّر الى الخارج. وتصنع كذلك أعداد كبيرة من البنادق والمسدسات والسيوف، وهي منتجات تؤخذ الى داخل البلاد لتغطية الحاجة اليها. وبالفعل فإن المواصلات مع مختلف أنحاء القطر من الأهمية بمكان. وقد قدمت في السنة الفارطة الى تونس ما يزيد على 400 سفينة. أما تجارة الجملة فهي في معظمها في أيدي الأوروبيين الذين يسجلون أرباحا طائلة وتمثل الصادرات في الزيت والشمع والجلد الخام والصوف وحتى الحبوب في بعض الأحيان.

وقلما يلازم مسلم الحاضرة بيته، فمن لم يكن منهم صاحب دكان فانه يقضي وقته في المقهى. وهم يكرهون ملازمة البيت حتى أيام الأعياد. وقد سألت مرة مسلما أعرفه لماذا هو لا يقضي يوم راحته في الدار رفقة نسائه وأطفاله، فأجاب: « في الدار يصيبني دوما الملل، في حين تسنى لي هنا الفرجة على الناس وهم يروحون ويجيئون. »

ومن النادر جدًا أن تظهر النساء في الشارع ولئن حصل ذلك فإنهن يلتحفن بصفة تجعلك تخالهن بعض الآلات الملتمة بصدد المرور. ويتكوّن لباسهن المنزلي من سروال واسع قصير شبيه بسروال الرجل، يضعن فوقه قميصا واسعا من التسيج الجيد يصل حتى الخصر فقط. ويضعن أحيانا فوق هذا القميص سترة قصيرة فاخرة الزركشة بالذهب، وقفطانا، هو عبارة عن ثوب خارجي قصير الأكمام ينزل حتى الركبتين. وتضع النساء خواتم عديدة في الأصابع وتتحلى سواعدهن بالأسورة الذهبية وأرجلهن بالخلاخيل. وتضفر شعورهن على نسق جميل وترشق فيها الجواهر. ونظرا لحرمانهن من التعليم في مدرسة أو كتاب فإنهن على قدر كبير من الجهل، ومكانتهن في المنزل هي مكانة جوار راقيات. وقَلما يكتفي مسلم الحاضرة بامرأة واحدة، فلغالبهم أربع زوجات. أما الأغنياء فلهم من النساء على قدر ما في طاقتهم على إطعامهن.

وتتميّز بيوتهم بجمال رونقها، فهي تبرق كلّها ذهبا وفضّة ولا يتقصها شيء من أسباب الراحة والرفاهة، اللتين يعيرهما مسلم الحاضرة بالغ الأهمية. فما من مكان يخلو من الطنافس والأرائك والمضاجع الوثيرة وما الى ذلك. غير أننا نفتقد في هذه البيوت تلك الأدوات التي نعتبرها نحن معشر الأوروبيين من الضروريات التي لا غنى عنها فلا نجد أثرا لسكين أو شوكة أو ملعقة أو طاولة، الخ. فكلهم، من حثالتهم الى أعيانهم، يستعملون الأصابع لتناول الطعام. وقد استضافني يوما في بداية اقامتي بتونس أحد الأهالي المسلمين فوجدت مائدة حافلة بأنصاف الطعام وقيل الشروع في الأكل أقبلت جارية وسكبت على أيادي الضيوف ماء ثم ناولتهم منديلا لتجفيف أيديهم. بعد ذلك جلس الضيوف — وكلهم من الرجال طبعا — حول المائدة. وبحث عثا عن ملعقة ولما تأكد لي عدم وجودها على كامل المائدة تطلّعت الى جلسائي وحاكيت صنيعهم. وكان كل واحد يفتطح نصيبا من رغيف الخبز العريض ويستعمله عوضا عن المعلقة فيغمسه في الطبق ويغرف ما شاء من الحساء ويلتهم الكلّ بما في ذلك ملعقته. ففعلت ما فعلوا ونجحت. ولكن لما رأيت رب البيت يغوص بأصابعه في الطبق وينتشل كراعا عظيمة ثم ينتزع

منها اللحم بأصابعه ويضعه أمامي، أحسست بانقباض غريب في معدتي ولم أقدر على مواصلة الأكل. ولكن حتّى لا أغضب مضيّفي تصنّعت المواظبة على الأكل. وبعد الطعام أقبلت الجارية من جديد لغسل أيدينا.

أما عن الأتراك فانه لم يبق منهم منذ الثورة الأخيرة قبل ثماني عشرة سنة (36) إلا النزر القليل. إلا أنهم ما زالوا يتمتعون بعدد الامتيازات. فمنهم ينتدب جلّ رجال الدولة ومنهم يتكوّن الديوان وهم يحتلّون جميع المناصب العسكرية السامية.

ويوجد في تونس عدد هامّ من العرب الذين وفدوا من داخل البلاد. وتراهم يشتغلون عمّالا وأجراء وخداما وما الى ذلك من الأشغال. ويستحيل ضبط عددهم على وجه التدقيق، لأنهم يستقرون بضعة سنين فقط ثم يعودون الى أوطانهم حيث يمكنون ردحا من الزمن ثم يأتون من جديد الى الحاضرة. أما اليهود فعددهم هامّ جدًا لكنه كذلك صعب التحديد، ومن الجائز على وجه التقريب أنه يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا.

ويمثل الباي بطبيعة الحال أعلى سلطة في البلاد. لكن نفوذه لا يشمل إلا مدن المملكة، ذلك أن عرب الداخل يعتمدون نظام حكم خاص بهم يرعى شؤونهم «شيخ» منهم ولا تستخلص منهم الجباية الملزمة عليهم لصالح الباي إلا قسرا.

ويأتي في حاضرة تونس على رأس السلطة، بعد الباي والديوان، حاكم المدينة أو «الدولتي». وفي بعض الحالات يستعصي نقض حكمه حتّى باللجوء الى الباي نفسه. وعندما يظهر في الطريق العام، وهو ما لا يحدث إلا نادرا وللذهاب الى المسجد فقط، فإنه يسير في موكب حافل يتقدّمه مناد يهتف: «الله يبارك لسيدنا!». ثم يأتي، في نفس السلم الترتيبي هذا، «آغا القصبة» ثم «كاهية الباشا» ثم «شيخ المدينة». ولكل من هؤلاء الموظفين ممالك في خدمته ولكلهم صلاحيته كحاكم شرعي مستقل النفوذ.

(36) ربما يعني الثورة التي دبرها الجند الترك ضد محمود باي سنة 1816 والتي أدت بالفعل إلى انحلال الكثير من العائلات التركية من البلاد التونسية.

ويعود الى القائم بالدعوى اختيار من اليه يرفع شكواه، الى أحد أصحاب هذه السلطنة الخمسة أو الى الباي رأسا.

ويتركب مجلس القضاء الشرعي الذي يخضع لحكمه الباي نفسه من « باش مفتي » وستة « مفتيين » وقاضيين اثنين. وتعهده رئاسة هذا المجلس دوما الى « الباش مفتي ». ونظرا لانقسام مسلمي المكان الى مذهبين أساسيين من مذاهب الاسلام، الى « حنفية » و« مالكية »، فان لكل طائفة منهما ثلاثة « مفتيين » وقاضيا يتولون شؤون الطائفة. ومن المعتاد أن يكون « الباش مفتي » من نفس المذهب الذي ينتمي اليه الباي.

وينتمي الى طائفة « المالكية » كافة مسلمي المدن والأعراب والى طائفة « الحنفية » الأتراك ونسلهم من غير التركيات. وبصرف النظر عن هذا الانقسام فكلهم متشبهون بحرص بتعاليم القرآن ولا يختلفون الا من حيث نظم الطقوس والشعائر.

ويعود بالنظر الى مجلس القضاء الشرعي مجمع رجال الدين وعددهم خمسمائة. ومن مهامهم تفسير القرآن وشرح الشريعة والتدريس كأساتذة في المدارس العليا والسهر على شؤون مختلف المساجد، وهي كثيرة جدا. لكن هناك اثنان يمتازان على البقية، أحدهما برسم المالكية والثاني برسم الحنفية. ويتبع المسجد الأول مائة وخمسون من رجال الدين يقال لهم « علماء » (أو : يقال للواحد منهم « علامة » : Alama). وفي كثير من الأحيان تلقى في هذا المسجد أيضا المحاضرات من قبل رجال العلم. وتنقسم المدرسة العليا في تونس الى ثلاثين قسما تجمع زهاء الثمانمائة طالب يسكنون على عين المكان ويلتزمون بحضور دروس الأساتذة. ويزعم الأهالي المسلمون أن كافة العلوم تلقن في هذا المكان ما عدا الطب. وكان الأساتذة والعلماء سابقا يقبضون مرتباتهم من « بيت المال » الذي يمّون في نفس الحين نفقة الطلاب، وذلك بفضل وقف من تركات الموتى الذين لا يخلفون وريثا أو مما يجبّسه قصدا مسلمون أتقياء من أرزاق طائلة. غير أن الباي وقع قبل بضع سنوات في ضائقة مالية فاستصفى ممتلكات هذه المؤسسة ومدخلها وأجرى للأساتذة مرتبات وتعهد بأخذ نفقات الطلاب على عاتقه، لكنه قلل

العطاء حتى انقطع معظم الأساتذة عن التدريس وأصبح الطلاب المساكين في عوز، يقضون وقتهم في التسكّع منصرفين الى العبث والفراغ. أن الجهل الذي يتخبط فيه سواد هذا الشعب ليدعو الى الأسى والأسف. وينطبق الحال حتى على أهل العلم منهم. فالتاريخ والجغرافيا وعلم الفلك تشكل مواد غريبة عنهم تماما، بدليل أنهم كانوا يلقون عليّ أسئلة من شأنها أن تبعث صبيتنا على الضحك، مثلا : كم سنة بقيت أنا في البحر لأصل الى هنا ؟ أو : أليس السلطان [العثماني] هو سيّد الدنيا قاطبة ؟ وبالتالي نراهم غارقين في أسخف الاعتقادات الباطلة وأفطعها. وتكثر بينهم جيوش قراء الغيب والسحرة والمعزّمين وكتبة التائم. ومعظم قراء الغيب من النساء، وتراهنّ يجبن الشوارع وهنّ ينادين باسترسال : « دفازة، دفازة » أي : قارئة الغيب. ويفتح لهنّ أصحاب العقول الساذجة أبوابهم ويستطلعون منهن حظّهم. ولا يكاد يخلو منزل من بعض العفاريث يستعصى أحيانا طردها. وفي هذه الحالة يترك أهل البيت بيتهم ولا يجراً أحد من بعد على دخوله للسكن، فيظل مقفرا الى أن يؤول مع مرور الزمن الى خربة. وعلى هذا المنوال آل سدس المدينة الى خراب.

ومن أفطع معتقدات المسلمين الباطلة اعتبارهم المجانين أولياء صالحين. ومن أوليائهم هؤلاء من كان صادقا ومنهم الدجال، بما في ذلك الرجال والنساء على حدّ سواء. وتراهم يجوبون الشوارع في أغرب الأزياء، نصف عراة أحيانا أو عراة أحيانا أخرى. ويزودهم الناس بالنقود والطعام، ويستبشرون خيرا اذا ما لمسهم أحد هؤلاء الأولياء ويعتبرون ذلك حظوة كبرى. وعندما يموت أحدهم تقام على قبورهم المزارات التي تصبح في الآبان حرما يلوذ بها المجرمون. ويكفي أن يبلغ أخطر المجرمين هذا الحرم المقدس لكي يصبح في مأمن لا تطوله حتى يد الباي. ويستقر المجرم في هذا المقام أكلا شاربا الى أن يحظى بالعفو أو يموت. ولكن اذا تحصن فيه قاتل روح فمن حقّ الباي أن يأمر بسدّ المنافذ عليه وطمعها بالبناء. وهناك الكثير من هذه الملاوذ حتى أننا نجد نهجا بأسره يحفل بها، يدعى « نهج الأولياء

تونس في 12 ديسمبر 1835

حلّ فصل الربيع البديع الذي يستمرّ حتى موفى شهر جانفي [كذا] المقبل. وقد اخضرت الطبيعة وأزهرت وانتشى القلب بما خلق الله من كون جميل طليق. وحدا بي جمال الطبيعة الفائق الى أن واطبت خلال هذا الفصل البهيج على التجوال في أحواز المدينة حيث ما انفكت البساتين الغناء والمنازل الريفية اللطيفة تبعث في نفسي انطبعا منعشا. وكنت ألقى أحيانا عند مداخل هذه المنازل أصحابها المسلمين جالسين في راحة وهناء، يتسلّون بتدخين الغليون، فأجلس اليهم وأتجاذب معهم أطراف الحديث في شتى المواضيع العامة حتى نستطرد الى المسائل الدينية. وقبل أيام قليلة اجترت في الصباح الباكر باب المدينة وسرت مقدار ساعة وأنا أتأمل الطبيعة الفتانة حتى وقفت أمام منزل ريفي على ملك أحد الوجهاء من مسلمي الحاضرة، كان جالسا على العشب الناعم رفقة أحد رجال العلم يتحدث معه ويدنّ غليونه. واقتربت منهما فدعيت للجلوس فلبّيت الدعوة بكل سرور. وسرعان ما انساق الحديث في موضوع ديني. وطلب مني العالم أن أذكر له عدد كتبنا الربانية فاستجبت، مبرزا فحواها باقتضاب. ولما انتهت أبدى المسلم تعجبه الكبير من قلّة كتبنا وقال لي : « لدينا منها، نحن المسلمين، ما لا يقلّ عن 104 كتاب أنزلها الله على الأنبياء بواسطة الملاك جبريل. وكانت عشرة من هذه الكتب من نصيب آدم وخمسون منها وفي بها شيت (Seth) وثلاثون لأنوخ (Enoch) وعشرة تلقاها ابراهيم — مع الملاحظ أن المسلمين يعدّون هؤلاء الآباء في عداد الأنبياء — كما أوتي موسى التوراة والملك داود المزامير ويسوع انجيل الأنبياء وأخيرا تلقى النبي محمد القرآن الذي هو من الأزل وغير مخلوق. » كما أكّد لي هذا العالم أن جميع هذه الكتب متداولة بين المسلمين. إلا أنني لم أر منها سوى الكتب التي يدعى أنها أنزلت على آدم.

الصالحين » (37). بيد أن أشهرها هو ذلك المقام الواقع على مسافة اثني عشر ميلا أنكليزيا، فوق إحدى الهضاب الثلاث التي كانت تقوم عليها قرطاج سالفًا، ويدعى « سيدي بوسعيد ». ومن وطئت رجله هذا الحرم نجا من كل ملاحقة. ومن الوارد أحيانا أن يقوم هؤلاء الأولياء بالطواف عبر شوارع المدينة في موكب تعلوه الرايات وتصحبه الطبول والمزامير، فإذا به مشهد مروع تقشعر منه الأبدان. فبينما يواظب بعضهم على قرع الطبول ونفخ المزامير يتفاني آخرون في الرقص وهم يزيغون البصر ويلوحون بالأطراف ويشيرون بأفطع الحركات.

(37) أو ربما « نهج الصلاح » .

تونس في 18 ديسمبر 1835

قمت أول أمس بجولة صغيرة استهدفت « العبدلية » أي منزل القنصل الأنكليزي الريفي الجميل. ويقع مقر الإقامة الشيق هذا على بعد عشرة أميال أنكليزية من مدينة تونس، في سهل خصيب للغاية تحده مجموعة من الهضاب تحفل بأطيب أشجار الثمر وأبهاها. التقيت بجوار هذا المنزل الريفي بجماعة من المسلمين الحضر. وسرعان ما انتقل بنا الحديث إلى تلك النقطة بالذات التي يحلو للمسلمين المثقفين الخوض فيها مع النصارى. ولم يحدث قط أن حادثت مسلماً دون أن أجده مؤمناً كل الإيمان بوجود الاله وبخلو الروح، وعلى نقبض هذا سمعت المزار بكامل الاستياء عن أرهاط من الأوروبيين المقيمين هنا الذين ينفون هذا وذاك. وتنسب العقيدة الإسلامية إلى الله الصفات التالية : كونه حياً، عليمًا، سميعًا، بصيراً جباراً، له ملكة الكلام والارادة. والله لا كفاء له وليست له احتياجات البشر ولا وجوه ضعفهم. وهو لم يولد ولم يلد وليست له امرأة ولا ابن ولا بنت. وما هو في السماء ولا في الأرض، وليس له مسكن ولا مكان إقامة. وما هو على يمين ولا على يسار ولا في بعد ولا في قرب ولا فوق ولا تحت : بل انه في كل مكان. ولا يتقيد بشكل ما ولا بهيئة، ولا بأجزاء ولا بلون، انه لا يرى ولا يبصر. وليست له بداية ولا نهاية. وهو مستقل الذات، لا يتناهب مرض ولا يأخذه غضب ولا يعتره خوف. ولا يدخل عليه تغيير. انه موجود قبل الوجود. وما هو في حاجة إلى أحد ويقدر على فعل كل شيء. الله خلق كل شيء وهو السبب في كل ما يصدر عن الانسان من أعمال، بما فيها الفضيلة والرذيلة والخير والشر والايمان والكفر على حد سواء. وهو الذي ينعم بالصحة ويسلط الأمراض وهو الذي أراد للنار أن تكون محرقة وللثلج أن يكون بارداً.

ويقدر المسلمون عدد الأنبياء ورسلى الله إلى عبادته بما لا يقل عن 124.000. إلا أنهم يفرقون بين النبي والرسول. فالنبي، حسب قولهم، يحمل وحياً لكنه يخصه شخصياً ولا لزوم عليه بالافصاح به علناً، في حين أن الرسول لا بد أن يكون مبعوثاً إلى قوم ما محملاً برسالة ربانية معينة موجهة إلى هؤلاء القوم. وقد جاء لكل أمة من الأمم رسول من الله، ومحمد هو خاتم الأنبياء وأهمهم وأفضلهم. وقد بعثه الله محملاً بالقرآن إلى البشرية جمعاء بل إلى الجن أيضاً. ومن هؤلاء من هو مؤمن وبعضهم كافر، وسليمان هو سيد الجن قاطبة، وتروج حوله خرافات كثيرة، ويعتقد المسلمون أيضاً في عدد كبير من القديسين [كذا] وفي طليعتهم أبو بكر، حمو محمد، ويليهِ عمر ثم عثمان فعلي. [....]

تونس في 24 ديسمبر 1835

يقع مقر إقامة الباي على مسافة ساعة من مدينة تونس ويعرف بـ « باردو ». وبه يقطن أيضا جلّ الوزراء. ويقصده القناصل الأوروبيون أحيانا لتأدية الزيارات التشريفية للباي ولتقبيل يده. بيد أن قنصلي أنكلترا وفرنسا أعرضا عن هذه العادة غير المشرفة دون أن ينجر عن ذلك أي ضرر. ومنذ سقوط الجزائر [في أيدي الفرنسيين] اعتري التونسيين، المتصفين عادة بالأنفة إلى حد كبير، شيء من التواضع وأبدوا، ظاهريا على الأقل، مزيدا من الودّ حيال النصارى. ويبلغ عدد النصارى المقيمين في مدينة تونس حوالي ألفي نسمة إن صحّ التقدير. والعديد منهم ينحدر من آباء كانوا عبيدا، ولدوا بهذه الديار وترعرعوا فيها واستوعبوا لغة أهلها المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم واعتقاداتهم الباطلة. ومنهم أيضا من سبق أن أتى مهاجرا، كالاسبان والايطاليين والمالطيين والفرنسيين وغيرهم، وكلهم من الكاثوليك. وبرسم الكنيسة الكاثوليكية هنا دير للآباء الكابوشيين، يشتمل على كنيسة فسيحة ويجمع ثمانية رهبان. وهناك من المالطيين زهاء الستائة نسمة، ومن اليونانيين أيضا عدة مئات، وهم يشكلون مجموعة دينية قائمة بذاتها لها كنيستها وقسّتها! أمّا النصارى الانجيليون فعددهم في المجموع أربعون نفرا ويتكوّنون من عائلات القنصل الأنكليزي والأمريكي والدانماركي والسويدي إلخ. إلى جانب بعض التجار. وقد التأموا منذ سنة ليكونوا مجموعة دينية، وصرت كلّما وجدت بالمدينة أقيم بهم القدّاس أيام الأحاد وأكرز عليهم باللغة الأنكليزية.

وكان لي قبل أيام قليلة حوار مفيد مع « مفتي » ذائع الصيت بوصفه متبحرا في العلم. وشرحت له « موعظة الجبل » وأطلعتني بدوره على فرائض المسلمين. واعترف بسموّ فحوى هذه الموعظة وتفوّقها على الفرائض التي يستنها القرآن، من حيث الخلاص والعبرة الالهية. وأهم هذه الفرائض ما يلي : الإيمان باللاه واحد وإقامة الصلاة في الساعات الفاصلة الخمس ومصوم

ولئن أصيب مسلم بمرض فإن أحبابه يزورونه لمواساته. وقلّما يقع اللجوء إلى نصيح طبيب، وتفتقر جلّ المدن والقرى إلى أطباء، إلّا إذا وجد بالمصادفة نصراني يمارس هذه المهنة. ويواسى المريض بالقول التالي : « لا تنس أننا كلّنا سنموت حتما وأن كل أحبابك ماتوا أو سيموتون يوما ما وأن هذه الدنيا فانية زائلة. » ثم يدار وجه المريض صوب الشرق فينطق بما يلي : « لا إله إلّا الله، محمد رسول الله » ويعيد ويكرر إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. حينئذ تدخل كل نسائه ويطلقن صياحا رهيبا ويتفنن شعورهن ويخدشن وجوههن ويطلقن العنان لأساهن وإذا كان الميت من الأثرياء فانه يقع تأجير نادبات يصدرن صياحا ونواحا أفظع حتى مما يصدر عن نساء الميت أنفسهن. ثم يغسل الجثمان ويلف في القماش ويضمّخ بالطيب. ثم يأتي « إمام » [كذا] أي ما يضارع القسّ، ويقرأ على الميت ما تيسر من سور القرآن ويدعو الله أن يغفر للميت ذنوبه. وإذا كان الراحل موسرا وجيها فانه يحمل إلى مسجد فيقيم عليه « المفتي » [كذا] بعض الصلوات ثم يسرع به إلى القبر. وأثناء تشييعه إلى هناك يرتل الموكب الجنائزي قوله « لا إله إلّا الله... إلخ ». ويعتقد أتباع محمد (Mohamedaner) أنه حالما يودع الميت قبره يأتيه ملكان، هما « منكر ونكير »، ويطلبانه بالاجابة عن أسئلة أربعة هي : « من هو ربك ؟ من هو نبيك ؟ ما هو دينك ؟ ما هي قبلك ؟ » وإذا كان الميت من المؤمنين فانه يجيب كالتالي : « ربي هو الله ونبيّ محمد ودينني الإسلام وقبلتي الكعبة — أي معبد مكة — وما أن تؤدي هذه الأجوبة حتّى يغدق عليه الملكان شتى المسرات. وفي صورة ما إذا كان الميت من الكفرة فانه تستعصى عليه الاجابة على نفس الأسئلة فيسلط عليه عذاب أليم. وفيما يتعلّق بمآل الروح حتى يوم القيامة فإن آراء العلماء تختلف وتباين. ذلك أنهم أدخلوا على تعاليمهم هذه الكثير من الأساطير اليهودية. [....]

رمضان وأداء الزكاة والحج الى مكة. ويتعين على المسلم الوضوء قبل مباشرة الصلاة ويكون ذلك حسب شروط ثلاثة، أولها غسل كامل البدن، من الرأس الى باطن القدم، وهو اغتسال يهيم المتزوجين بالدرجة الأولى، ثانياً غسل الوجه والليحة واليدين والساعدين الى المرفقين والرجلين الى الركبتين [كذا]، ويتحتم القيام بكل هذا قبل كل صلاة. ويشترط ثالثاً أن يكون مكان الصلاة نظيفاً طاهراً. ولكن تعذر على المسلم الالتحاق بمسجد لأداء الصلاة فيحق له إقامتها في بيته — وعادة ما يتم ذلك فوق السطح — أو في مصنعه أو متجره أو حتى في الحقل. ولا شيء من شأنه أن يحول دون أداء الصلاة إذا حانت ساعتها. وباكورة صلوات اليوم الخمس عند الفجر، وفي زعم العلماء أن آدم نفسه أمر بهذه الصلاة الباكورة. وثانيتهما عند الظهر، ويقال إن ابراهيم أقر هذه الصلاة وفرضها. ويحين موعد الصلاة الثالثة في الساعة الثالثة [كذا]، وهي في زعمهم من سنن يونس. وتقام رابعة الصلوات عند المغرب، ويدعون أن عيسى هو الذي أدرجها. أما الصلاة الخامسة فموعدتها عند حلول الليل، وقد حدّد ساعتها، حسب ادعائهم، موسى وأمر بها.

ويتوجه المسلم دوماً عندما يقيم الصلاة صوب الشرق ثم يرفع يديه بحيث يلمس إبهاماه أذنيه. وفي هذه الوضعية يتلو فاتحة سور القرآن ويردّدها بثانية من اختياره. ويكتفي عامتهم ببعض السور القصار بينما يعتمد المثقفون السور الطوال. ثم يركع المصلي ويلمس الأرض بجبينه ويقول: «الله أكبر». ويكرر العبارة هذه ثلاثاً إثر كل سورة يسردها. وبعد ذلك يرفع كفه إلى عينيه ويمسح على لحيته ويلتفت يمنة ويسرة ويقول: «السلام عليكم». ويفسر ذلك باعتقادهم أن الملائكة تقف يمين المؤمن ويساره وتراقب صلاته [...]

ولا نكاد نرى مسلماً واحداً يدّعي الوجاهة، من القاضي الى ضابط الصف، بدون سبحة في يده للتسبيح. وتراهم يواظبون على هذه الممارسة حتى أثناء الحديث. ويتمثل تسبيحهم في تمجيد الاله بقولهم: «الحمد لله! الله أكبر! الشكر لله!» وكل مرة تدفع خرزة الى تحت. ويعتبر التسبيح فعلاً محموداً للغاية.

ولا يباشر المسلم عملاً ما ولا تجارة، كبيرة كانت أو صغيرة، قبل أن يتلفظ بعبارة «بسم الله!» وعند انتهاء العمل أو ابرام الصفقة فإنه يقول «الحمد لله!» وقبل الشروع في الأكل أيضاً ينطق بـ «باسم الله!» وإذا دخل غرفة وقلت له «اجلس» فإنه يقول «بسم الله!» وعندما ينهض للإنصراف يعيد مرة أخرى «بسم الله!»

ويتعين على كل مسلم بلغ سنّ الرابعة عشرة [كذا] صوم كامل شهر رمضان، أي من منتصف جانفي الى منتصف فيفري [كذا]، وذلك من شروق الشمس الى غروبها. ويحرم خلال هذا الشهر التدخين أو تناول النشوق، بل إنه يحجر حتى استنشاق رائحة الطعام. لكن حالما تغرب الشمس فإنه ينساق الى أقصى حدود الطلاقة. وترى الرجال يطوفون عبر الشوارع حتى بعد منتصف الليل أو يجلسون في المقاهي كما أنهم يؤمّن المساجد التي تظل مضاعة حتى بعد منتصف الليل. وعندما ينتهي هذا الشهر يقام عيد كبير يستغرق ثلاثة أيام، لا يشتغل المسلم خلالها بل يقضي الوقت في الأكل والشرب والنزهة. ويخرج الزنوج — ومنهم هنا أعداد غفيرة — فيما بين عييد وأحرار الى الشوارع بالطبول والمزامير ويؤدون رقصاتهم القومية.

أما الزكاة فقد حدّدت وفقاً لتعليمات النبي بعشر المرائب. بيد أنني أعتقد أن التزّار القليل من المسلمين يمثل لهذه الفريضة كما ينبغي. وقد صارت صاحبتنا «المفتي» بطني هذا وسألته أن يخبرني كيف يريح المسلمون ضمائرهم إزاء كل الانتهاكات الفادحة والمتعددة للسنن. ونزلت عليه ملحوظتي نزول المفاجأة فصمت طويلاً، لا يعرف لها ردّاً شافياً. وفي الأخير خطر له أن الأنبياء والصالحين سوف يشفعون في هذه الخطيئة. لكن الأمر حيره شيئاً ما ولم يهدأ له بال طيلة وجوده عندي، فأبرزت له ضرورة «المصالحة الالهية» فلم يسعه إلا أن وافقني وأضاف أنه سوف يفكر ملياً في هذا الموضوع الهام.

كما يتعين على كل مسلم أن يحجّ مرّة في حياته الى مكة. ولعلّ هذه الفريضة أوفرها بالاستجابة والتطبيق، غير أن الرحلة الى مكة تعتبر بمثابة نزهة تتيح للمسلم فرصة التملّص من رتابة حياته العادية. ويقوم الأثرياء بهذه

تونس في 28 ديسمبر 1835

دعاني أول أمس واحد من مسلمي المدينة أعرفه الى حضور حفل عقد زواج في أحد مساجد المدينة. ولم أفوت الفرصة فلبيت الدعوة. وقبل هذا الموكب في المسجد سبق أن اتفق والدا العريس والعروس على كل ما يجب الاتفاق عليه، دون أن يكون الزوجان قد شاهدا بعضهما أو تعرفا على بعضهما ولو قليلا. وعندما يتم الاتفاق بين الوالدين يعين يوم يرم فيه عقد الزواج على يدي «المفتي» [كذا]. وفي هذا اليوم في ساعة محددة يتحول الأبوان والعريس والعروس وأقارب كليهما من الذكور الى المسجد، حيث يكون «المفتي» في انتظار الجماعة وقد سبق اعلامه بالحدث الوشيك ويستهل الحفل بأن يخبر أحد الأبوين الحاضرين بغاية الاحتفال ثم يهتف «المفتي» العروسين بالزواج. وما ان يتم هذا حتى يدار شراب يشرب منه «المفتي» أولا ثم الأبوان ثم العروسان ثم بقية الحاضرين. ثم يرش ماء عطر على الجماعة ويطلق البخور. وفي الأخير يتلو «المفتي» دعاء وينتهي حفل الزواج. وقد تركت الجماعة ينصرفون وتأخرت قليلا أمام المسجد للحديث مع بعض أهل العلم. وبادرت بالسؤال التالي : « لم لم توضح لهذين الزوجين الحديثين الفضائل التي عليهما أن يتقيدا بها والذائل التي عليهما أن يتجنبها ؟ » فكان الجواب :

— لأنه قد لا يكون ذلك من الضروري

— ولم لا ؟

— يوجد كل هذا في القرآن ومن واجب كل مسلم أن يطلع على فحواه

ويسير على هداية.

— وما هي أهم الفضائل التي يجب على كل مسلم أن يعمل بها ؟

— الصبر والتوكل على الله وحمد الله والخوف منه وحسن السريرة

والتواضع وحب الخير للغير والصدق والورع إلخ.

الرحلة وسط موكب غفير وأبهة ظاهرة. وكلما انطلق من هنا حجيج أو مر بعضهم بالمكان، قادمين من مدن وأقطار أخرى، فإن جموعا من سواد القوم تلتف بهم وتبتهم بربايات كثيرة حتى شاطئ البحر وهم ينشدون « لا اله الا الله، محمد رسول الله. » ويسافر الفقراء الى الحج منتقلين من مدينة الى أخرى ويشغلون في كل منها الى أن يجمعوا ما يكفي لمواصلة السفر. أو أنهم يتعاطون أثناء الطريق تجارة متواضعة يشتون بها أزهرهم، فلا غرو أن تستغرق هذه الرحلة في كثير الأحيان سنتين أو ثلاثا أو حتى أكثر. وإبان الوصول الى مكة يبادر الحاج بزيارة معبد الكعبة [كذا] الذي شيده، حسب زعمهم، ابراهيم واسماعيل، والذي يتضمن، حسب قولهم، حجرا أسود عليه آثار خطوات محمد. ويقبل الحاج هذا الحجر ويطوف بالمعبد عدة مرات. وعندما يفرغ من ذلك يتحول الى وادي منى (! Mnia) حيث يلقي ببضعة أحجار ذكرا لابراهيم الذي حاول الشيطان أن يغويه في هذا الوادي عندما هم بذبح ابنه امثالا لأمر الله. الا أن ابراهيم التقط حجارة ورجم بها المظلل وطرده على هذا النحو. ثم يقصد الحاج بئر « زمزم » ويشرب من مائها. ويدعى أنها هي البئر التي هدى الملاك هاجر اليها، لما صرفها ابراهيم في سبيل حالها. وأخيرا تؤدي الزيارة الى قبر الرسول ثم تشد الرحال للعودة الى الأوطان. ويعمد الكثير من الحجاج أثناء العودة الى زيارة جبل سيناء وبيت المقدس. وإذا عاد الحاج الى موطنه سالما يحق له حمل العمامة الحمراء والتسمي بـ « سيدي الحاج ».

— وما هي الرذائل التي يجب أن يتعد عنها ؟

— الاعتياب والنفاق والحسد والغرور والكبر والبغض — أي عندما يبغض المسلم أحدا يفوقه من حيث المزايا أو من حيث الثراء [...] ثم حب هذه الدنيا والطموح وفرط الآمال والادمان على المسرات وخشية الفقر والتعنت والتهم الخ.

— حسن كل هذا، وهو ما ورد في القرآن وما جاء في تعاليم أهل الفقه والشريعة. لكن قولوا لي وأقسموا برأسكم هل تعرفون مسلما يعمل بهذه الفضائل كلها ويتحاشى هذه الرذائل ؟ وهنا خرسوا وعجزوا عن الإجابة. عندئذ يثبت لهم ان الانسان إذ يتوب لا بد أن يلقى الرحمة من الله ورجوتهم أن يفكروا ملياً في هذه المسألة.

إن المسلم لا يعرف أيام عطلة بالمعنى الصحيح. ويبدو يوم الجمعة بمثابة يوم عطلة لكن المعنى في الحقيقة هو أن كل مسلم يحرص يومها على الذهاب الى المسجد للصلاة، وعندما ينتهي ويغادر المسجد فإنه يعود رأساً الى شغله كالمعتاد. ومن عادات المكان أيضاً إحكام غلق كافة أبواب المدينة يوم الجمعة وقت الصلاة، من منتصف النهار الى الواحدة، وذلك لاعتقادهم الراسخ أن النصارى سوف يسطون على المدينة ويكون ذلك يوم جمعة وقت الصلاة بالذات.

ولا يصح أيضاً اعتبار احتفالي «بيرم»، الصغير والكبير معاً، من الأعياد في المفهوم الديني، رغم ارتباطهما بحدث معين من التاريخ الديني، ألا وهو ذكرى ذبيحة اسماعيل لا اسحاق، كما يسري في اعتقاد الأتراك. ويحل أولهما مباشرة عقب رمضان ويستغرق ثلاثة أيام ويتولى كل مسلم ميسور ذبح شاة يوزع منها نصيباً على الفقراء، وهذه هي كل الممارسة الدينية، أما بقية الأيام فإنها تضيع في الأكل والشرب واللهو وما الى ذلك، كما أسلفنا. ويتبع «بيرم» الكبير «بيرم» الأول بسبعين يوماً ويتواصل عادة على مدى سبعة أيام رغم أنه من المفروض أن لا يدوم إلا أربعة أيام. ولا يعرف المسلمون احتفالات غيرها.

ولقد دار بيني وبين أحد المسلمين المثقفين حوار، وهذا ما قاله لي : « لقد ورد في الانجيل اسم «أحمد» (يعني محمد) إلا أن النصارى واليهود زيفوا النص الأصلي. » فأجبت : « ان سفري (العهد القديم) و(العهد الجديد) يعودان الى عدة قرون قبل مولد محمد، وليس هناك اختلاف بين (العهد القديم) الذي هو على ملك اليهود ونظيره الذي هو في متناول النصارى. وبالتالي يستحيل أن يكون قد طرأ أي تزيف. ولكن لماذا لم تحتفظوا ببعض النسخ غير المزيفة من هذا الكتاب، لو صح ادعاؤكم ؟ ». وهنا أجاب قائلاً : « في نظر علماء كثيرين أن التزييف لا يتعلق بحرف النص ولكن بالتفسير الذي توخاه النصارى، فكلمة « بارقليط » (Paraklet) الواردة في (العهد الجديد) لا تعني في الحقيقة شيئاً آخر سوى محمد »

وقد فتدت زيفه هذا بمنتهى الوضوح ونبهته الى ضرورة « المصالحة الالهية » فوافقتني ولكنه أضاف أن هذه المصالحة لا يمكن أن تكون قد تمت على يدي عيسى لأنه لم يصلب، مستندا في ذلك الى فقرة من القرآن فيها أن اليهود ادعوا أنهم صلبوا عيسى بن مريم وفي الحقيقة لم يفعلوا بل صلبوا رجلاً آخر مكانه في حين أن الله رفع عيسى إليه في السماء. ويسوق المفسرون في شأن هذا الموطن أن الله مسخ شريراً يهودياً في صورة عيسى فكان هو الذي صلبه اليهود.

تونس في 6 جانفي 1836

لم أفوت — وقد قادتنى يد الله الى جوار قرطاج الشهيرة في القدم — فرصة الاطلاع على هذه المدينة التي تحتل مكانة بارزة في التاريخ والتي تعظ اليوم بحتمية الفناء. وكم مرة مررت راكبا بأثارها وكم مرة طفت عبر أنقاض هذه العظمة البائدة، ولكنني لم أمر قط بهذه الأحجار دون أن أناجي بحسرة وأسى العصور الغابرة، عصور أملكار وصدر بعل وحنون وبوملقار وماغون وحبّعل وعملقون وترتوليانوس وسبريان وأرنوبيوس ولارتانس وغيرهم. وتسلفت مرارا الهضبة التي يتسنى من فوقها الاشراف على كامل المدينة، حيث جلس « انياس » كما ورد عن فرجيل، لامتاع البصر بعظمتها وأبهتها وبدأب سكانها. وفي سنة 800 قبل المسيح (أو 890 حسب بعضهم) نزلت الملكة ديدون (عليسة) على ساحل افريقيا الشمالي بعد أن تمكنت بحيلة من الافلات من سطوة أخيها « بغماليون » وأسست مستوطنة على شاطئ البحر. ويصمت التاريخ طويلا في شأنها ثم نسمع عن قرطاج وقد أضحت مدينة من أجمل مدن الدنيا وأغناها، تحيط بها ثلاثة أسوار متتالية، تعلوها القلاع الشامخة، ويسكنها 700.000 نسمة وتسيطر على جزء من اسبانيا وعلى صقلية والعديد من جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى المنطقة التي تقوم عليها اليوم مملكة تونس. وسمعنا أيضا أنها ساندت خرخاس وحاربت أغتوكلاس فوق أرض افريقيا وبيروس في صقلية وهو ما أدى الى نشوب الحرب [مع روما !]. وتحول ريغولوس الى افريقيا وانتصر على القرطاجيين في عدة مواقع واحتل تونس التي كانت يومها مدينة هامة وضرب الحصار على قرطاج وعامل الأسرى معاملة قاسية وكان يردّ على شكواهم بأنفة، قائلا : « على الانسان إما الانتصار أو التفاني في قلب الهزيمة الى نصر ». وناشدته قرطاج الصلح فأبى. فاشتد غضبها ورفعت السلاح وتمكّن رجل من اسبارطا تزعم جيوشها من قهر ريغولوس وأسرّه. ولكن روما أرسلت

قوات جديدة ودارت رحى الحرب المعروفة بالحرب البونيقية الأولى وتواصلت خمسا وعشرين سنة. ومقابل الصلح فقدت قرطاج السيطرة على صقلية التي كلفتها مجهود مائتي عام، بالإضافة الى جزر متوسطة أخرى أقل أهمية. وألزمت بدفع ألفين ومائتي « طالنت » على أقساط ومائة أخرى على الفور كما وجب عليها اطلاق سراح الأسرى دون فدية.

وعاشت قرطاج اثنتين وعشرين سنة في سلم مع روما، إلا أن هذه الفترة لم تخل من القلاقل والفتن الداخلية. ففي سردينيا تمرّد جند قرطاج المعاجور. وأوفدت روما قوات وكانت لنجدة قرطاج ولكنها استولت على الجزيرة وطالبت علاوة على ذلك بمبلغ ألف ومائتي « طالنت » نفقة، ووقعت قرطاج مكسورة الجناح. ولكن ها هو أميلكار ينقذ وطنه بفضل انتصارات باهرة في الداخل وأخرى في الخارج، وفي اسبانيا على وجه التحديد، لكنه لم يلبث أن سقط في موقعة ضد سكان « ليزوتانيا ». وجاء بعده صدر بعل فحارب في اسبانيا وحالفه الفوز الى أن اغتيل غدرا بعد ثماني سنوات حافلة بالنصر. ورشح الجيش حبّعل قائدا عليه وزكى مجلس الشيوخ الاختيار. وما هي إلا ستان حتى حمل حبّعل على « ساغونت »، حليفة روما، مفتتحا بذلك الحرب التي كانت روما تترجأها. وقاد حبّعل عساكره من نصر الى نصر وعبر جبال « البرانس » وجبال « الألب » ودخل ايطاليا ليتمم النصر على ما يبدو. ولكن نظرا الى ما لحقه من ضعف شديد والى عدم حصوله على مدد من وطنه البعيد، تدهور به الحال ولم يكن يصمد إلا بمشقة وعناء. وهنا يأتي دور شبيون، القنصل الروماني الشاب، لينقل الحرب الى أرض افريقيا. وضاق الخناق على القرطاجيين وبذلوا عبثا أقصى جهدهم، بالسلاح وبالمفاوضات لإخماد العاصفة، ولم يبق لهم أمل سوى حبّعل فطلبوا رجوعه من ايطاليا. فترك مسرح انتصاراته الباهرة والأسى يملؤه. وبعودته ارتفعت معنويات القرطاجيين ودبّ الأمل في قلوبهم من جديد. وسار حبّعل من لبة وعبر حضرموت الى « زاما » التي يفصلها عن قرطاج سفر خمسة أيام، وهنا التقى بجيوش الرومان. وفي سنة 202 قبل مولد المسيح تصارع أعظم قائدي عصرهما في موقعة « زاما »، فهزم حبّعل شرّ هزيمة. ولقي قائما،

محاربيه — وعددهم خمسة آلاف — الذين شابت رؤوسهم في الحروب، حتفهم على آخر رجل. أما حنبعل نفسه فقد نجى مع حفنة من رجاله إلى حضرموت. وطلب منه الالتحاق بحاضرة قرطاج التي غاب عنها طيلة 36 سنة. ووقع الاتفاق على قبول الهدنة مهما كانت الشروط. وسلمت قرطاج جميع فيلنها وكامل أسطولها الحربي، ما عدا عشر سفن من نوع «ترياما»⁽³⁸⁾، وتعهدت بدفع غرامة قدرها عشرة آلاف «طالنت» (أي ما يعادل 26.058.270 غولدن) على مدى خمسين سنة، ولم تحفظ من مناطق نفوذها سوى بالحاضرة نفسها وأقاليمها الأفريقية القديمة. ومنذ إبرام معاهدة السلام هذه إلى غاية سنة 140 قبل المسيح عاشت قرطاج في أمن من روما واستعادت قواها بفضل نشاط مواطنيها وبفضل سياسة حنبعل الرشيدة. إلا أن غيرة روما وحسدها لم تخمد وظلت روما حريصة على إثارة الفتنة من جديد، ناهيك أن كاتون الشيخ كان يختم كل خطبة يلقيها أمام مجلس الشيوخ بقوله: «وأخيرا أقول وأكرر: لا بد من تدمير قرطاج».

وسرعان ما وجد ما يبرر إعلان الحرب وجاء ذلك من جراء معاملة قرطاج العدوانية لأحد حلفاء روما، وهو ماسينيسا، ملك نوميديا الذي كان دوما على أهبة لشن الغارات على قرطاج انطلاقا من عاصمته، الجميلة والمنيعه، سيرتا، التي لا تبعد كثيرا عن قرطاج. وعهد إلى القنصلين مرسوس ومنليوس بمهمة التوجه على رأس جيش يعد أربعة وثمانين ألف رجل إلى إفريقيا عبر صقلية، وخوض الحرب مع قرطاج حتى تدميرها، وعلى هذا الوجه شنت الحرب البونيقية الثالثة. وطولبت قرطاج بتزويد جيش روما بالمؤونة ففعلت وطولبت بتسليم مجمل سلاحها في معسكر الرومان فاستجابت مرغمة أيضا. لكن لما أمر الرومان الخادعون القرطاجيين بهدم مدينتهم وإنشاء مدينة أخرى بعيدا عن البحر، عديمة الأسوار، هبوا هبة اليأس. وقرروا بالاجماع انقاذ مدينتهم العزيزة أو الموت. وصمدت المدينة اليائسة في وجه الكتائب

(38) الكلمة الواردة هي «Tirème» وتعني سفينة حربية من العصر القديم مزودة بثلاثة صفوف من المجاديف من كل جانب فوق بعضها.

المجبولة على النصر والتي لم تعرف الهزيمة منذ ثلاث سنين، وقاومت حتى تقدم شبيون امليانوس بعساكره وأعطى الأمر بالهجوم. وكان القائد القرطاجي صديرعل، الذي كان متمكنا خارج المدينة على رأس عشرين ألفا من عساكر مرتزقة، قد اضطر إلى التقهقر والالتجاء إلى داخلها. ولم تصمد أسوار المدينة طويلا في وجه المهاجمين وتحول التطاحن إلى أنهج المدينة حيث استمر ستة أيام إلى أن خمدت نار القتال بعد أن بلغت أوجها. ولم يبق من السبعمئة ألف ساكن على قيد الحياة سوى خمسين ألف فقط، اعتصموا داخل قلعة «بيرصا». وكان من بينهم صديرعل وما تبقى من قواته فقبل تسليم هذه القلعة إلى الرومان، مما أدى إلى إثارة غضب تسعمائة جندي روماني كانوا انفصلوا عن أصحابهم وانضموا إلى صفوف القرطاجيين، واغتاظوا من خيانة قائدهم فأضرموا النار في معبد «أسكولاب» الذي لم يصب بعد بأذى وألقوا بأنفسهم في اللهب المستعر. وأبت زوجة صديرعل بدورها إلا أن تعبّر عن عميق استيائها من صنيع بعلا فألقت كذلك بنفسها بمعية أطفالها في النار. وعلى مدى سبعة عشر يوما استمرت النيران الهوجاء متقدة، تلتهم هذه المدينة الفاخرة، العظيمة التيسية، إلى أن أضحت كومة رماد. وأثر ذلك في نفس شبيون الذي آلمه أن يرى عن بعد ألسنة اللهب الحمراء القانية تتعالى إلى السماء من المدينة المتهالكة التي ظلت على مدى 750 سنة سيّدة البحر. وسمع وهو ينشد الأبيات التالية من شعر «هومير»، وكأنه يستحضر بحده مصر روما المستقبلي: «سيأتي اليوم الذي تسقط فيه مدينة «إلياس» المقدسة، وحتى «برياموس» نفسه، وشعب الملك الرماح الماهر».

ووقع تقسيم الأرض التي كانت على ملك قرطاج فأهدى الرومان جزءا منها إلى «أوتيك» المجاورة واستحوذوا على جزء صيروه ولاية رومانية يشرف عليها عشرة مفوضين من روما. وفي وقت لاحق قامت على أطلال قرطاج البائدة قرطاج حديثة. وقد بدأ تأسيسها منذ عهد «تيباريوس كراخوس» ثم أكملها «يوليوس قيصر» وظلت عدة قرون أخرى عاصمة إقليم روما على ساحل إفريقيا الشمالي. وقبل منتصف القرن الخامس وميل

« الفندال » الى افريقيا بعد أن بثوا الرعب والفرع في كامل أوروبا. وجاءوا تحت زعامة، « جنزريش » أو « جيزريش (Genserich-Geiserich) واحتلوا سنة 439 بعد مولد المسيح قرطاج الحديثة، التي أصبحت مستعمرة رومانية غنية وأقاموا في هذا الجزء من افريقيا الذي افتكوه من الرومان دولة الفندال الشهيرة التي دامت ما يزيد على قرن، الى أن قضى عليها « جوستيان » بفضل قائده الباسل « يليزار ». وقد أبحر « بليزار » في صائفة 533 بعد مولد المسيح من ميناء القسطنطينية على رأس 10000 جندي من المشاة و5000 من الخيالة وقصد ساحل افريقيا الشمالي ونزل ببلده وسار نحو قرطاج عبر حضرموت، حريصا على استمالة قلوب الأهالي أينما حلّ بفضل انضباط جيشه التام. ولم يمرّ على نزوله طويلا حتى دخل قرطاج منتصرا. وحصّن المدينة وبتد في فترة وجيزة دولة الفندال بافريقيا. وعيّن لولاية قرطاج حاكما رومانيا عاما يقال له « Eparchen ». واستعادت هذه المدينة مكائنها كقاعدة اقليم روماني. وفي سنة 534 عاد « بليزار » — الذي يصح نعتة بشييون الثالث — الى القسطنطينية.

وكانت المسيحية قد أثبتت منذ وقت باكر جذورا في قرطاج ومحيطها. ففي أواخر القرن الثاني انبثقت من الظلام في هذا الاقليم كنيسة من كنائس المسيح واسعة الانتشار. ويذكر ترتوليانوس (Tertulian) أن آلافا عديدة من كلا الجنسين ومن كافة شرائع المجتمع كانوا في ذلك العهد يعتنقون المسيحية وأن قرطاج عاصمة افريقيا الـ « بروقنصلية » كانت تظهر بمثابة مشتل من مشاتل الانجيل بالنسبة الى مستعمرات روما في هذه الربوع الافريقية. وتوطدت أسس الكنيسة المسيحية منذ ذلك الوقت على هذه السواحل بصفة مطردة وتغلغل نفوذها الى داخل القطر. وعلى حين غرة ظهر الفندال، هذا الشعب المتوحش، ومحقوا هذه النبتة الفتية الجميلة. وقد اكتسحوا البرّ وكأنهم السيل الجارف وتحاشتهم الكنائس الرومانية في كل مكان. وكان « جنزريش » لم يلبث أن تنصّر بمعية عصاباته الهمجية، على يدي قسيس « أرياني »، تنصّرا صوريا لا إيمان فيه. ونظرا لأن الكنيسة الافريقية كانت زمن ظهوره بالذات تعاني من الانشقاق والانحلال، من جراء

التطاحنات الدامية بين فرقتي « الدوناتية » و« الأريانية »، فقد رأى الأمير الفندالي أن يرّجح كفة فريق على حساب الآخر حتى يتيسر له تركيز سلطته في أسرع وقت ويكسب حلفاء أقوياء من أهالي البلاد. واعتزم مناصرة « الأريانيين » المضطهدين وملاحقة أتباع الكنيسة الكاثوليكية بالحديد والنار. فما أن تمّ له فتح قرطاج حتى شرع يلاحق رجال الكنيسة المحلية بقساوة وعنف. واضطر أكثر أساقفة الكنيسة صبرا وتجلدا، وغيرهم من وجهاء القوم، الى التخلّي عن مناصبهم أو الاستسلام الى نير الاسترقاق. وكان مصير أسقف قرطاج آنذاك أن أمر « جنزريش » بإيداعه، عاريا وصحبة قساوسته، سفينة بها ثقب. إلا أنها وصلت بهم رغم كل الأخطار الى مرسى نابولي. وتواصل اضطهاد رجال الدين الصحيح، بصرف النظر عن بعض فترات الهدنة، طيلة حكم الفندال. ويقال إنه تمّ خلال ذلك العهد تشريد 54 أسقفا من الاقليم « البروقنصلي » و125 من نوميدا و120 من موريطانيا و107 من « بيزاسانيا » إلخ. أي ما يساوي في المجموع 464 أسقفا، منهم 88 من قرطاج، لقوا حتفهم قبل انطلاقهم الى المنفى من جراء ما لحقهم من سوء المعاملة.

وبعد القضاء على حكم الفندال على ساحل افريقيا الشمالي، بفضل « بليزار »، بدا كأن حكومة القيصر الاغريقي « جوستيان »، الحديثة العهد، تبشر بيعث جديد للكنيسة المسيحية في هذا الجزء من المعمورة. إلا أن هذه الكنيسة شاطرت الأمبراطورية الاغريقية المنحلة، التي انضوت تحت لوائها، فسادها الأخلاقي وتسيّها وبالتالي أصيبت معها بعد مضي قرن فقط بالعقوبة الربانية التي تلبدت على تخومها الشرقية وكأنها سحابة الاعصار السوداء.

أجل، لقد بدأ زحف جيوش العرب الموالية لمحمد والفاطحة على شمال افريقيا منذ سنة 647. وقد تمّ للخليفة عثمان — وهو ثالث من خلف محمدا — القضاء على الأمبراطورية الرومانية الشرقية وعلى كنيسة المسيح الملحمة بها. وتقرر مصير أقاليم شمالي افريقيا الفتاء اثر موقعة حامية الوطيس الثقت فيها شعوب متعددة وانتشر فيها، بعد اقتتال استغرق أياما، القائد العربي

تونس في 12 جانفي 1836

لما بادر العرب باقتحام ساحل افريقيا الشمالي سنة 647 توغلوا منتصرين حتى خليج سرتا الصغرى أي مملكة طرابلس حاليا. إلا أن حروبا أهلية حالت دونهم ودون مواصلة الغزو ثم قاموا بعدة حملات أخرى باءت بالفشل، بعد بداية مكلفة بالفوز. وهزم عبد الملك [بن مروان] جيوش الأهالي الأصليين ثم أرسل سنة 692 حسان [بن النعمان] على رأس جيش جرار لاتمام اخضاع افريقية. ونفذ هذا ما أوكل اليه وافتتح أرياف ساحل افريقيا الشمالي ومدنه، بما في ذلك ملكة هذه المدن سالفًا، قرطاج، التي كانت آنذاك قاعدة الصناعة المدنية والحرية معا. لقد تحملت هذه المدينة المجيدة والتعيسة في آن واحد الدمار ثلاث مرات متتالية، وها هو الآن حسان يصيرها رمادا.

ولم يدم هذا الاحتلال بدوره طويلا، فبعد أن هرب الأهالي الأصليون أمام هجمة العرب العنيفة إلى شعاب جبال الأطلس طلوعوا منها سنة 698 وصدورهم تفور بغضب التعصب والتفوا حول راية النبوة التي كانت ترفعها ملكتهم الكاهنة. وأسفرت أساليبهم الحرية المتوحشة عن تحطيم ما تبقى من معالم الفن القديم وشواهد عظمته في هذا القطر الذي كان فيما مضى يحفل بالازدهار والعباد والعمران، والذي أضحى على مدى ثلاثة قرون عرضة للنكبات والرزايا التي ما انفكت تنهال عليه سواء من الداخل أو من الخارج.

وذهب حسان وأخذ موسى [بن نصير] مكانه في ساحة القتال الدامية وقد أرسله الخليفة الوليد، مصحوبا بابنيه عبد الله وعبد العزيز، وفي سنة 709 تمكنوا من انتهاء هذه الحرب الضروس. ولم يرضخ الأهالي ويستسلموا لسلطان «الهلال» إلا بعد أن مني المسيحيون منهم والبربر بأنكر الهزائم وبعد أن وقع ثلاثمائة ألف منهم سجناء. وأذعنوا لتعاليم القرآن وتعلموا لغة الغالب، وكما اندمجوا معه في عقيدة واحدة انصهروا معه شعبا واحدا.

عبدالله [بن أبي سرح] على القائد الروماني «غريغوريوس» (جرجير) [...] وخرّبت قرطاج بتمامها ولم تستفق هذه المدينة العظيمة في سالف الأيام من هذا الدمار الأخير، بل أضحت تندثر يوما بعد يوم وتنقرض عن سطح الأرض. وها نحن اليوم نرى المحراث يجري فوق ما كان سابقا شوارع مكتظة بالخلق ونرى غنم الرعاة ترعى وتربض هناك حيث كانت تشمخ العمارات الفاخرة، وصار السائح يمشي بين أكوام الحجارة غارقا في عميق الأفكار متسائلا في كدر وكآبة: «أصبح أن قرطاج كانت تقوم في هذا المكان!»

ورغم أن قرطاج الأثرية تبعد عن تونس ما لا يقل عن أحد عشر ميلا أنكليزيا فإن بقاياها تتراعى حتى أبواب الحاضرة من جهة وحتى حلق الوادي من جهة أخرى، كما تغطي بحيرة تونس جزءا كبيرا منها. وتوجد حاليا على مقربة من مرفأ قرطاج عدة منازل ريفية جميلة تحيط بها أروع البساتين، يؤمها جل القناصل الأوروبيين في فصل الصيف. وترسم بوضوح أمام الناظر تلك الهضاب التي كانت تقوم عليها قرطاج العظيمة. وتعلو اليوم إحداها قرية «سيدي بوسعيد» الإسلامية، هذا الحرم المشهور الذي يلوذ به المجرمون ويمثل للعيان على مسافة قريبة من هذا الموقع برج أسسه «لويس التقي» [كذا] ملك فرنسا، وبجواره ضريح هذا الملك. وقد صعدت في مناسبتين إلى أعلى هذه الهضبة لأمتع بصري بالمنظر الطبيعي الفتان الذي يتاح للمشرف، منظر دائري على محيط يبلغ ستين ميلا. وتجلّى لي يسارا رأس «بونه» أو «كابا بونه» [الوطن القبلي] وقرية سليمان، وجبال حمام الأنف العالية وقلعة حلق الوادي ومرساه وخليج تونس وبحيرتها والمدينة ذاتها. ولاحت لي يمينا قرية أريانة وخليج البحر الأبيض المتوسط [!]. «وبورتو فارينا» أو غار الملح الواقع في مصب وادي مجردة، وفي الأسفل نرى آثار قرطاج وسهولها. وأجمل بقايا هذه المدينة المشهورة سالفًا 14 صهريجًا حسنة الصون، عمق الواحد منها 80 قدما وعرضه 20 قدما، ثم أجزاء متقطعة من حنايا المياه ثم أكوام من الحجارة. وما زال إلى يومنا هذا يعثر في هذا الموطن الأثري على الكثير من القطع النقدية العتيقة ولا يتطلب اكتشافها تنقيبًا طويلا أو جهدا فقد عثرت شخصيا على عدد منها دون بذل كبير عناء.

وتحولت قاعدة العرب السياسية والعسكرية من قرطاج المخربة الى القيروان. وبعد مدة وجيزة وفي سنة 805 تأسست مملكة تونس [كذا] وقد سبقها تأسيس مملكة فاس سنة 788 وتبعها فيما بعد في سنة 1069 قيام مملكة مراکش. وفي غضون هذه الحقبة بويج أبو فارس ملكا على تونس. وزحف على المغرب منتصرا وعين نفسه سلطانا على كامل بلاد البربر.

وفي القرن الثالث عشر اتخذ في فرنسا القرار بتنظيم حملة على تونس، وفي سنة 1270 أرسى القديس لويس ملك فرنسا قرب آثار قرطاج وزحف على تونس لكنه هزم ومات بالطاعون ودفن في تراب افريقيا. وسند ذلك العهد استقامت الأمور لملوك تونس وتداولوا ملكهم بدون منازع الى غاية القرن السادس عشر ودخلوا بمعية دول الجزائر وطرابلس والمغرب في حرب شعواء ضد أمة المسيح واغتصبوا السفن وكيبلوا ركابها بأغلال العبودية. وفي هذه الظروف ظهر سنة 1535 شارل الخامس، ملك اسبانيا، على رأس أسطول جبار واحتل مدينة تونس. ثم حصّن ميناء حلق الوادي وشيّد في تونس قلعة القصبة. ورام توسيع فتوحاته لكنه هزم بالجزائر وفقد كل ممتلكاته على الساحل الشمالي [لافريقيا]. وتلا ذلك أن أعلن السلطان سليم نفسه حاميا لسائر دول بلاد البربر وولى على كل دولة منها حاكما برتبة باشا. ولكنه لم يلبث أن تراجع عن هذا القرار وسمح بأن ينتخب الأهالي المسلمون والعرب [كذا] لأنفسهم دايا يدير شؤونهم، وهكذا كان. إلا أنه سرعان ما عظم نفوذ الجزائر وتمكن دايها من فرض سيطرته على تونس الى سنة 1684. وفي هذه السنة نفضت تونس عنها قيود التبعية التي فرضتها عليها الجزائر وبايعت بايا من رجالها يدعى محمد. لكن الجزائر شنت هجوما على تونس بحشد هام فقر الباي المنتخب حديثا الى الجبال وعين الجزائريون تركيا يدعى محمد بن شكر (39) بايا على تونس. ولكن ما إن انسحبت القوات الجزائرية حتى زحف الباي المخلوع محمد على تونس في جيش

(39) يرد هذا الاسم في النص الألماني خطأ على النحو التالي Mohamed Ben

من أعراب الجبال. واحتل تونس وأطرد أترك الجزائر الى ديارهم واستتب له الحكم حتى وافاه الأجل. وخلفه شقيقه رمضان باي الذي لم يلبث أن مات مقتولا من قبل ابن أخيه مراد. وما ان أمسك هذا بزمم الحكم حتى عاجله الشريف ابراهيم [كذا] بمصير مماثل واحتل مكانه. ولم يمض وقت طويل على تربيته على العرش حتى تعين عليه الخروج لمقابلة الجزائريين فوق سجينا واقتيد الى الجزائر. وحينذاك قدّم الجيش عليه حسين بن علي [...] ومنه تنحدر الى اليوم سلالة بايات تونس بصفة منتظمة. وتمكن الشريف ابراهيم من الفرار من محبسه وأبى إلا أن يعود الى مملكة تونس آملا أن يجمع أنصارا يعتمد عليهم، لكن ألقى عليه القبض وقتل بأمر من حسين بن علي. ولم يكن حظ هذا أوفر ممن سبقه فقد قام عليه ابن أخيه علي [باشا] وأطاح به ونفاه الى سوسة ولما تطاول فيما بعد على استعادة حكمه قتل في حين تمكن ابنه من النجاة بنفسيهما الى الجزائر. وكان حاكمها يكن العداء لعلي باي فأغار على تونس بعساكره وأعدم علي باي ونصّب محمدا، أكبر أبناء حسين بن علي، على كرسي الحكم. وما هي إلا فترة وجيزة حتى مات هذا الباي تاركا ابنين دون سنّ الرشد هما محمود واسماعيل. فحكم علي، شقيق الباي الراحل نيابة عن ابني أخيه، لكنه عرف قبل وفاته كيف يضمن الخلافة لابنه حمودة. وبويج هذا بالفعل بايا سنة 1780 [كذا] وكان من أرشد من تولى عرش هذه المملكة. وكان يتكلم العربية والتركية والابطالية وتدين له المملكة بعدد المنشآت النافعة والاصلاحات وجّهز جيشا قوامه أربعون ألفا من أهل البلاد وستة آلاف من الأتراك وطهر البلاد بأسرها من قطاع الطريق وساد بحنكة وسداد رأي ومضت على حكمه ثلاثون سنة ثم سقط في إحدى ليالي رمضان من علي كرسيه صريعا بعد أن شرب فنجان قهوة، ذلك أن القهوة كانت مسمومة. وتبوأ أخوه عثمان العرش من بعده. بيد أن محمود واسماعيل، وليّ العهد الشرعيّين، لم يزالا على قيد الحياة. وتمكّن من الفتك بعثمان وابنيه واعتلى محمود العرش سنة 1815 ولم يمض على بيعته وقت طويل حين قام صاحب الطابع، صهر الباي، بحبك مؤامرة ضده واكتشفت الخطة فكانت العاقبة أن أريق دم صاحب الطابع

الفهرس

9	مقدمة المترجم
15	هوامش المقدمة
17	مقدمة الناشر الألماني
18	الانطلاق من تونس صوب حمام الأنف وسليمان
28	التحول من سليمان إلى نابل والاقامة فيها
34	من نابل إلى الحمامات
36	في الطريق إلى سوسة عبر هرقل
40	في سوسة
47	التحول إلى المنستير والاقامة فيها
51	في الطريق إلى المهدية
54	زيارة الجرم وما طرأ فيها
62	في صفاقس
68	التحول إلى قابس بحرا والاقامة فيها في ضيافة «الفيلسوف» المالطي
78	جلسة قضائية في «جاره»
82	التحول إلى جربة بحرا
85	الوصول إلى جربة والاقامة فيها في ضيافة مصطفى بن براهيم
88	في ضيافة الحاج يونس بن يونس
92	الحديث عن جربة وأهلها
98	السفر إلى طرابلس بحرا
100	الحديث عن الحرب الأهلية بطرابلس وما انجر عنها
104	في طرابلس
109	في طرابلس
117	العودة إلى جربة ومتاعب الحجر الصحي
120	العودة إلى تونس بحرا حتى صفاقس وبرّا من هناك

وأناس كثيرين منهم المتورط ومنهم البريء. ولم تتجاوز فترة حكم محمود خمسة أعوام فخلفه بعد موته ابنه حسين (40) الذي لا يعاب عليه، بغض النظر عن مشاركته في اغتيال عمّه [كذا] (41) وابنيه، شيء سوى ميله إلى حياة الرّخاء والتّرف. وقد توفّي حسين في شهر ماي من السنة المنصرمة فتلاه على العرش أخوه مصطفى الذي يرجى منه الخير كلّهُ.

(40) استولى محمود باي على الحكم سنة 1815 ومات سنة 1824 . غير أنه

سلم منذ 1819 مقاليد الحكم إلى ابنه حسين باي .

(41) عثمان باي ، ضحية هذا الانقلاب ، هو في الحقيقة ابن عمّ محمود باي ،

والد حسين .

أخبار من تونس وقصر باردو : رجوع شكير صاحب الطابع بفرمان السلطان العثماني	
— زواج محمد باي بابنة الشيخ محمد بيرم — زواج شكير بابنة حسين باي	123
وصف مدينة تونس وأهلها	130
جدال حول الدين	139
حضور عقد قران	147
زيارة آثار قرطاج وسرد تاريخها	150
بسطة (سقيمة) عن تاريخ تونس الاسلامي	157
الفهرس	161

"REISE VON TUNIS NACH TRIPOLIS" des EVANGELISCHEN
MISSIONAR Christian Ferdinand EWALD / Mounir FENDRI - Tunis :
Fondation Nationale pour la Traduction, l'Etablissement des Textes et les
Etudes "Beit Al-Hikma" : 1991 (Tunis : PRISME) 168 p. 24 cm (Traduction :
Historiographie) - Relié.
I.S.B.N. 9973-911-63-6.

il a été tiré de cet ouvrage 3000 Exemplaires
dans sa 1^{ère} édition

© Tous droits réservés à la Fondation
Nationale "Beit Al-Hikma", 1991

Reise

des

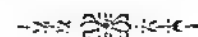
evangelischen Missionar

Christian Ferdinand Ewald,

von

Tunis über Soliman, Nabal, Hammamet,
Susa, Sfax, Gabis, Gerba nach Tripolis,
und von da wieder zurück nach Tunis,

im Jahre 1835.



Herausgegeben

von

Dr. Paulus Ewald,
Königl. Pfarrer zu Plech.

Mit vielen Kupfern: Ansichten, Pläne, Trachten u.
enthaltend.

Nürnberg,
Verlag von Ferdinand von Ebner.
1837.

Série B : TRADUCTION

- 1 - "Les Travailleurs tunisiens et l'émergence du mouvement syndical" de Tahar Haddad. Traduit de l'arabe en français par Abderrazak Halioui, 1985.
- 2 - "La physique moderne et ses nouvelles théories" d'Arthur March. Traduit de l'allemand en arabe par Ali Belhadj, 1986
- 3 - "Songs of Life" (choix de poèmes de Chabbi). Traduits de l'arabe en anglais par Lena Jayyussi et N. Shihab Nye, 1987.
- 4 - "Breife aus Tunesien" de Heinrich Barth (Relation de voyage en Tunisie en 1845-46). Traduit de l'allemand en arabe par Mounir Fendri, 1987.
- 5 - "Le Petit Livre du Salut" de Miskawayh. Traduit de l'arabe en français par Roger Arnaldez, 1987.
- 6 - "Kashf al-asrâr"... (Traité d'arithmétique et d'algèbre), de Qalsadi. Traduit de l'arabe en français par Mohamed Souissi, 1988.
- 7 - "Journal" d'Aboul Qasim Chabbi. Traduit de l'arabe en français par Mongi Chemli et Mohamed Ben Smaïl, 1988.
- 8 - "La langue des Mathématiques en arabe". De Mohamed Souissi. Traduit du français en arabe par l'auteur, 1989.
- 9 - "Sources de la philosophie arabe". De P. Duhem. Traduit du français en arabe par Abou Yaareb Marzouki, 1989.
- 10 - "Semilasso in Africa". Traduit de l'allemand en arabe par Mounir Fendri et Sahbi Thabti, 1989.
- 11 - "La grammaire transformationnelle". De Maurice Gross. Traduit du français en arabe par Salah Kechaou, 1989.
- 12 - "Les Cent poèmes du Japon". Recueil traduit du japonais en français par Claudine Frey et du français en arabe par Mohsen Ben Hamida, 1990.
- 13 - "L'évolution économique de la Tunisie". De Mohamed Salah M'Zali. Traduit du français en arabe par Hédi Timoumi, 1990.
- 14 - "Les Egyptiens" (Réplique à un pamphlet du Duc d'Harcourt - fin du XIXe siècle) ouvrage écrit en français par Kassem Amin et traduit en arabe par Souad Triki, 1990.
- 15 - "Sleepless nights" de Ali Du'aji. Traduit de l'arabe en anglais par William Granara, 1991.
- 16 - "La familia de Pascual Duarte" de Camilo Jose Cela. Roman traduit de l'espagnol en arabe par Jomaâ Cheikha et Mohamed Néjib Ben Jemia, 1991.

Directeur-responsable : Le Président de la Fondation Nationale BeIt Al-Hikma
Azedine BASCHAOUCI

REISE

VON TUNIS NACH TRIPOLIS (über Soliman, Nabal, Hammamet, Susa, Sfax, Gabis, Gerba)

des
evangelischen Missionar
Christian Ferdinand EWALD
Im Jahre
1835

INS ARABISCHE ÜBERSETZT
von
MOUNIR FENDRI

REPUBLIQUE TUNISIENNE

MINISTERE DE LA CULTURE

Fondation Nationale
de Carthage - "BEÏT AL-HIKMA"

La publication de cet ouvrage est
subventionnée par le Ministère de la Culture,
sur la recommandation du Ministre,
Monsieur Mongi Bousnina



TRADUCTION

HISTORIOGRAPHIE

REISE

VON TUNIS NACH TRIPOLIS

***(über Soliman, Nabal, Hammamet,
Susa, Sfax, Gabis, Gerba)***

des
evangelischen Missionar
Christian Ferdinand EWALD
Im Jahre
1835

INS ARABISCHE ÜBERSETZT
von
MOUNIR FENDRI

FONDATION NATIONALE Carthage